

عبدہ خال

# نباح

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)

^RAYAHEEN^

الطبعة الثالثة

مشورات الجمل

رواية

منتديات ملائنا [www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)

## هذا الكتاب

وكلابي الصغيرة أين هي الآن، خطفتهم الغولة جعدة،  
وخبأتهم في مغارة لا تصل إليها العين، ربما يقتعدون  
غرفة صغيرة مغلقة الأبواب ينبحون كما يشاؤون،  
وأهمهم تركض مع زوجها في مكان ما من جدة تمسح  
بيدها عمراً قضته في انتظار رجل عشق الفراغ فانتقل  
إليه بمخيلته وبالسفر.. هي وأولادي رحلوا أيضاً  
لفراغ آخر، سيتنبه الريح أنني عمود دخان، وسيعود  
ليمزقني.. سيمزقني، فإلى أي أرض سأمضي؟!

أبعدت صورة ذلك الجرو وتطلعت من النافذة...  
غابت عدن ولا أثر لتلويحة يدين صغيرتين، ارتفعت  
الطائرة عالياً.. عالياً جداً.

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)

^RAYAHEEN^



الإهداء

لكل أوغاد العالم .. لعنة كبيرة

عبد خال

ولد عبده خال عام ١٩٦٢ في منطقة جازان/السعودية. درس العلوم السياسية في جامعة الملك عبد العزيز بجدة، يقيم اليوم ويعمل هناك كمشرف على الملحق الاسبوعي الثقافي بجريدة معاكظه. من مؤلفاته: لا أحد، قصص (القاهرة ١٩٩٢)؛ ليس هناك ما يبهج، قصص (القاهرة ١٩٩٣)؛ الموت يمز من هنا، رواية (بيروت ١٩٩٥)؛ مدن تاكل العشب، رواية (لندن ١٩٩٨)؛ من يغني في هذا الليل، قصص (الدمام ١٩٩٩)؛ الأوغاد يضحكون، قصص (بيروت ٢٠٠٣)؛ الطين، رواية (لندن ٢٠٠٣). صدر له عن منشورات الجمل: الأيام لا تخفي أحداً، رواية ٢٠٠٢؛ الموت يمز من هنا، رواية ٢٠٠٣؛ ترمي بشور، رواية ٢٠٠٩ (فازت بجائزة البوكر العربية ٢٠١٠).

عبد خال: نباح، رواية

الطبعة الثانية ٢٠٠٧

الطبعة الثالثة ٢٠١٠

كافة حقوق النشر والاقتباس والترجمة

محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت - بغداد ٢٠٠٤

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٣٣٠٤

ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ - بيروت - لبنان

© Al-Kamel Verlag 2004

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: info@al-kamel.de



فعلها ذاك القواد الخسيس .

هاهي الطائرة نفسها تقلع في طريق العودة، ومدينة عدن تنام ملتحفة  
برداء البحر كعذراء سلبت بكارتها، فلاذت بجمع ثيابها الممزقة لستر عورتها  
المستباحة .

هكذا نعتها عياش قبل أن يلوح بيده مودعاً على بوابة الفندق، تصعد  
قدماي سلم الطائرة، وشيء يسيل من صدري لاعتناً هذه المدينة .

مدينة خلج الإنكليز رداءها، وقبل أن تفيق عاقرها الروس، وتركوها  
تتلقت باحثة عن مخلص يأتيها من خلف الغيب، تتلفت صوب البحر، وعندما  
تمل تعلق أهدابها على قمة جبل شمسان في انتظار مرتبك .

- حتى المدن تشتت خطاها حين يمتطي صهوتها سائس أخرق .

هذا تعليل عياش للارتباك الذي تعيشه عدن، يحفظ تضاريسها كما يعرف  
وجه أمه الذي تهدل بجريان ستين عاماً جرفت جمال امرأة عذنية، ولد في حي  
المعلا تنقل في أحيائها كهود أراك مهمته تلميع أرصفتها، وحين غادرها للعمل  
في السعودية اختنق، وكاد يموت في أزقة جدة فنقل للعناية الفائقة تحت سماء  
عدن ليعود خيلاً يصهل في كل حين، ويمجم بحشقه لها في المطبوعات  
المحلية .

فوجئ حين رأي آقف على باب منزله، اتسعت حدقتاه من خلال نظارته  
المحدبة (التي تغريني دائماً برفعها ووضعها في مكانها المناسب)، جمعني بين  
ذراعيه مرحباً، لم يكن ذابلاً كما عهدته، شيء ما يروي عروقه، ويظفر من  
وجنتيه... ليس هو ذلك الشخص الذي جمعني به مقاهي جدة المتناثرة على

... آوه المدينة تعج بالكلاب



شاطئ الكورنيش، كان شخصاً حياً متدفقاً.

في متجوه بشارع قابل نكس رأسه بين ذراعيه، وعندما عجز عن ابتلاع جلته انحنى، ودس جلته في أذني:

- بلدكم حظيرة كبيرة تربي العجول لتذبحها بهذا الملل... لا شيء فيها سوى العمل أو الموت!

يمقت السوفيت والإنكليز على السواء، فكلاهما بذر في تربة عدن مسامير الوجد لتتحول المدينة إلى آفة بحجم الألم الذي مضى، والذي سيأتي.

ها هو يقف مرة أخرى لتوديعي، نقف معاً لمضغ فاصلة في عمر قصير، كالأموات نتجاور، وليس لنا من هم سوى انتظار همة، وشراسة نملٍ عليه أن ينجز مهمته بقرضنا بأسرع ما يمكن!!

حزم حقيبتني، وناولني تلك الأوراق الرسمية صامتاً، كان يعلم أني سأطلق على مسمعه: أين هي؟

وقبل أن يتلقى هذه الرصاصة، حل حقيبتني وغمغم على عجل:

- سأنتظرك عند بوابة الفندق.

نهار كسول يعرك أطرافه بين خطوات عمال الفندق المتوجسة من إحداث ربكة يمكن أن تفرغ منها أجساد نزلاء الفندق المنهكة.

تنام تلك الأجساد في هذا الضحى انتقاماً من ليل أضنى أعطافها، وسلب ماءها في صفقة ساقطة.

قبل أن أصل إليه، كنت أتلفت في ممرات الفندق لا شيء هناك سوى تلك التادلة التي أبقت على ابتسامتها ناصعة وانكسار مريع يعترى وجهها، وأنا أضع بين يديها ما تبقى من حساب مكوثي كنزيل حظي بمعاملة خاصة... هكذا أفهمتي السيدة التي أنهت إجراء إخلاء غرفتي.

الهواء يعبر الشارع الفسيح مُبشراً بقدوم غيوم حبلى بماء مهين، تصرف السماء بروقاً صغيرة تنوه في أرجاء المدينة، وتبقى في المدى شارات يوم ماطر.

على بوابة فندق (وضاح) وقف عياش وجلاً لوداعي، تتلجلج كلماته،

وعيناه تحومان من خلف نظارته خشية أن يلمح أحد معارفه في هذا المكان، رغب أن يكون الوداع باتراً، هذه المرة لم يبقني كثيراً بين أحضانها، دفعني مراراً، واختصر الوداع بنصائح طالما سمعتها منه، في هذا الوداع عاد وجهه الذابل الذي كان يحمل في أزقة جدة، عاد كهلاً يحمل غربته، ووجع الترحال:

- نجد أقدارنا أينما ذهبنا فلا تبتش.

دفعني نحو سيارة أجرة - كانت تقف بجوار البوابة في انتظاري - وانزوى جانباً، لم ألتفت لتلويحته، ولم أشأ أن تتلاقى أعيننا، فدستت جسدي داخل السيارة مهملاً كلمات الوداع التي كان يطلقها تجاهي، منحته نصف التثاينة، كان يقف في مكانه، في جهة لا تكشفه، ولا تحجبه، وبده الملوحة تثير الريبة باختلاصها لخالتي متناقضتين فحركاتها تبتن بالثريث والوداع معاً، آخر ما لمحت منه نظارته المحدبة أكثر من اللازم، التي تكاد تسقط من على أرنبتة الغليظة، تقابلها دائماً رغبة ملحّة لأن أثبت لها كما يجب.

المائق شاب ثلاثيني غرق وجهه في سمرة داكنة أبانت بياض عينيه ولمعانها، استوى خلف مقود السيارة بابتسامة مشرحة:

- عياش أوصاني بك خيراً.

تنازعني رغبة البقاء، لعنت عياش في سري لم يكن جازماً في تأخير موعد رحلتي، فما إن أعلنت له رغبتني في العودة حتى كانت بطاقة صعود الطائرة ترفرف بين يديه:

- قلت لهم إنك ضيف الدولة، ومن العيب أن تعود في الدرجة السياحية كما جئت، فمنحوني بطاقة صعود الدرجة الأولى... اعتبر هذا الفعل هديتي لك.

أمسك بيدي المتسللة إلى جيبي:

- إياك أن تفعل، عد لابنائك، وسأنتظر أخبارك.

(أبنايتي، لم أخبره بشيء، لا أعرف لماذا لم أحدثه بما حدث، إن مهمة النارة الأساسية إسقاط عمود الخيمة، حين حضنا بعضها تمنيت أن أقول له:

شبت النار يا عياش، احترق كل شيء، بقيت لحظات وتنتهي النار مهمتها الأساسية).

حينما عبرت سيارة الأجرة مكتب الخطوط اليمنية كدت أمر السائق بالتوقف:

- هل يمكنني الحصول على رحلة في الغد؟

- لا أدري، هل تريد أن تتوجه لمكتب الخطوط؟

- لا لا، استمر في طريقك.

هذه الرغبات المختلطة والمتعددة تصبني بالارتباك، ماذا يحدث لو بقيت؟ الغمام يتواصى بالتوجه لقلب المدينة، وقد تخلى عن رذاذه ليعلق على زجاج السيارات، وعلى واجهات المحلات، وينحدر من على رؤوس العابرين للشوارع الموزعة في شرايين المدينة.

قولد مور، خور مكسر، صهاريج كوجلان، تمتلئ عدن بهذه الأسماء الإنكليزية، وضع الإنكليز أسماءهم ومضوا، تركوا أختامهم هنا مؤقتاً حين يعودون، الأقوياء والعارفون يعلمون بنتائج أعمالهم، والإنكليز يعلمون أن زمن العبودية سيعود مرة أخرى ساعتها يكفي أن يسترجعوا أختامهم وعبيدهم!

شوارع عدن بقايا لذاكرة إنكليزية لم يستطع الرفاق محو الشقافة الانجلوسكسونية التي جاءت إلى هذه البقعة في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ولم يستطيعوا إجادة لعبة الإحلال، والإبدال، بقي الإنكليز يمدون أعتاقهم من خلال الشوارع، والبيوت، والتاريخ، والذكريات، هنا في (الملا) رفات الإنكليز الذين لم يحافظوا على هذا الشجر الإمبراطوري، فحين أفرغت الخزانة البريطانية بفعل الحرب العالمية الثانية تخلت بريطانيا العظمى عن مستعمراتها، تخلت تحت شعار حرية تقرير المصير، هذه اللعبة السياسية القذرة تتناسخ صورها، وكل صورة تحمل استعماراً بشعاً يسوس الشعوب الغائبة بفعل الجهل، والجوع، والبطش.

لأنور شهية واسعة للنعن الغرب، واتهامه بالتريص بنا في كل حين.

أنور صورة لفارس عربي سقط من على جواده، وظل يركض في أرض

المعركة بلا سيف، أو درع، يحوم مدافعاً عن صدره بالشتايم، وعياش صورة أخرى: فارس أيقن من الهزيمة فترجل عن فرسه ليتعرف على الضحايا، وليعرف أيضاً كل المؤامرات التي تركته يجول أرض المعركة بهذه الهزيمة. مشكلة عياش أنه يعرف التفاصيل ويعيش داخلها.

كادت نظارته تسقط من على أرنبة أنفه وهو يسهب في تلك التفاصيل:

حين جاء السوفييت حولوا هذا الميتاء إلى مرتبط لخيولهم، ومدفأة لحرق حطب أخضر، ومجرى لرغبات ستالين، والرفاق العرب في كل أفعالهم لم يفتنوا للشرط التاريخي الذي يقيم عصب نظريتهم المحتمة، فللمكان شخصية رافضة، وقبل أن تستزرعها عليك أن تتصالح معها، أولئك السوفييت كانوا زراعاً حقى يبذرون الحبوب في أي أرض من غير تقليدها، أبقوا علفاً يأساً لا يصلح غذاء لتلك الأجساد المهذبة، واليوم تقف عدن بوابةً للذكريات الساسة المتناحرين على سجلات التاريخ، والمختصمين بين شواهد القبور المقبقة على وجه هذه الأرض الرحبة.

عندما أمسكت يدي بسلم الطائرة أضفت جملاً كثيرة في وصف هذه المدينة:

- آوه يا عياش عدن تقف اليوم بوابة للعذاب، بوابة لدهك الجسد، وبيع الرغبات الدنسة، والهوى المبذل.

ثرثرت كثيراً بهذه الخواطر التي غدت - من غير أن أعلم - طعماً لذلك السائق الذي وجد في نعمتي على الإنكليز، والسوفييت - معا - فرصة لأن يريني معرفته بالتضاريس السياسية التي عبرت هذه البقعة من الوجد العربي.

- لم يكن عبدالفتاح إسماعيل خيراً ممن مضى... وقلنا إن البيض خلع رداء الاشتراكية، وسيسمح لنا بأن نحلم قليلاً لكنه نكص قبل الألوان... الكل لوثنا!

صوب جلته إلى مسامعي كطلقات رشاش لن يقف قبل أن يفرغ خزيتي، كان علي أن أصل للقطار قبل فوات الألوان، ولو استرخى هذا السائق في سرد حكاياته، فسامكت ليلة أخرى في هذه المدينة المستباحة.



(ما بالي الآن على عجلة من أمري، فقبل لحظات كنت راعياً في البقاء ليلة أو ليلتين).

كنت قد استحثته للحديث كي أقطع تلك الصور الضاغطة على أعصابي، وفي جريان حديثه أجهدت نفسي للفصل بين زمنين: زمن السذاجة، وزمن الجرح. إننا ننسكب كالدقائق الذاهبة لمرقدها الأبدى، هناك حيث تملأ فراغاً متسعاً يستوعب كل خلفات البشرية.

إن الفراغ لا يشيع، دائماً يجد له فراغاً آخر يستوعبه.

حين بدأ السائق حديثه كانت تقف أمامي بعنفوانها، ذكرتني براقصات الاستريز اللاتي تدرين على إظهار مفاتهن المخياء، استوى جسدها بضاً شهياً، تلوت مينة ارتواء نهديها كما يليق بشجرة طفحت ثمارها، وحافظت مؤخرتها على تورثها الدائم، بقيت لدنة تستعصي على اللت، كانت تتلوى كحبة أدمنت الرقص على ناي زمار محترف، لم تكثر كثيراً بمشاعري وهي تخلع ملابسها قطعة قطعة.

أعاد البال جسدها المتعري الطافر بالمتعة، ذلك الجسد القاذف بشماره على قارعة الطريق من غير أن يأتمن أحداً على حفظه، هممت بالعودة لجمع تلك الثمرات المساقطة في سلة لأجففها كي لا تهرب موسماها.

في طريق المطار هممت مراراً بالعودة، وكلما خبت رغبة البقاء استدعيتها معللاً النفس بأن ليس هناك ما ينتظري، فأذعن لها، لألح عياش يقف مستخفاً بي، فأتير رغباتي في الهواء.

سللت خيطاً عشوائياً للحديث عن اليمن، وفي كل مرة أجد السائق مفتوناً بسرد وقائع من التاريخ (عزف نفسه على أنه طالب يستعد لمناقشة الماجستير في تاريخ مملكة سبأ وعلاقتها بالشام والحبشة) هذا التخصص كان وبالأعلى، حدثني عن الإمامية، وعن انفصال شطري اليمن، وعن تسلسل الإنكليز لشواطئ عدن، وعن قدوم الماركسية، وعن الثورة، وفي كل حديث له تبدر من رأسي عدة اهتزازات فيظنها استحساناً لقولاته.

عَضَّ على شفتيه بحسرة:

- يبدو أننا سنظل رهينة للاحتلال في ما سيأتي من أيام.

تنبهت أنه استرخى في مقعده، وقلل سرعته لحدودها الدنيا، منتشياً بسماء عدن المحتشدة بالغيوم والبروق الحاطقة والرياح المتساقط على مساحات واسعة من الطريق، ويبدو أن متعته لم تكتمل كما يهوى، ولكي يستكملها أغلق جهاز التسجيل، وبدأ يسرد وقائع التاريخ اليمني محللاً الضائقات الاقتصادية والسياسية التي عبرت هذه البقعة الاشتراكية في ما مضى من زمن:

- الرفاق علمونا أهمية التاريخ، وأهمية التثقيف لكنهم نسوا أن يوفروا لنا حياة كريمة.

تلجلج، ومد عنقه من زجاج السيارة باصفاً زوائد القات الطافحة بين أسنان فكه الأيمن المتطحلبة كطحالب بحرية ملها البحر:

- نعم نسوا ذلك.. هاجر الكثيرون هرباً من الفاقة، توافر معظمهم للسعودية، ولم يكتفوا بتأمين أملاكهم هنا، بنوا مجداً هناك.

كنت أفيق أحياناً من شرودي هرباً من تلك الصور التي تدامني عنوة، صور لها لزوجة المخاط تثير التفز، وتلتصق بالجسد، ومع كل محاولة لإزالتها يبقى شيء منها عالقاً بين الجسد وراحة اليد.

عياش أراد توديعي بكلمات التصبر، وتوهم ما حدث.

رأيتها أحسن ما تكون عليه حين تزين، ما زالت محتفظة بعادة ترك غرتها تغطي جزءاً من وجهها، وتتصنع رفع تلك الحصلة عن عينها في كل حين. كانت أشهى مما كانت عليه.

صوته يصلني كطاحونة تقاعست عن طحن حبيباتها، ربما يتحدث الآن عن مجزرة الرفاق الأحمر، كنت أسمعُه يصف تلك المقتلة التي تخل فيها الرفاق عن الأيديولوجيا، واستعاضوا برداء القبيلة، هؤلاء الماركسيون أرادوا أن يجعلوا الماركسية - في عدن - كعبة تحج إليها العرب فحين فقد غوريباتشوف مؤشر البوصلة، واتجه غرباً أثار حمية عبدالفتاح إسماعيل الذي أخذ يبحث عن وسيلة لإعادة المجد الستاليني في جنوب الجزيرة العربية، وليعاود بث الرايات الأحمر على بقاع الأرض، أي حق كان يمتلكه ذلك الرأس؟! غوريباتشوف يجد في



البيروسترويكاً منفذاً لبقاء السوفييت كقوة عظمى، وعبدالفتاح إسماعيل يصمه بالحياة العظمى للإرث الماركسي!!

أظنه لم يقل هذا! اختلط عليّ الأمر فقد قرأت شيئاً شبيهاً بهذا في كتاب «حرب الخليج» لمحمد حسنين هيكل.

حرب الخليج هذه الكارثة التي اصطليتنا بها كدجاج جلبب من حظيرة لتقديمه في وليمة عشاء فاخرة، وكان على المدعويين تنفيذ شرط الوليمة: الاستمتاع بالشواء، وترك لحمنا ينز، يتساقط زيتُه على نار مستعرة من غير أن تمسه يد!

- كم ضحية نضج جسدها في حفلة الشواء تلك؟

إبراهيم المؤذن، ياسين، أبو ناب، عيسى شرف، وفاء، زينب، فؤاد، ليلى، محسن، أنا، زوجتي، أطفال، العم جابر وحفيده، زوجة ابنه، وآلاف من البشر الذين لا أعرفهم.

جيعاً كنا في قضيب واحد نكمل دورة الشواء على مهل، كل منا تساقط لحمه في تلك النار المتأججة، أجدّ من أجسادنا ما لم يؤخذ من جسد صدام، أو جسد بوش مثلاً.

إبراهيم المؤذن ذلك المتيقن من إيمانه لم يتمتع بشبابه قضى سنوات سجنه في عمارات الإسكان بالشرقية، وحين خرج عاد لأفغانستان، عاد بعد أن شارك في إسقاط الرايات الحمراء، عاد يبحث مع رفاقه عن معركة أخرى بينما كانت أمريكا تتسلل إلى جوفه، حمل كرهها إلى بيشاور ربما ترافق مع ياسين ليهجرا بلدهما ويستقرا بين جبال باكستان وأفغانستان... قبل مدة وجيزة رأيت ابن ياسين ممسكاً بيد جده، قمر جاء من رحم أفغاني ليغرق في رطوبة جدة، العم جابر يقوده بيده وغصة تداعب حنجرتة، بقيت له أيام ويغادر هذه الدنيا، فمن سيتكفل بزوجة ابنه وحفيده، كان يبحث لهما عن بيت في حيناً نفسه علّه يرقد مطمئناً حين يتركهم في حي سيكرهما من أجله.

السائق لا يزال يتحدث عن الدحابة، هكذا وصف أهل اليمن الشمالي:

- هم يضيّقون علينا أرزاقنا.

ثرثرة هذا السائق لم تكن متوقعة، كنت في حاجة إلى استعادة ما حدث بشيء من الحيادية، كنت في حاجة إلى استيعاب ما حدث... لعنة الله على السياسة فهي تجعل الكل عالماً، وخبيراً. قاطعته كثيراً، وفي كل مرة أمّني نفسي أن يقول لا أعلم لكي يتوقف هذا الشلال الذي فتحته على نفسي، فكلمنا هربت منه جاءني كالطوفان، فأتقيّه بهز الرأس، والتعقيب بكلمة، أو كلمتين وفي كل مرة أتبه والسؤال يغادر فمي:

- وكيف وضعكم بعد الوحدة؟

كان متزاجاً بمياهه كتزاحم سماء عدن بغيومها الثقيلة، وكمن كان ينتظر نفقاً ليخرج منه نحو الضوء حشر كومة من القات المقطوف في شدة الأيسر، ومز سجارة (ماركة كمران):

- الدحابة يضعون أقدامهم في بطوننا، ولا أحد يستطيع أن يقول ثلث الثلاثة كم!!

صمت لبرهة كأنه تذكر المأ حداً نخر قحف جمجمته، فعقب على عجل:

- علي عبدالله صالح أراد الوحدة لكن الحرب والفاقة بقرتا بطوننا.

صمت كما فعل سابقاً، وتطلع نحوي بارتياب:

- هل أنت يمني؟

وعندما لم أجبه، واصل صمته، واستحث همته في إيصالي من غير بطء فيما كان المطر ينهمر في محاولة يائسة لتطهير أدران المدينة.

عدن تغتسل الآن غسل الجنابة.

ها نحن نحلّق في سمانها، والمطر يتساقط من غير هواذة، وعينا يبحثن  
عن ذلك الفندق الرث علني الملح يدين صغيرتين تلوحان مودعتين من هناك.  
نحن لا نستسلم للفقد بسهولة، حينما نفقد شيئاً نلمحه يدب تحت  
أهدابنا، نلمحه كما كنا نخترنه في ذاكرتنا هامشياً غير ذي بال، يتحرش  
بأصابعنا، فنذبه في كل حين حتى إذا احتجنا تلمسه غاب من بين أحداقنا،  
ويبقى مدلل في سقف ذاكرتنا، وكلما حاولنا استرجاعه أمعن في الغياب،  
فتمنع في أوهامنا بأنه ما زال يتلعثم بين أصابعنا.

إنها لعبة الفراغ، نحن كائنات انتقالية، الفراغ يتشكل وفق الأحجام التي  
يلتهمها. هي لعبة مغايرة لما اعتدنا عليه... ثمة هابوة سحيقة تدعى الفراغ،  
هناك تستبدل الحياة أرديتها، وتشرق من جديد، فالإله رع يغيب في الفراغ  
وينزع في فراغ آخر! حتى الأسطورة غير آمنة بالبوح بهذا السر العميق!  
جنحت الطائرة غرباً، وأصبح من المتعذر رؤية الفندق من الجهة التي  
أقمتها، تبدو قلعة (صيرة) معلقة هناك كحلم ملائكي تجمد في السماء قبل  
أن يهطل على الأرض، وتظهر ممرات صهاريج (وادي الطويلة) كأخاديد  
اسودت ونضب ماؤها، فجلست في وحدتها تفاخر بتاريخ منقرض مسح من  
الذاكرة، وبقي اسم مكتشفها الإنكليزي مثبتاً على مدخلها (صهاريج كوجلان)  
بقي اسمه كقنبلة نسفت آلاف السنوات، وذعبت بحضارة رجل يعني جاء من  
أول التاريخ لينسل مدينته بماء السماء.

المستعمرون يصنعون مجدهم على أنقاض المدن القديمة، يكتبون تاريخاً  
مزوراً، كما يفعل من سبقهم تماماً.

هذه المرة لا يجاورني أحد في مقعدي البائس.

تمكن عياش من اختطاف بطاقة صعود للدرجة الأولى، ودسها في حقيبتي  
كهدية يمكن أن تغطي على عجزه لعدم تمكنه من إقامة وليمة تجمعنا معاً.  
كانت اعتذاراته تقلل من نبرة صوته العنقوي، وهو يسر بضيق الحال، استنكر  
فعلي حينما مددت إليه بألف ريال سعودي كمساعدة بسيطة تعينه على عبور  
الضائقة المالية التي يمر بها.

لم يكن أمامي سوى التحديق من تلك النافذة الضيقة التي تبين لك جزءاً  
من تلك الأماكن الغائرة في الأرض، تبدو بقايا شظايا قابلة للانفجار في  
أعماقك.

ها هو اليمن يتبعثر أسفل الغيم، وها هي المدن، والقرى التي كانت  
مرشحة لأن أطأها بحثاً عنها تغدو فخاخاً مهياةً لالتهماء فريستها بخداعة  
المدرين.

شيء محروق يتساقط من داخلي كتساقط لبنات بيت خرب.

منذ أن قرأت عن الإنكليز كرهتهم، كرهتهم منذ أن عرفت مواقع المدن  
على الخارطة، والآن تتضاعف هذه الكراهية، لقد أسسوا منابع لتدفق الدم،  
وأبقوا خنجرأ معلقاً في الحاصرة، ومضوا.

الهزائم متشابهة المذاق: هزيمة الحب، هزيمة الحرب، هزيمة الذات،  
هزيمة الوجود، كل الهزائم متشابهة، كبرت أم صغرت، فلها المذاق نفسه فهي  
تعبير التفق نفسه، مخلقة طعمها المر، وباذرة أساها، وحالة من الاستدراكات لا  
طائل منها، استدراكات تلوم النفس المنهزمة، ولا تقيها من الانغماس في  
حسرتها.

التهدات الحارة نفسها التي تثقب صدري شممت رائحتها متبقية من صدر  
أبي، وزاد عليها أن قضم شفته السفلى، وضرب فخذه بقوة:  
- صدقت يا ورد!

أخيراً صدّق أبي على مقولات صديقه عثمان الوردني حينما كان يشاهد  
الصواريخ، وهي تقصف بغداد في عملية تلعب الصحراء، تلك العملية التي



تركت أجساداً مجندلة، وبحر دماء يطفو على جنبات شاشة التلفاز، تنهد عميقاً، وزفر حمه من خلال جلته التي ظلت عالقة في غيلتي:

- الحرب دائماً تأتي بحر الموت، والفقر، والعار.

وكانه لم يرتو فأكمل جلته:

- من هذه العناصر تُعد عجينة الفساد، والفساد لا يحتاج إلى زمن طويل كي يتخمر.

لم أكن مدركاً أن اللذة التي كنا نمارسها في انتظار اشتعال الحرب يمكن أن نكون نحن الخطب المقدم لأستنهاهما بعدنا عن لهيبها. حين تقوم الحرب لا تنتهي بانتهاء أصوات طلقات المدافع، احتجنا إلى سنوات طويلة لنصل إلى هذه الحقيقة.

ليل زوجة الرقيب محسن البكر بعد موت زوجها في حرب التحرير لم تجد شيئاً تقابل به تكلفة الحياة الباهظة إلا جسدها، ترمي أسفل تلك المجنزرات اللاهثة لتدهس عظامها مقابل مائة ريال تطيب بها وخزات ضميرها، وتشتري ما تحتاجه لأولادها الذين يتعلقون بعنقها كلما خرجت للدهس اليومي.

احتجبت مدينة عدن خلف السحب، وأمعتت الطائفة في علوها، ولم تفلح عيناى الباحثتان في نقطة ما على تلك الأرض من رؤية يدين صغيرتين تلوحان لتمحو ما كُتب في زمن ما.

كما ذهبْتُ عدت، عدت أتمسك تلك الوثيقة الرسمية، وأحدق في ملامح ذلك الجرو الصغير، وكلما نشرتها أمام بصري أيقنت بما حدث، أيقنت بتفاهة كل الأشياء التي تغتالنا حيناً من الدهر.

ما بالنا نضع جمرات في راحة حياتنا، ونركض على مدار الأيام لقتلها، وحين يحدث ذلك، نعود للبحث عن تلك الجمرات الحارقة. إن حياتنا لا تصلح من غير عذاب، أو لوعة تشعرونا بأننا أحياء!!

- هذا هو قانون الفراغ.

ها أنا أعود عمود دخان، بقايا لحرب كنت هشيمها، أعود كرسمة خطها جندي استدير المعركة ومضى يحجب القفار هرباً من رؤية دمه المسفوك فريسة

لرمال صحراء شرهة، عدتُ رسماً لكائن ستنتبه الريح له وتذروه في الجهات الأربع.

ما نستلذ به في حينه ربما يتحول إلى علقم يميز حناجرنا في زمن آخر.

تقافزنا لأسطح المنازل نقلب أبصارنا في السماء المحتشدة بأسراب الطائرات الحربية المتقاطرة بضجيج متعال.

- انظر هناك.

تصفو سماء جدة نابذة أي سحابة توسوس بالتواصل مع أرض سبيخة، وتُبقي على فضائها صحواً طوال العام غير مكترثة بصلوات الاستسقاء المقامة في جميع أنحاء مساجدها الثائرة في كل الأحياء.

هذا الصفاء المبالغ فيه سمح لنا بروية كل تحركات الطائرات الحربية المحلقة في سماءها، والماخرة باتجاه الشرق.

لم يكن أي من تقافز لأسطح المنازل يمتلك خبرة كافية في ما يدور على حدودنا الشمالية، والشمالية الشرقية. كنا نردد كلمة الحرب غير مدركين عواقبها.

ظل تلافازنا صامتاً عن الاحتلال العراقي للكويت ثلاث ليال، وفجأة انفجرت كل الوسائل الإعلامية لتخبرنا أن أرضاً عربية أخرى تروّج تحت الاحتلال.

كان في الأمر فجعية غيابة بشكل سري، وكانت مشاعرنا تتشكل كعجينة صلصال رخوة أغدق عليها الماء فتمددت بغير استواء.

اتخذنا من مراقبة تلك الطائرات نوعاً من الترفيه، والتلذذ بأجواء غريبة تعبرنا لأول مرة في تاريخنا الشخصي، ولم يشأ أحد أن يهون من الأمر كي لا تموت تلك التمتع الحارثة لسنوات طويلة من الركود، فجمعينا أوصل الخطر لمنايع الأفتدة، وفتت سدود الطمأنينة، فتشعب بيننا فزع دفع بمجموعات كبيرة لتخزين المواد الغذائية والمشروبات بكميات مهولة استعداداً لحرب قادمة، ومشاهدة أيام لا نشاهدها إلا من خلال شاشات التلفاز.

كانت مشاعرنا متناقضة: خوف وتلذذ، ترتّب وتهاون، تهويل وتحقير، قلق وطمأنينة.

كنا نقف على طرفي نقيض كل شيء.

هذه المشاعر المتناقضة خلقت مواقف ساخنة وباردة، أياماً مدمشة وفاترة، وسعى الاسترخاء في مفاصل حياتنا حين استلقى الطلاب في مخادعهم لتوقف الدراسة خشية من تلك التهديدات التي انبثت من كرش صدام، وانتشرت كديكيدان صغيرة تنغل في ترقبنا لما يمكن أن تحدثه فينا من دمار، وكلما مضى الوقت تحولت الأيام إلى سهر، وتبادل أخبار ملفقة في معظم الأحيان.

في تلك الأيام تحول الحميلي إلى شخصية كروتونية مضحكة تنندر بها كلما رأينا في تلك الهيئة الشاذة، كان يخرج إلى الشارع، أو البقالة مرتدياً بدلة واقية من الأبخرة الكيماوية اشتراها من توفيق عبدالله، ولم يكن يأبه بالسخرية اللاعبة التي كانت تلاعبه، فخشيته من انطلاق صواريخ صدام تفوق اهتمامه بتكانتا الراكض خلفه في الشوارع المتلاصقة الضيقة.

انقلب المسجد إلى ضحك هستيري حينما دخل الحميلي مرتدياً بدلته الواقية، فمع تحية المسجد لم تمكنه بدلته من السجود بسبب خرطوم البدلة المعقوف، وظلت محاولاته متواصلة حتى بره إمام المسجد، فجاء صوته مكتوماً لاعتناً الإمام وصدام على السواء، واستمرت لعناته متواصلة لسنوات طويلة بسبب الحساسية الشديدة التي تسببت البدلة الواقية في إحداثها، وما زال يهرش أنفه إلى الآن!

توافد قوات الحلفاء أشعرنا أننا مقدمون على أيام مبهرة، ففي كل يوم ينضم جيش إلى الجيش.

في تلك الفترة القلقة تظرت السماء بطائرات حربية كانت تعبرنا بين الحين والآخر، ومع أصواتها الثابتة تتقاذف أعضاؤها صوبها راصدة الجهة المولدة شطرها، وفي كل مرة كانت إصبع عمر داود تتابع تحليق تلك الطائرات.

- هذا سرب أمريكي بريطاني مشترك.

عمر داود أكثرنا ادعاء بمعرفة أنواع الطائرات الحربية مستنداً إلى خبرة قديمة لطالما تباهى بها في المجالس وعلى مسامع الراغبين في الحط من شأنه، ففي كل مرة يذكرنا أنه أحد أولئك الجنود الذين حققوا انتصار أكتوبر حين

انطلق مع الجيش السعودي المحارب على الجبهة السورية، ولا يكتفي بهذه التجربة البعيدة عن أذهان جل من يستمعون إليه، فينخرط في سرد وقائع التعينات العسكرية التي شهدناها حينما كان ضمن أفراد الجيش المرابط على الحدود الشمالية إبان الحرب العراقية الإيرانية.

بهذه الادعاءات اصطفاها بعض رجال الحارة، وكسب الحظوة لديهم بما يشيع من أخبار تشبع فضولهم، وتمادى في مد خبرته بشرح إستراتيجية الحرب القادمة.

ادعاءاته فجوت تخيلته عن معلومات كانت تعبر أذان مستمعيه من غير تححيص، ولم يكن أحد منهم قادراً على تكذيبه، فلم تكن لهم دراية مسبقة بمثل هذه الأنواع المختلفة من الطائرات، فاستقبلوا معلوماته من غير حاجة، أو تكذيب، وربما كان يشير إلى نوع منها فيمنعها النعوت المتناقضة.

تظل عيناه وسبابته تلاحقان كل طائرة على حدة ذاكراً نوعها، وجنسياتها، وحوادثها العسكرية.

صاح وسبابته تخرق الفضاء:

- هذه هي الشيخ، إنها تحمل حولة تدمر العراق كاملاً!

مقولات عمر داود تومض كأعواد الثقاب المنطفئة، والمبقية على دخان هزيل يتلاشى كما تتلاشى سحب مدينة جدة الرطبة.



وعرقاً ودماً وغربة، أعراف من كل بقاع الأرض، ولغات مستقيمة ومعوجة، وأشكال صفراء وبيضاء وسوداء، شيء ما يفور في داخلهم له طعم الفرح، وإن لم يفصحوا عن ذلك بعد، تشعروا لبرهة بأنهم تخلّوا عن تحفظهم، وأن ملاحظهم تنهياً لنصب بيارق البهجة لتغطي على تلك الكآبة المزدهرة بين عيونهم، والتي تشي بأنهم للتو خرجوا من فرن تسهدت له أجفانهم. شيء ما تقاسموه فحفر أعماقهم لأن تفيض ببشر.

كل هذا الصخب الذي تولّد في أعماقهم، بقي ساكناً، وكان الوقت لم يحن لإعلان انطلاق مراسم عرسه الموجل، ذلك العرس الذي يضمرون نية الرقص فيه بوعود صادقة!!

وقفت أمام موظف الخطوط اليمنية مبتسماً وهو منهمك بتسليم بطاقات صعود الطائرة:

- نعتذر، لا توجد في هذه الرحلة درجة أولى. يمكنك استرجاع نفودك عند العودة، وسوف نوشر لك بهذا الأمر على التذكرة.

قال جلسته من غير أي ارتباك، أو توقف، ولم يفاجأ بتساعخي المفرط في استقبال ملاحظته ببرود تام، وعلى عجل مد لي ببطاقة صعود الطائرة:

- عليك إنهاء ما تبقى من إجراءات السفر، والتوجه إلى صالة المغادرة. أمقت مثل هذه الوصايا، وأمقت كثيراً أولئك الموظفين الذين يؤدون عملهم برتابة وآلية مقيتين.

على بوابة المغادرة اختلطت الأجساد والروائح، بعض المسافرين ارتدوا ملابس ثقيلة استعداداً للتصدي لموجات برد المدن المسافرين إليها، فوجدوا جواً هالِكاً ينتظرهم في صالة الانتظار، ليتزع كل منهم ملابسه الثقيلة، ويتأبطها. تخلّت النساء عن أردنّتهن الثقيلة فتكشفت صدورهن، ونحورنهن، وأبان شيئاً مشتهى من فتنتهن المخبأة.

عندما تفتح المرأة ثقباً على مفاتنها يتخلل الفراغ عن مهمته القاسية، ونرى مباح الحياة تتسع.

المرأة هي زجاجة شفافة تلون لنا صحراوية الواقع ووعورة تضاريسه الهالكة. نحن الذين أخرجنها من الجنة لنتمتع بتلوّنها!!

وصلتُ إلى الصالة الشمالية لمطار جدة الدولي في وقت مبكر، ربما جئت قبل موعد الرحلة بثلاث ساعات، كان وقتاً كافياً لإنهاء إجراءات السفر، والتسكع في ردهات المطار مستبثاً الوقت، وباحثاً عما يمكن تقديمه كهدية تليق بكل هذه السنوات من الغياب. وكلما هممت بشراء شيء تناثرت هدايا متنوعة جمعتها لها عبر ذلك الترحال المضني من غير أن تصلها، فأقذف بها لأول امرأة أجدها في طريقي.

كيف لا تموت أحلامنا حين تتبيس الطرقات؟ كان بالإمكان أن يموت ذلك العشق قبل سنوات طويلة، وأن تذبل داخل صحراء روحي الواسعة، أو تغور عميقاً فلا يصلها دلو الحنين المدلى في كل حين، كان بالإمكان أن يحدث هذا لولا مشيئة عنيدة تحرّضني لأن أبقي جذوتها، فكلما ذبلت في داخلي، أنعشها حلم فاتر، فأفقي مرتبصاً بخبر يدينها.

لماذا نبقى في داخلنا جرة وحيدة؟ هل نَحْنُ للعذاب الأول؟

منذ ذلك الرحيل الجماعي لليمينين، وأنا معذب بالبحث عنها، وفي كل مرة أحزم حقائبي أستشعر أنني سأجدها، سأجدها كآخر لحظة فلتقت عشق طفولتي ونبتت في أرض صلبة.

المطار يعج بالمسافرين، والمودعين، والمستقبليين، وروائح مختلطة تجوس المكان تتبدل تركيبها قليلاً، أو كثيراً كلما عبرت جالية من الجاليات المتناثرة على امتداد صالات المطار.

حول كونترات قطع بطاقات صعود الطائرة تكتلت مجموعات المسافرين من غير انضباط، أيّد تمسك جوازات سفر من كل لون، وكل لون يحمل جنسية

حين كانت لمياء تنادي على أختها لم تأبه بتلك العيون المتلصصة بنهديها  
النافرين من فستان لم يكن أميناً على كنوزه، ففرط بإظهار صفحة صدر له  
بريق، يكشف عن جنيذين طفع شغبهما، فأبان عورتها ليغدوا مهبطاً لتلك  
العيون المكددة بالباب المفتوح، وقفت منحنية بجذعها الأعلى، فتنهت  
للمتربصين بغنيمتها فحجبت نفسها بستارة تدلت من أعلى الباب، وإن لم تكن  
حريصة على ذلك تماماً.

- وفاء، عليك أن تعودي للدار، وتصلحي من شأنه.

لم تلتفت لندائها المتكرر، فقد كان عجزها يموجان في أداء واجب  
إجباري لتتساقط نغمة ذلك الجسد المشوق والمتكسر في منحنيات شارع تأفف  
من كل شيء إلا من مشيتها المتعوجة، أرخت لمياء من صوتها:

- أوتخسين الأمر هيناً.

- قلت لك سأعود حالاً.

كانت رغبتني عارمة للنهوض، وملاحقتها لأستر عجزها للذين نفرا  
باشتها حتى أن المتربصين تخلوا - لبضع الوقت - عن ذلك الصدر المكشوف،  
ليستعوضوا عنه بقوامها المرتج، وكأنه يعزف سمفونية صاخبة.

يصبيني الكمد كلما رأيت عيناً تقع على عجزها، وتحبني في كل مرة  
أبحث عن وسيلة لإخفاء عجزها عن مصوب سهامها تجاهها، وفي كل مرة  
أنهرها بأن لا تعتمد لشد عباها على خصرها، فتتضاحك:

- ماذا أصنع؟ خلقتني الله هكذا.

بسبب مشيتها تسمر ثلة من الفتيان بالقرب من دارها، وكلما خرجت  
تنهوا تماماً على أي وقع تسير، وبسبب هذا التربص دارت مشاجرات عنيفة  
بين وبين خصوصي الذين يبحثون في مشيتها عن نغمة لم تعزف بعد.

كنت قادراً على التغلب على أقراني البائسين عيونهم ووجدهم في طريقها،  
لكنتني لم أكن قادراً على منع من يقرع بابهم خاطباً لها، ولمعرفتي بأن طالبني  
الاقتران بها لا يدخلون في دائرة شهية أبيها المفتوحة على اتساع دوامة استرخت  
في عمق محيط، بسبب هذه الشهية المفتوحة تسكنتي الطمأنينة بعض الشيء.

لم يكن يعتريني الجزع الهالك من ذلك القرع المتواصل للخطاب، هو  
وحده - توفيق عبدالله - الذي كان يرعيني أن تمتد رغبته إليها، لو فعلها  
ستكون إحدى أصابعها مشعورة في محبس ذهبي يعدها عني طول العمر، فهو  
الوحيد القادر على شراء النفوس الجشعة، فأمواله تسير في كل البلاد، وتعود  
إليه محملة بالأرباح الهائلة. خسته، وقلة مروءته فتحتا له أبواباً عديدة كان  
آخرها متاجرته ببيع اللصق على الخائفين من أبخرة صدام، وحين أشيع رداءة  
اللصق في حماية الناس من الأبخرة الكيماوية، وأن الضمان الأكيد للهروب  
من الموت استثنائاً ارتداء أقنعة واقية لا يتسلل منها إلا هواء نقي، ساعتها كان  
قد قفز من حبل لآخر، تهباً لقفزة توصله لعنان الملايين في صفقة مشبوهة،  
يقولون إنه اتفق مع أحد الأمراء لتمويل صفقة شراء الأقنعة الواقية من آثار  
الأسلحة الكيماوية، في تلك الأيام جمع أمواله السائحة في كل مكان ليدخل  
شريكاً في استيراد الأقنعة الواقية.

ما زال الباب يضم جسد لمياء، وهي مستورة بستارة غامقة شهيت ألوانها،  
وقفت تتجاذب الأخبار مع فاطمة ابنة غالب المنشار التي تدل رأسها من النافذة  
المقابلة:

- يقولون إنه قادر على إمانتنا، ونحن داخل بيوتنا من غير الحاجة إلى  
هداها على رؤوسنا.

- سمعت بمثل هذا.

- ويقولون، سيرسل علينا كيماوي يحرق الصغير قبل الكبير.

- لقد قام أبي بإغلاق كل المنافذ ولن يستطيع أي دخان النفاذ منها.

- كلنا فعل ذلك، لكن خوفاً ما زال قائماً.

ما زالت العيون مبهلقة بالباب على انحناء تبين التوأمن اللذين استترا  
بستارة البيت، ربما أرادت أن تنهي ترقبهم، فمالت بجذعها للخارج قبل أن  
ترجع لداخل البيت لاعتنة صدام والأمريكان على السواء.

فيما كانت وفاء تتعدد بعجزها بعيداً، ورغبة ملحة تنازعني لاقتفاء أثرها.



عشر سنوات مضت سريعة مباحثة.  
فاحت رائحة الحرب.

كان صدام كريهاً وهو ينفث تهديداته بزهرق أرواحنا كما يشتهي - لم  
أنتصور أنني سأكون ضحيته الأولى في هذه الحرب القذرة - ريح عاصفة قُلبت  
التربة، أيقظت الأيام المتقاعسة في زمننا الراكد، وغدا الانتظار فريستنا  
الوحيدة، نتربص بها ونتربص بنا.

ثمة خوف تسرب من القصور الفخمة، سال في كل شوارع المملكة،  
فامتلات أفئدتنا خوفاً من تلك الوصايا المتناسلة من أجهزة الإعلام عن كيفية  
طرق السلامة الواجب اتباعها للوقاية من الحرب البيولوجية والكيميائية.

يومياً يكبر الخوف ومع الحكايات المتناثرة يزداد هلعنا لتتحول الأيام إلى  
مغزل تدس خيوط الرعب في حياتنا وتوثق عراها، وغدا شغلنا الشاغل كيف  
نقي أنفسنا من تلك الأبخرة التي يمكن لها أن تتسلل إلى مخادعنا ونحصد  
أرواحنا وتتركنا خشباً مستدة.

سماسرة الحروب كالحفافيش تنهض في الليل وتمتص الدماء الطرية، كان  
الليل صوت صدام، فتنافروا في أطرافه ليستثمروا دماءنا كما يشتبهون،  
صفقات واتفاقات وعقود كتبت بدعوة الخوف علينا، ولم يكن خوفهم كفيلاً  
بجلب احتياجاتنا.

خرجنا جميعاً لشراء (اللصق) فمعظمنا لم تسعفه حالته لشراء الخوذات  
الواقية ولم تكن لنعرفها لولا أن توفيق عبدالله جلبها لنرى شكلها متحسرين  
على تخيل أجسادنا المتخشبة على أركانها لو أن صدام نفذ تهديداته، وأرسل إلينا  
طيور أبيابله.

ابتعنا كميات كبيرة من اللصق، وأغلقتنا جميع المنافذ المقللة لطمانينتنا من  
أن تكون منفذاً لتسلل الأبخرة الكيميائية.

في تلك الأيام لم تزدهر سلعة كما ازدهر بيع (اللصق)، فقام توفيق  
عبدالله بإفراغ محتويات متاجره المتعددة من كل شيء، وجلب جميع أنواع  
(اللصق)، فتهاوت عليه أهل جدة طلباً لأجود تلك الأنواع التي سَوَّق لها  
جيداً.

[٤]

تحرك الباص مقلداً الركاب تجاه الطائرة، كانت العيون تتلاقى وتهرب  
بعضها من بعض، ربما يوسوس فمك بابتسامة مقتضية لمن يتطلع في ملاحظك  
المتحفزة إلا أنك تواجه كل المحاولات بإغلاق منافذ الوجه بعناية.

كنت مرتاباً من هذا التوجس الطارئ، قبل قليل كنت ألح وجوه  
المسافرين أكثر انفتاحاً ووداً، هل للذي أرتديه دور في هذا العيوس الذي  
يقابل ابتساماتي الملحقة كطائر أخرق؟ لم أشأ تعميق هذا الظن، وهرباً من  
الإحراج المتكرر تمسكت بالرباط المذل من الباص كي لا أقع أرضاً مع انحرافاته  
المتكررة، وتعبت سرب الطائرات الرابضة على أرضية المطار الشاسعة.

في مرأب منزو سكنت بعض الطائرات الحربية في سكون وجلال، كانت  
رابضة كالبيوت الفخمة المهجورة، تعبرها العيون عبور المسائل:

- هذا مطار مدني ما الذي جلب الطائرات الحربية إلى هنا؟

وكمن يخشى انفلات هواجسه، وركضها بين مسامع الركاب، عُدت  
للتثبث بالرباط المذل من سقف الباص متتبعاً تلك الوجوه الهاربة بعضها من  
بعض.

لا أحد يتذكر كارثة حرب الخليج الثانية، وإن ذكرت يتم استرجاعها كحلم  
بهت في الذاكرة، وغابت تفاصيله، عشر سنوات مضت سريعة مباحثة التهمتنا  
وأبقنا خارج الوقت. كل شيء تبدل فينا، وحلقت في أرواحنا هزيمة مبطنة،  
نمت أشجار اللامبالاة، ووقق الفراغ المثبت في معارفنا غدونا أكواباً لا يعينها  
أي سائل تحمل، وأي شكل يتبلور فيه، وأي فم يدنينا من شفتيه، غدونا أوراقاً  
ممزقة تحمل أجزاء كلمات، جلاً ناقصة، وعلامات ترقيم لا تدل على أماكنها،  
شيء ما طار من أفئدتنا وبقينا - صباح مساء - نصب الشراك لاستعادته.

فاحت رائحة الحرب.

أدرك الجميع أن الأمر ليس مزاحاً سعوا لتضخيمه عبر الأيام الماضية، والاستمتاع به للقضاء على سنوات الركود الطويلة، استيقظت غيلتنا على الاحتمالات المدمرة التي ستصيبنا من الثرات المتطايرة للحرب القادمة، ومع الحكايات التي حملها الكويتيون اللاجئون في مدن المملكة، بدا الجميع مرهقاً من الصور التي تتشكل عبر تلك الحكايات، كان أكثرها فظاعة هتك الأعراس، واستباحة أجساد لطالما تسامت عن الدنس، كل منا تخيل إحدى محارمه وقد تعرى جسدها، وجفت استغائتها، وهي تدفع ضيقاً نش شرفها. هذه الصور جعلتنا نبحث عن الأسلحة الخفيفة، والثقيلة لحماية أعراسنا إن وقعت الكارثة وسقطت المملكة.

لمحت أبي يحمل رشاشاً، ويدلف على البيت مستبشراً، فتلقته أمي فزعة:  
- ما الذي حدث؟

- سيكون هذا بيني وبين من يحاول تدنيس شرقي؟

- أي شرف هذا الذي سيدنس؟

- أأنت لا تعرفن سوى الاستلقاء على السرير.

- وما الذي يملك على قبح القول؟

- ألا تسمعين ما أحدثه رجال صدام بنساء الكويت؟

تنتح به جانباً، وأسرت له بحكاية، فافجر ضاحكا لاعتنا حيث النساء.

في تلك الأيام شاعت طريقة تناقلها الناس بصور شتى:

تسامرت النساء، وأخذهن الحديث عن وحشية رجال صدام في اغتصاب النساء، وتوالدت حكاياتهن عن روايات انتشرت في البلد تروي مصائر النساء اللاتي اغتصبن بوحشية، وتفتن بعضهن في سرد تلك الوقائع مما أثار تخيلة الحاضرات، وكانت بينهن امرأة مسنة - يقال إنها كانت شقيقة في شبابه - تصغي لحديثهن باهتمام ونشوة، وعقبت على حديثهن برفع يديها ضارعة:

- يا الله أسألك بكل أسمائك، لو قدرت لرجال صدام دخول هذه البلد

أن تجعل أولى خطواتهم تبدأ بيّتي!!

[٥]

اقرب الباص كثيراً من المراب الذي يضم الطائرات الحربية النائمة - على ما يبدو - في مكانها منذ أمد، حاولت معرفة نوعها فلم تسعفني خبرتي القاصرة في علم التسلح بنوعها، أو جنسيتها:

- ما سبب بقاء الطائرات الحربية في مطار مدني، كل هذا الوقت؟

تذكرت الجملة التي قالها إبراهيم المؤذن من غير أدنى التفات لرؤية المحيطين به:

- الطائرات المهيأة للإقلاع في كل حين تذكرك بالأحصنة القابلة للانطلاق في أي لحظة، وكل الأمراء تريض طائراتهم المروحية في قصورهم.. فقط ينتظرون الإشارة ليحلّقوا بعيداً عن دخان الحرب!

ابتلعت هذه الجملة كلقمة جافة عليّ تمريرها لأحشائي قبل أن تقف في حنجرتي، وأضطر لإخراجها بصورة غير لائقة. إلا أن هذا التصرف لم يمنع الذاكرة من الركض المحموم خلف تلك الأحداث التي نامت في دروبها ومنحنياتها، هكذا، وجدت نفسي منساقاً لتتبع مقولات إبراهيم المؤذن.

كنا نحف به، وهو ينشال بمقولاته المتلاحقة إلا أنه توقف كثيراً عند الطائرات التي تكون متهيئة لتهرب الزعماء، والتحليق في الهواء بمجرد اهتزاز الكراسي. في تلك الجلسة سمعته يستحضر كل الوقائع التي يعرفها كنموذج لهذه الحالة:

... حين استجاب طهران لأشرطة الحميني وجد الشاهن شاه - محمد رضا بهلوي - ثقباً في النافذة يوصله لتلك الطائرة المروحية الرابضة فوق



قصره، والتي استطاعت أن تحلق به في سماء إيران قبل أن يصل الإمام الحسيني، ويوصد عليه باب زنزانة بلا نقوب.

كانت عيناه المتقدتان تلمعان كفضين خلعا من خاتم نفيس، فحافظتا على جمالهما بالرغم من جحوظهما:

- لو نشبت الحرب فستجدون أنفسكم تقتلون بمفردكم.

حديثه ينساب في مسامع الحضور بعد أن مهد له بذكر أمثلة لهروب الزعماء الذين سقطت تيجانهم في واشطن قبل أن يسمعوا رنتها في بلاطهم، أو يهدوا الشعب يقف بين أنوفهم والهواء العابر.

لم يكتث للاستياء الذي أبداه الحضور، وخشية بعضهم من مغبة القول الذي يمكن أن يخفيهم بقية الدهر، ويخفيه معهم، لم يكن متهيأ، يقول رآيه من غير تلجلج، أو مخابة.

الحرب الطويلة (في مرتفعات أفغانستان) أجلت جاسرته، وجعلته يقترب من التهور، كان يتزود بطاقة كلامية اكتسبها من كثرة وقوفه على المنابر، وإلقاء الخطب بين جماعات الدعوة، وحين ذهب إلى أفغانستان عاد أكثر تهوراً مما مضى، يقول قولاً غير مأمون العواقب.

أقواله وأفعاله - هو وجماعته - انتشرت في الحي مقرونة بحكايات يؤمن عليها السامعون من غير أن تُقْلَبَ على نار هادئة، ومن الحكايات التي نامت في أذهاننا من غير أن يزعجها طارق ليل، أو يقلق مضجعها عابر سبيل، تلك الحكاية التي رواها أحمد الغامدي، وتناقلتها الألسن ككرامة خص بها إبراهيم المؤذن من دون سواه:

في معركة جبال بكتيا أرسل الجنود السوفييت كتيبة مكونة من ست مدرعات، فتدرعنا بالأرض والكهوف محتمين من القصف المتواصل المصوب علينا صباً، تصرفنا تصرفاً سفيهاً حين بادلتنا تلك المدرعات التصويبات العشوائية، فتناقصت ذخيرتنا في وقت قصير، وما تبقى منها لا تمكننا بأي حال من مجابهة تلك المدرعات، وأوشكنا على الهلاك، ولم يكن لدينا ماء ولا غذاء، وكان الرأي أن نبقى داخل آخر كهف انتقلنا إليه إلى أن يحين الليل،

فتسلسل إلى جهة أخرى. هذه الأمنية سقطت أمام النظارات الليلية التي كان يمتلكها الروس، فمع أول تسلل حصد خمسة مجاهدين منا، واجتمع رأينا على تأمير إبراهيم المؤذن علينا بعد أن سقط أميرنا في أول تسلل لنا. في تلك الليلة قضى أبو حفص (وهذه كنية إبراهيم المؤذن) قضى ليله في ركعة واحدة، ومع تسرب أشعة النهار، أمرنا أن نخرج، ويحمل كل منا حفنة من تراب، ويلقيها على تلك المدرعات، تراجع بعضنا، وأقدم البعض الآخر، كنا نشاهد إخواننا المجاهدين يسبرون بثبات، وطلقات المدرعات تعبرهم من غير أن تصيب أحداً منهم، سمعنا أبا حفص يكبر تكبيرة عالية يتبعها انفجار مهول لتلك المدرعات التي حثنا عليها بالتراب!!

هذا هو إبراهيم المؤذن يسير مغفوراً بالبطولات والكرامات.

رغبت في رؤيته حيث غدا حديث أهل الحي، شعرت به يقف في قلبها كفارس جاء مكللاً بالانتصارات فتعلقت عيون النساء على وقع حوافر خيله، عاد من جبال أفغانستان يحمل حكايات من كتاب ألف ليلة وليلة، ويحمل في يده كرامات الشهداء والصالحين.

كعادي حين اعتصمت الطرقات بظلمتها جتتها متسللاً فبادرتني:

- ألا ترى الفرق بينك وبين إبراهيم المؤذن؟ أنت تتسلسل لرؤيتي، وإبراهيم يتسلسل لقتال أعداء الله.

تركتها في مكانها، وسعيت لرؤيته.

على أي حال كانت نهايته السجن والغربة - تماماً كتوفيق الذي حاول أن يخطفها مني، وإن كان هناك فرق بين التهمتين - ولم يفلح أحد من ذويه أن يعرف في أي زنزانة يقبع، فبعد أن تركنا مقاعدنا ملبين صيحات الصبية المتعالية:

- جاء جنود صدام.

افتقده أهل الحي في اليوم التالي مباشرة، وأخذ البعض يترقب أن يُستدعى . أو يُسحب ليكون زميلاً له في إحدى الزنازين غير المعروفة.

رأيتُه عن قرب، كان وجهه ندياً خاشعاً تسبق خشوعه عجلة الحديث، كنت ألح عيون كل صبايا الخي معلقة بأهداب عينيه، وكلما تحدث حديثاً تمثيت أن يزج به في غياهب السجون عندها ساستعيد عينيه من وجهه. فسعيت لرؤيته. ربما لاقتفاء أثره علها تفخر بي بين صوبيحاتها، وربما سعيت لرؤيته كي أقف على شيء يزحزحه من تخيلتها على أقل تقدير. حين أخطئ، وتزل قدمي صوب مسجد المغاربة، أجد عمن المصلوحي يلح عليّ بمواعظه الدافئة، ويذكرني أن شبابي زائل، وأن كل خطيئة باقية، ويرغبني بأحاديث لطالما سمعتها منه:

- سبعة يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم شاب نشأ في طاعة الله.

وبعد أن ينهي سرد الأحاديث (التي يحفظ معظمها بمعناها وليس نصها) يضع كفي بين كفيه معقاً بصره في وجهي:

- أنا أحبك، وأخشى عليك أن تحرق شبابك في ملذات زائلة، وشباب زائل.

استبشر حين وجدني أقف أمامه، فجذبني من يدي صائحاً:

- سيحان مقلب القلوب.

كانت رغبة زائفة استعددت لها بان أطلقت لحيتي، وتصنعت التمسك، وأكثرت من ترديد الأدعية، والاستغفار، وسكن بين شفتي عود أراك غص أبان فلجة أسناني.

- هل يعقل أنك استقمت؟

- الله الهادي، ألا يفرحك هذا؟

جذبني بين ذراعيه:

- يسعدني كثيراً، ولله الحمد.

حاولت تخليص جسدي من بين ذراعيه بلطف:

- أرغب في رؤية إبراهيم.

- إبراهيم! تقصد أبا حفص؟

- أقصد إبراهيم المؤذن.

- نعم، فكنتيه أبو حفص، هل عزمتم على الجهاد؟

قالها مستبشراً. احترت حيال مباغتته التي لم تكن في الحسبان، فربت على

كتفي بحميمية مبالغ فيها:

- الآن ستجد طعم الحياة.

جذبني من يدي، واتجهنا لأداء الصلاة.



البعض في ترديد قهقهتها، ودلف إلى داخل المسجد من غير أن يقطع ضحكته المجلجلة.

تبادلت مجموعة محددة وجهتها بعد الصلاة. سمعت طارق الحكمي يميل نحو ياسر البهتي (وهو ممسك بيدي):

- سنكون في مجلس الشيخ منور فلا تفوتك هذه الجلسة. يقولون: إن بها بعض المجاهدين القادمين من أفغانستان حديثاً.

خرج سراج التيناوي من دورة المياه، ووضوؤه يتقطر من لحية الكثة، ووقف متسائلاً:

- كل واحد من الفريقين يدعي أن الحق معه، فصدام يرفع شعار الله أكبر، ونحن نرفع لا إله إلا الله محمد رسول الله، فأين هو الحق من الفريقين؟

- هذه فتنة من اجتنبها غنم.

- هذه فتنة أمريكا، وبعض أعوانها من العرب.

- لعنة الله على أمريكا، وعلى الصهاينة الكلاب.

- ولا تنس لعنة الله الكبرى على صدام الذي تسبب في كل هذه الكوارث.

يبدو أن أصواتهم كانت تصل لداخل المسجد مما جعل إمام المسجد يخرج عليهم صائحاً:

- أفسدتم علينا خشوعنا، الأفضل الدخول في الصلاة بدلاً من اللعن الذي لا يفيد.

تقاطروا جميعهم للدخول مستغفرين، ومؤيدين تحية المسجد بجلال وخشوع.

ومع انتهاء الصلاة كانت مجموعة كبيرة تنتج لمجلس الشيخ منور وتحف بإبراهيم المؤذن وبعض المجاهدين العائدين للتو من أفغانستان.

[٦]

على بوابة المسجد نعت حسين مبارك هذه الأيام بالحارقة:

- ليلياً أبیت داعياً الله أن يسلم أمة محمد من حرب تحصد أولهم، وآخرهم.

قفز في وجهه يوسف محرق:

- الخوف ليس على أمة محمد مجتمعة، وإنما علينا نحن المساكين، فسوف نجد أنفسنا أول المحروقين بهذه الحرب.

استهجن خيري عبدالجواد مقولته:

- وهل أجلسوك على الحدود حتى تقول هذا القول؟

- ألم تسمع ما يقوله إبراهيم المؤذن؟

- وماذا يقول؟

- يقول: مع أول شرارة للحرب لن نجد أحداً بالبلد كلهم سيركبون طائراتهم، ويغادرون، ونبقى نحن صيداً سهلاً لجنود صدام.

تدخل عليشة المحلبج ببيحة المهودة:

- سمعت منه هذا القول كثيراً، فهو يروده باستمرار، وهذا قول الجهلة، فمن يترك الحكم بهذه السهولة؟

تطلع يوسف محرق إلى وجهه محتقراً:

- أوتظن نفسك عالم فلك؟ أنسيت أنك تقف تحت الشمس تنادي طوال النهار على بطيخك علك تغنم ببيع بطيخة واحدة.

لم يتفعل عليشة لهذا التعليق، وإمعاناً في التجاهل أطلق ضحكة شاركه

الشفيتين، وتموجات الحواجب، لكل نية تعشش في أعماقنا رقصة على وجوهنا.

في السفر أحرص أن أكون أول من يقعد في مقعده لاستقبال القادمين لمتن الطائرة، أسرق ملامح في نصف خدرها، نصف انتباه، ونصف عقوبة، ونصف تحفز، وأقل عداية أسرقها طازجة كما هي.

ثمة وجوه وعرة لا تفتح لك منافذ طرقها يسر، والمتدربون في خوض قراءات الوجوه يسلكون طرق الشفاء واهتزازاتها، ومن هناك يتسللون إلى جوف تلك الشخصية ذات الملامح الوعرة. تنكسر رغبتني هذه مع تلك العيون الصلغة التي تبادلك التحديق متحفزة لأي شجار يمكن أن يشب من احتكاك النوايا.

من مقعدي أخذت أترى بالمسافرين الباحثين عن مقاعدهم: وجوه متوترة، منبسطة، مستبشرة، مكفهرة، حزينة، متلهفة، ضائعة.

كل وجه له بطاقة عبور ربما يحملها في عينيه، أو في شفثيه، أو حاجبيه، أو كلماته، فالكلمات تنخمّر في أرواحنا، وتخرج من أفواهنا حاملة رائحة نوايانا... تحمل رائحتها حتى لو تذرّت بكل أردية الكذب.

النساء وحدهن اللاتي يجعلنك تفيق من كهوفك المظلمة، تفيق بحثاً عن وسيلة تفرّك في قاع العيون، وحين تخلع كل مشارك لتلقي بنفسك في تلك البحيرات المضطربة بشحن بوجوههن لترتطم بخيبة أمل صلدة، إن عيونهن مرايا لا تحمل الأبعاد الحقيقية، هي تمنحك شيئاً تقريبياً ربما يخونك الحدس في قراءة المسافة الفاصلة ما بين النظرة والقراءة لها.

كانت تسير متعبة يتقدمها طفل صغير، تلاتت عيوننا، كانت نظراتي عارية نهنك الداخل ونحت شيئاً خاصاً جداً، ارتبكت حين تلاتت عيوننا، فقدمت الطفل الصغير، وأفلتت من يديها حركة زهد من تحديقي.

ارتبكت ووجدت نفسي أعيب بجيب المقعد الأمامي وعلى عجل تناولت مجلة بليقس وأخذت أنصفحت محتوياتها، معظم المجلات التابعة لخطوط الطيران تنتهج أسلوباً دعائياً بلدياً يشير إلى خواء وخلو ذهنية المشرفين عليها للأساليب

توقف الباص مباشرة أمام طائرة تابعة للخطوط اليمنية، كانت طائرة متواضعة، فحجمها وهيبته لا يشيران أنها طائرة مخصصة للرحلات الدولية.

تدافع الركاب لصعود الطائرة حين فتح باب الباص إيذاناً بالصعود، وندمت لأنني لم أشارك في ذلك الاندفاع حيث خسرت مقعدي عندما صعدت ووجدت مكاني محجوراً بكتلة لحم فائضة عن الحد ولم يسعفني الرقم المسجل على بطاقة صعود الطائرة من استرجاع ذلك المقعد، ليقودني الملاح لكرسي آخر، أمسكت به كغنيمة عليّ إثبات ملكيتي لها على عجل، فلم أهتم بوضع حقبيتي في المكان المخصص لها في أعلى الكبينة فقذفت بها أسفل قدمي، وثبتت جسدي برباط المقعد، وأغلقت مزلاجها بإحكام.

استقررت في مقعدي متحفزاً من أن يأتي شخص ويطلبني بالنهوض، ولكي لا أجد نفسي في حالة غير لائقة تحدثت مع الملاح الذي أوصلني لهذا المقعد، فطمأنني بأنني أجلس في مكان من سطا على مقعدي المدون على بطاقة صعود الطائرة، ساعتها فقط أيقنت أنني لن أعرض لتوبيخ من عيتين ستغفرسان في لحمي مستخفين ومحترتين سلوكي.

بقية المسافرين يتقاطرون في الممر باحثين عن مقاعدهم محدثين ارتباكاً حاداً في مقصورة الطائرة والرجاءات الحارة النابتة من أفواه الملاحين بالتزام النظام تبخرت من غير أن يسلك بها أحد.

تعودت على ممارسة لعبة قراءة الوجوه من وقت مبكر، أقوم بهذه الهواية في كل مكان أتواجد فيه: في العمل، والفنادق وعلى قارعة الطريق. تبدأ هوائيتي بالتطلع لحركة بؤبؤ العينين، انبساط وانقباض الحديقتين، حركة



الدعائية في فن الترويج لخدمات خطوطهم، هذه المجالات تستهلك الورق الصقيل في كتابات مموجة ومدح مبتذل،، تذكرت مجلة أهلاً وسهلاً وصفحات من الكلام السائل لتدشين الخدمات الراقية للخطوط السعودية.

- الإعلام المحلي تحوّل إلى بوق لم يعد أحد يسمعه.

قلت جلستي تلك حين كان الحديث جارياً بين هيئة التحرير - في لقائنا الصباحي - للبحث عن الأساليب والأشكال الصحفية لتدشين حملة عن الانتماء الوطني..

استسخر رئيس التحرير بجملتي، وغمزني أمام هيئة التحرير:

- تبحث عن نضال في زمن انتهى فيه كل شيء.

مواقفي العدائية لموجات التفاف تجعلني محل تندر كثير من الزملاء، وكلما عنّ لأحد منهم بث روح الدعاية توجه بنكاته صوبي.

يصفني الزملاء - داخل الجريدة - بأني أهل أفكاراً لا أجيد تنفيذها، وفي كل اجتماع لهيئة التحرير أخرج بهذا النعت من غير أن أعزز مواقفي بعمل صحفي يحرر سمعتي مما يقولون به.

في أعماقي أستخف بهم كثيراً، وأمقت تدليسهم، فهم أشبه بالآنية المثقوبة التي تحمل ماء مسكوباً، ألم تنبهوا لهذا التفضيل الذي يمارسونه كل هذا الوقت؟ بتدليسهم وضعوا تلالاً من الأكاذيب، في كل زاوية تركوا تلالاً ونصبوا على كل تل صنماً من تراب.

الصحافة المغلقة كالببارة المغلقة تماماً، سيأتي يوم ويسيل ماؤها في الطرقات عندها سيكتشف الناس مقدار العفن الذي كانت تطبق عليه تلك الأغطية الحديد.

استدعاني رئيس التحرير:

- وصلني دعوة لحضور مؤتمر الديمقراطيات الناشئة باليمن وليست لدي النية للحضور وقد رشحتك للذهاب فهل أنت مستعد؟

(كنت أجلس أمامه مرتبكاً، وخاطر يفترق غيظي: هل عرف برحلاتي المتوالية لليمن أم شاع افتتاني بالترحال إلى مدن اليمن؟).

- هذه هي الدعوة وأرى أنها فرصة لأن تحضر مثل هذه المناسبات. (هل أخبره أنني تلقيت أخباراً بأنها في صنعاء، وأني كنت عازماً على السفر إلى هناك).

تطلع في وجهي مستنكراً:

- لماذا تجلس صامتاً، ترغب في الذهاب أم لا؟

- بلى أرغب.

- إذاً استعد، سيكون السفر يوم الأحد القادم.

- سأوافيك بتقارير صحفية لم يسبق أن كتبت.

نظر في وجهي مبتسماً (لا أحب ابتسامته على أي حال، فابتسامته تفيض بالسخرية في كل حين):

- لا أريد منك فعل أي شيء، المطلوب منك الحضور فقط!

مضى وقت غير قصير ونحن نقتعد مقاعدنا من غير أن تتحرك الطائرة من مكانها، صوت المذيع الداخلي يتردد في فضاء الكبينة:

- السادة المسافرين، سقلع بعد دقائق، الرجاء البقاء في مقاعدكم.

تلفتُ حولي، انتابني إحساس عكر طمأنيتي، فسارعت بالهرب منه.

- هل أستطيع رؤية الطائرات الحربية من هنا.

مددت عنقي لنافذة يفصلني عنها مقعد واحد، فلم ألمح سوى جزء من المطار اصطفت على مدارجه طائرات للخطوط التونسية، والمصرية، والهولندية.

- هل يتنازل الزعماء عن مقاعدهم بالسهولة التي تحدث عنها إبراهيم المؤذن؟!

أشك في ذلك، استلظفت مقالة للدكتور عبدالرحمن العلوني حين وصف الشباب العائدين من أفغانستان بالاندفاع والحدة أكثر مما يجب، وتسفيههم للمجموعات، مشككين في سلامة النية لكل من أراد أن يتحرك للأمام، الكل فاسق ما لم يكن داخل الإطار الذي رسموه. كانت مقالة تحذر من انجراف هؤلاء في طريق حماسي من غير أن يتنبهوا أن للحياة طرقاً عديدة وكلها توصل للحقيقة...

هذه المقالة لم تنشر في الصحيفة بل ظلت حبيسة أدراج كاتبتها، يخرجها من حبيسها ويقدمها لكل من توثقت صلته به.. وكنت ممن أطلعني عليها، رفع نظارته من على وجهه:

- تصدق أن هذه المقالة كتبتها قبل تفجيرات الخبر ونيروبي، كنت أتوقع أن هؤلاء الشباب سيكونون وحوشاً تحول داخل المدن.

- لماذا لم تنشرها في حينها؟

- ألم تعرف على هذا المتخلف الذي يدعى: سعد خلاف؟!

أحد المسافرين المتأخرين ارتطمت حقيبتيه بركبتي، دفعها دفعاً قوياً وأخذ يتسلل للمقعد الداخلي المجاور لمقعدي، كان فكه يطحن لبناناً استعصى عليه، فأشبعه مضغاً محكماً، توقعت أن يعتذر بعد أن يستوي في جلسته، لم يفعل ذلك، انشغل بالبحث عن ربطة الحزام المقابلة لمزلاج..

- ألم تتهيا هذه الرحلة للإقلاع؟

لمحت ثلاثة شباب ذوي لحى كثة، يسرون نحو مؤخرة الطائرة، نظروا إليهم الذي يجاورني بعدائية، وقفزت منه جملة مبتسرة:

- هؤلاء سبب تأخرنا..

لم يكن ينتظر أن أسكت على جلته، فأردف:

عندما وقفنا في محطة متجهين لصعود الطائرة، كنت أسير في وسطهم، فجمعت جوازاتنا وتم إيقافنا وتفتيشنا تفتيشاً شخصياً.

أعدت النظر، ثلاثة شباب تجري الصحة في أوردتهم وثمة سكينه تلوح على وجوههم من غير افتعال، هل يحملون العدائية نفسها التي يروجها أولئك المارقون في الغلو..

لم أحمل ضغينة لأحد من ذهب لأفغانستان كما حملتها لإبراهيم المؤذن، كانت كلماتها قادرة على تغليب تربة هذا القلب، وتأجيج جمراته الخابية، أحرقتني تلك الجملة التي قذفها على مسامعي ليلة جئتها متربصاً بفتنتها، وراغباً في الاستزادة من نهل رضائها، أحرقتني وجعلتني أغرس بذرة كره لإبراهيم، سبق وأن ذكرته مرات عدة، وفي كل مرة تبخسني حقي بقصد، أو غير قصد، تريد اسمه بين الحين والآخر جعلني أفكر جدياً في الذهاب إلى أفغانستان، محسن المصلوحي أول من فتح لي الباب لهذه الفكرة، وقبل أن أؤخر صدري بهذه النية تراجعت:

- كيف أذهب إلى هناك، وهي هنا؟!

حين خرجنا من المسجد، كان محسن المصلوحي يتلفت بحثاً عني:



- أنت معنا أليس كذلك؟

- نعم معكم.

تجمع عشرة رجال على مقربة من بوابة المسجد معظمهم شبان تسكن  
السكنية ملاعهم (كهؤلاء الشبان الذين يقتعدون المقاعد الخلفية في هذه  
الرحلة)، عرفني بهم محسن المصلوحي على عجل، اخترقنا أزقة الحي بعجلة،  
الغريب أننا كنا صامتين، كل منا يعضض ذاته بمفرده، ونسينا جميعاً إفشاء  
السلام في تلك الدروب المتحنية، نتقاطر كنمل همه الأول الإمساك برائحة من  
يتقدمه، ونخيل ما سنجد في نهاية هذا النفق، توقف انشغال خواطرنا مع طرق  
باب الشيخ منور.

[٩]

ارتفع تحليل من داخل كينة الطائفة، كان الشبان الثلاثة يمررون أصواتهم  
في صوت جماعي، لم أستوعب تماماً سبباً جوهرياً لمثل هذا التسييح والاستغفار  
العلني، فنحن لسنا على حج أو نمر بميقات، نحن سنخرج الآن من قضاء  
الأساكن المقدسة.. لم يجرؤ أحد من الملاحين على إسكاتهم أو مطالبتهم  
بإخفاض أصواتهم، صاح أصغرهم:

- النصرة لله ورسوله!

إبراهيم المؤذن شاب تجاوز السادسة والعشرين من عمره بشهور، حلو  
التقاسيم، قيل: إنه أحد أمراء المجاهدين العرب في أفغانستان. نشأ نشأة  
متقلبة فيها كثير من التسهل، وشب سائحاً في عواصم كان يوارى التصريح  
بها عندما يتحدث عن وجهته، وفي أحد الشهور القانطة، توقع الجميع أنه في  
إحدى تلك العواصم لذلك كانت مفاجأة لهم وهم يرونه يقف خلف  
ميكروفون الجامع ناصحاً لهم من عذاب القبر، وصوته يختلط بنشيج متقطع لا  
يميز السامع ما يقول في أحيان كثيرة.

في ذلك اليوم ابتهج كبار رجال الحي بعبادة إبراهيم، وعضد الإمام همته  
فأكرمه بإمامة المصلين في صلاة العشاء من كل ليلة خميس، فقلب صوته  
الشجي تلال الرمال الرياضية في الصدور، ولم يكن المصلون يتذمرون من  
إطالته للتلاوة بل تنادى كثيرون منهم لصلاة العشاء من كل خميس في هذا  
المسجد تحديداً، وتحول الجامع إلى غرفة ضيقة تغص بالمصلين حين أوكلت إليه  
مهمة قيام صلاة التراويح، وكلما أمعن في الإطالة تقاربت القلوب،

وتناشجت الأصوات . كان شيء ما يسقط مع دموع المصلين ، وكان السماء تقترب لتحملهم بعيداً عن الدنيا .

حين دلفنا لبית الشيخ منور رأيت يتوسط المجلس ، ويتلو أسماء السيدات اللاتي خرجن في مظاهرة مطالبات بالسماح لهن بقيادة السيارة ، ومع ذكر كل اسم من أسمائهن تتطاير اللعنات والاتهامات من أفواه المحيطين به ، بدأت تلك الاتهامات بمنح أزواجهن صفة العلمانيين ، والحدائيين ، والفاسقين ، وانتهت بالقول : إن هؤلاء النسوة لم يخرجن إلا بأمر من جهات فاسدة الخلق والدين .

وثبت إبراهيم المؤذن مقلته الأخيرة بتكرارها بصيغ مختلفة :

- لو لم تكن الجهة فاسدة لما تركن هؤلاء النسوة يعدن ليوبتهن ، لو لم تكن فاسدة لما حبس ، وزج بمشايع أجلاء داخل السجون ليس لهم من تهمة سوى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والوقوف ضد هذا الفساد .

فحولت الحضور رافعين أكفهم بالدعاء الذي قطعه تسليلاً أبي يوسف البكري (موظف بالخطوط السعودية) ناشراً خيراً تناقلوه همساً :

- كل الطائرات مجهزة لنقلهم لخارج البلد .

لم يجرؤ أحد على السؤال : نقل من؟

كان الحديث يدور مشفراً تتهزأ له الرؤوس ، وتتبادل النظرات الحائرة حيرتها .

من خلف ظهر إبراهيم المؤذن بزغ وجه مألوف ، أخذت أترقبه ، مَنْ هذا؟ ياسين .. ايه والله إنه ياسين ، متى عاد من أمريكا؟ كيف لهذا الشقي أن يتحول إلى ملتزم ، ناهيك أن يكون مجاهداً؟ سبحان مقلب القلوب ، لم يربكني شيء في تلك الجلسة سوى رؤية ياسين ، كان معمماً ، وقد ملأت وجهه لحية كثة ، يجلس خاشعاً خلف إبراهيم المؤذن من غير أن يتنبه لأحد من حوله ، يتمتم بأدعية خفيفة ويسمر عينيه في الأرض ، بحثت عن عينيه ، لكنه كان هائماً في ملكوت آخر ، وكان سؤال حاد يقبب رأسي :

- متى عاد من أمريكا؟

في انشغالي بالبحث عن عيني ياسين لم أدرك بعض الجمل التي تلفظ بها إبراهيم المؤذن ليظهر امتعاضه ، وتعمكر ملاحه الودية ، ليرفع نبرة صوته :

- وقعنا في خطأ تكتيكي حيث كان علينا أن نجاهد هنا ، وليس في أفغانستان . لو أننا بقينا هنا لما سمحتنا للكفار أن تطأ أقدامهم تراب الأرض المقدسة .

أخذته الحمية فتمادى في صب اللوم على المتقاعسين عن نصرة الدين ، وصاح منفعلًا :

- هل تعلمون أن النساء الأمريكيات في كل بقعة من بلاد الحرمين . هم يريدون إخراج نساتنا من بيوتهن ليتبرجن بجرج الجاهلية؟

كان الكل معلقاً بصره في وجهه ، الكل يسرق شيئاً من تلك الملامح العذبة ، والكل منجرفاً مع كلماته الحماسية يتوقدون شوقاً لفعل أي شيء :

- هل تعلمون أيضاً أن أمريكا تريد إخراجنا من ديننا بدعوات الفاسقين ، والفاسقات من أبناء أمثنا ، فمظهر دعوتهم بريء كأن يقال : الدخول في العصر ، التحديث ، المواكبة كل هذه المفردات ستجعل شبابنا ينسل من دينه كما تنسل الشعرة من العجين .

استدار بوجهه في المجلس مستشعراً وقع كلماته عليهم ، وأخرج كلماته بركة :

- لم يعلق أحدكم على ما قاله البكري ! خائفون ، نعم خائفون !

مرر بصره في وجوه الحضور :

- أنا سأقول لكم : أنتم الوحيدون الذين ستكتون بهذه الحرب .

استجاب لفورته مد ياسين عنقه من خلف إبراهيم المؤذن مؤازراً إياه ويصوت جهوري عقب :

- نعم يا أميرنا ، سيكون حفظنا كحظ أهل الكويت يخرج أمراؤها ، ويبقى الشعب للقتال .

ما زالت جلسته ترن في قاع مسامعنا تاركة صداها يتمدد ، تخرج البعض من



مقولته، وهمّوا بالانسحاب. كانت عيونهم تتلفت بحثاً عن طمأنينة معرفة الوجوه الحاضرة فيقلب البصر خاشعاً من تلك الجموع الغفيرة التي تكدست داخل صالون كبير ضاق بهم، وبتزاحمهم، تبرا البعض من مقولات ياسين ليتناهى لمسامعهم صوت الصبية الصالحين من الخارج:

- جاء جنود صدام.

فتتأفز الجميع صوب الشارع فزعين من تلك الصيحات.

بينما كنت منهمكاً في الوصول إلى ياسين..

[١٠]

لأول مرة يحدث هذا التجمع على سلعة غريبة شُحح للمتجمهرين بتجربتها مقابل عشرة ريالات.

كانت التقارير التي تصل إلى مسامع الناس أن الحرب القادمة ستنتفث أبخرة كيمياوية، وأمراضاً جرثومية وستستلّ إلى المخادع، وتخطف الأرواح، وستبقى أجساداً كالخشب المسندة، تلك التقارير كانت كفيلة بجعل الناس يوقدون شعلة الخوف في أفئدتهم، ويتنادون بالوصايا، ويفتحون مسامعهم على مصراعها لأي نصيحة تقلل من توهج خشيتهم.. ربما ضاعف من وطأة هذا الرعب تلك الإرشادات التي حرقتها الأكسن المتناقلة لفحواها.

فاشتغل جميع أهل الحي (رجالهم ونسائهم وصبيانهم) بتغطية شقوق نوافذهم بلصق فاخر ادعى توفيق عبدالله انه جُلب من ألمانيا لثل هذه الأغراض.

قلة كانت تسخر من هذه الأفعال، وتزعم هذه المجموعة عثمان الوردى، فكلما رأى منشغلاً بسد فرجات النوافذ ضحك متهمكاً:

- وهل تظن أن هذا اللصق سيمنع الموت لو وقف طارقاً ببابك؟

تبعكم وسخريته أنضيا به لأن يقاد لمركز الشرطة، واستفسار مدير المركز عن نواياه المثبطة لأهل الحي، وعندما خرج لم يجبر أحداً بالتفاصيل التي حدثت له، اكتفى بأن أسر لأي حديث ربما نسيه في حينه، وعرج مباشرة إلى سوبر ماركت التوفيق، وتبضع لصقاً يكفي لسد شقوق عشرة بيوت متباعدة، كان يحملها ضاحكاً، ومتندراً من توفيق عبدالله:

- الكلب يسوق للصق بكل الصور!!

ويبدو أن هذا الإقبال على شراء اللصق جعل توفيق يفكر في وسيلة أخرى تدر عليه أموالاً طائلة بدلاً من الأرباح المتواضعة التي كان يحصلها من بيع اللصق الذي أصبح شغل سكان المملكة مجتمعين فكثرت منافسوه.

ويقول أهل الحي بأنه فُكر في جلب سلعة جديدة بعد أن أغرق السوق بأنواع عديدة من اللصق كسدت لظهور أنواع أخرى منافسة، حيث زاحم بعض التجار بتوفير أنواع مغايرة لبضاعته وتوزيعها في كل مكان وبأسعار منخفضة، لهذا تهكم البعض من ادعاء توفيق بأنه يمتلك أمراً يميز له احتكار أنواع فاخرة من اللصق.

اختراق التجار لهذا الاحتكار قوّت عليه جني أرباح طائلة كانت تهل من غيبته.

بدأ هذا الاختراق من خلال الباعة المتجولين، ولا أحد يعرف كيف استطاع هؤلاء الباعة توفير لصق يشابه إلى حد بعيد اللصق المحتكر من قبل توفيق، فباعوه بثمن بخس، ولم يكتفوا بذلك بل اقتفوا وسيلة لإغاضته حين انتشروا بين الشوارع منادين على بضاعتهم، ومبالغين في عروضهم بإضافة خدمة سد شروخ النوافذ والأبواب من غير مقابل.

لم يستسلم توفيق لهذا الاختراق المهيمن، فبإدراهم بلعبة أخرى أكثر فاعلية في جذب المتخوفين من تلك الأبخرة الموعودة فأشاع رجاله أن اللصق وقاية احترازية لا تمنع تسلسل تلك الأبخرة الكيماوية وأن الوقاية الفعلية تكمن في ارتداء خوذات صنعت لهذا الغرض، فبات الناس يتربعون ظهور تلك الخوذات.

وقبل أن تتسلل الشمس إلى مخدعها كعادتها الأبدية بزغ في الحي أربعة أشخاص يرتدون بدلات زيتية وخوذات بخراطيم معقوفة تشابه خوذات رجال الغوص، كان منظرهم مثيراً ومحفزاً للربح، فتفافز الصبية صائحين:

- جاء جنود صدام!

انتشى مرتادو تلك البدلات بهذا النعت، وعمقوا خطواتهم داخل الحي المزدهم بالصبية اللاهين بالعابهم المختلفة، كان سيرهم بطيئاً متثاقلاً يديون في

الأرض كرجال الفضاء، فأحاط بهم رجال الحي، وهما بهم، وقبل أن تنهال عليهم الأيدي ظهر توفيق من أول الشارع ضاحكاً:

- اتركوهم... اتركوهم.

تراجع الرجال مصوبين نظره نحو توفيق الذي أشار بإصبعه:

- هؤلاء رجالي جئت بهم ليعرضوا عليكم أحدث التقنيات لمواجهة الحرب الكيماوية القادمة.

كان الصمت يقف بينهم، ودهشة واسعة تتراعى بين الوجوه، فوجد في صمتهم فرصة سانحة لعرض سلعته الجديدة، فأهاب بهم لسماع حديثه مستغلباً أكبر عدد ممكن من أهل الحي بالدعاء على كل من شاهده، فأحاطوا به منتظرين ما سوف يتقوه به، فرفع صوته عالياً:

- أنتم تعلمون حرصي عليكم، وهذا الأمر لا ادعاء فيه، فأنتم أهلي وأصدقائي، كما أن الواجب الوطني يحتم عليّ حمايتكم!!

كانت كلمات كثيرة تعترك في أعماقهم إلا أنهم فضلوا الصمت على إثارة عداوته، فهو في كل حين يذكرهم بطول يده، وأن علاقته تبدأ بالوزراء، وتنتهي بالأمراء، ولخشيتهم من الإيذاء تركوا له حرية الحديث كما يشاء:

- أنتم تعلمون أن الحرب قادمة، وأن هذا المجنون - لعنه الله في كل كتاب - سيطلق علينا صواريخ كيماوية تحصد الأرواح من غير أن تمس خشباً أو تقوض حجراً، وكنت على اتصال بقائد أمن السلامة في البلد، وعرفت منه أن اللصق ليس مضموناً لحماية الناس من الأبخرة الكيماوية، وعلمت أيضاً من أناس مقربين جداً: أن على القوم حصولوا على مثل هذه البدلات، ولحيي فيكم توسّطت لدى جهات عليا بتزويدي بعدد منها يفي بحاجة أهل الحي، يكفي لكم فقط. حين نطق بالجملة الأخيرة كان وميض الصلف يلعب من بين عينيه الدائرتين كبوصلة فقد مؤشرها تحديد الجهة الواجب الوقوف عندها.

- ..... وقد لقيت العناية لكي أوفر لكم هذه البدلات.

عادت عيناه للتتحليق بين عيون المتحلقين حوله وهو يذر قسماً غليظاً في مسامع الرجال:



- والله العظيم، تنقلت من وزير إلى وزير ملحقاً في طليبي، ومؤكداً لكل منهم على حدة: والله لن أكف عن مطالبي هذه البذل حتى لو استدعى الأمر أن أصل إلى المقام السامي.

ابتلع جلسته الأخيرة على عجل، وواصل حديثه بارتباك طفيف مشيراً للرجال الثلاثة الذين بقوا داخل بدلائهم الزيتية الثقيلة بعيون لامعة ترسل توهجها من خلف زجاج تلك الحوذات التي بدت رديئة الصنع.

- ... جلبت هذه البذل لتختبروا جودتها، وعليكم تجريبها قبل شرائها، وأحب أن تعرفوا أنني سأبيعها لكم بربح قيمتها الحقيقية، وهذا فقط من أجلكم.

انفلت لسان الغبري متسائلاً: وكيف نجريها، وليس هناك أبخرة كيماوية؟

ارتج توفيق للحظات، ولم يتعكر وجهه كالعادة بل رد مستبشراً:

- هذا سؤال ذكي أشكرك عليه!

كان يبحث عن إجابة ملائمة فتمهل مستفسراً من الرجال المحيطين به:

- من يرد على سؤال الغبري؟

قفز أبو ليمونة - من معنوي الحلي - صائحاً:

- لنحرق الحلي!!

تطلع توفيق صوبه مخفلاً بإجابته:

- خذوا الحكمة من أفواه المجانين، نعم سنحرق كمية من الأوراق في برحة الحلي - وليس الحلي نفسه كما أراد أبو ليمونة - قال جلسته ضاحكاً: ومن أراد التجريب سنعرضه لدخان تلك الأوراق فلن يشمها أبداً، والعملية كلها دخان في دخان.

صعد صوت محمود الحميري متسائلاً: وكم ثمن هذه البذلة؟

تطلع توفيق في تلك الأجساد المهلهلة التي اجتمعت حوله:

- ثمنها الحقيقي خمسة آلاف ريال، ولكنني سأوفرها للراغبين بألف ريال فقط لمعرفتي بأوضاعكم المالية الصعبة.

صاح محسن أبو الخير: ألف ريال.. يعني أنا أحتاج إلى اثني عشر ألفاً لي، ولأسرتي.

فلكزه المعل: أنصحك أن تموت أنت وأسرتك فأنتم فراطاة!!

تضاحك من يماورهما، وتنبهوا لتوفيق، وهو يعرض ست بدلات هدية لموسى الفيل:

- هذه البدلات لك ولأسرتك، خذها قبل أن تنفذ الكمية.

شعر موسى الفيل بالحرج لاستثنائه من غير رجال الحارة، وسمع هماس جاريه المخيري والعواد:

- هذه الهدية لعيون ابنته، سمعت أنه يرغب في الكبرى.

كان صوت المخيري عالياً ثقب أذن موسى الفيل: الكبرى آية من الجمال، والله إنها فرس يا بخت من يمتطيها. ولكي يخرج موسى الفيل من العيون، والصدور التي حاصرتها بظنونها افعل الرفض:

- مثلي مثل أهل الحلي يا توفيق، سأدفع لك.

كان يعلم تماماً أن هذه الجملة لن تعزز حسن الظن به، أو بتوفيق لكنه نطق بها ليسترخي قليلاً بجوار اطمئنائه المنبعث من صلاية الجملة التي تلفظ بها إلا أن توفيق هزه من كتفه:

- لن أقبل بقرش واحد، وهل يأخذ المرء ممن سيصبح صهره، وجدّ أحفاده!!

زادت هذه الجملة من ترسب قامة موسى الفيل، واستقبال سوء الظن من غير أن يجد منفذاً يهرب منه جسده المترسب، التفت توفيق إلى التجمهرين حوله عرضاً: من يريد تجربة الحوذة أولاً.

تدافع الكثيرون لهذا الغرض، فأوقفهم وقام بصفهم صفوفاً متوازية بعد أن استعاد وجهه المعتاد فشم كل من لم يمثل لأوامره:

- يا هيج التزموا النظام، وليخرج كل منكم عشرة ريالات مقابل تجريب البذلة.

لم يستطع أحد ممن صف في تلك الطوابير التخلي عن دوره، فدرس كل

منهم يده في جيبه، وأخرج عشرة ريالات، وأخذ ينتظر دوره بينما تبرع الكثيرون بإحضار الأوراق المتناثرة في الشوارع، ولقائها في تلك النار الخابية ليرتفع الدخان إلى عنان السماء، ولتنكس تلك الأجساد رؤوسها الثقيلة بالخوذات لاستنشاق الدخان من منبته، غير متحسرة على دفع عشرة ريالات مقابل الاطمئنان على حياتها!!

فيما اختصر الميسورون كل هذا العنت بدفع ألف ريال لكل فرد من أسرهم مقابل الحصول على البدلة كاملة.

وتجاسر بعضهم، وفتح برغبته في المشاركة بتمويل مشروعه للحصول على أكبر عدد من الخوذات، والبدلات الواقية لحماية أبناء الحي، مقابل أرباح يسيرة، فلم يرد مطلبهم بل شكرهم مرحباً بهم بصوت عالٍ:

- هكذا يكون الواجب الوطني!!

هذه الصرخة تجاوزت حين سمعت أبواب سيارات الدفاع المدني تقترب من داخل الحي، مما حل توفيق على إنهاء عملية التجريب قبل أن تمتد خراطيم مياه سيارات الإطفاء.

[١١]

مع المكوث الطويل على أرضية المطار حلت الرطوبة داخل الطائرة التي ستقلنا لصنعاء، طائرة لا تعزز حسن الظن في تحقيق أمن، يغور الخوف عميقاً في صدري، فأنبت جسدي في المقعد مبعداً وساوس كوارث الطائرات، وأتلو قصار السور بخشوع تام.

في أيامي الأولى كان الشيخ يستنكر تلاوتي للقرآن:

- عليك بحفظ قواعد التجويد فأنت تبتلع الحروف كعجوز أدر.

ولم تفلح عصاه في ثنيي عن هذه القراءة الركيكة، ولم أستطع خلال السنوات التالية إجادة إخراج الحروف من مخارجها، فظلت ألوك الحروف كما يلاك اللبان السيئ.

كنت أبحث عن أي شيء يقربني منها، فأناولها مقرر النصوص لتستمع لحفظي، وأبدأ بتريد تلك المقطوعات اليابسة، فتضحك بملء فمها، وعندما تستشعر غضبي تلوذ بالتوبة، والتهوين من شأن كل الحروف ما دمت قادراً على نطق كلمة حبيبتني بوضوح، ونعومة.

- هل تعرف الآن أي مقبل إليها؟

خرجت للبحث عنها على امتداد خارطة اليمن، فعلى مدار عشر سنوات، وأنا لاحق أخبارها، وكلما سمعت خبراً، جيت المدن بحثاً عنها، قصصت أثرها في معظم المدن: اللحية، الحديدية، زيد، تعز، أب، المخاء، بيت الفقيه، وفي كل مرة أعود حاملاً شوقاً ملتهباً، وأثراً غاب هناك.

في تلك المدن لم أدع جبلاً، أو وادياً، أو منحدرًا، أو غورًا، أو بحراً إلا



وقفت سائلاً عنها، متخذاً في كل سؤال حكاية تربطني بصلة دم بها. أفل ذلك خشية أن يفور غضب أولئك الرجال المتحزّمين بأسلحتهم على الدوام.

هذه المرة لن أعود بدونها سأترى بص جميع نساء القرى، والمدن، والنجوع، سأقف على عيونهن، وتباعد خطواتهن، وعلى أردافهن، وعلى أسمائهن، وسأعرفها من بين جميع النساء اللاتي يقفن خلف الأبواب، أو ينتهزن بين الحقول، أو يسدلن الحجب عليهن، سأعرفها وإن غدت شمطاء تخشب مفاصلها، ونامت الحياة في أعطافها، سأعرفها كما كنت أفعل حينما أذهب إلى مدرستها، وأخرجها من بين مئات الطالبات.

في تلك الأيام تعودت على تضييع الحصة الأخيرة من يومي الدراسي، لأنسمر أمام بوابة مدرستها من غير اكتراث بما سوف أجنیه من درجات متدنية ربما تقذف بي خارج أسوار الجامعة، لم أكن أكثرنا بشيء سوى متابعة شذاهَا أينما حلت.

أقف مباشرة أمام بوابة مدرستها التي تفوح أفواجاََ غفيرة من الفتيات، لكل منهن حلم يوسوس في خيلتها، ويتغلغل في تلك الأعطاف اللدنة، وكل منهن تحب فتنتها داخل تلك العباءة المغلقة المنافذ، ثمة أرواح تسكن هذه المساكن الليلية تبث من عتمتها ضياءَ حائرًا هنا وهناك، أعرف بعضهن من خلال الأنامل، أو تثنيات عماشهن، أو من خلال عتمة تلك الحجب، أعرفهن من: رقة عين، أو اهتزازة قد، أو بسمة، أو تكشيرة تفضحها انفصالات اليدين والقدمين. كلهن بثن يعرفنني، يعبرنني، ويلقن علي قامتي سخرياتهن اللاذعة، أو يتحرشن بإثارة شغب عابر: ها هو العاشق!

عيناَي تنفحصان كل فتاة تبرز من تلك البوابة، وفي كل مرة أستلّها من بين جميع الفتيات أستلّها بعودها الناحل، واهتزازاته المرتبكة المتفنجة، تشير لصويحاتها انجهاي، فتتراقص على شفاههن ضحكات تغيبها غطوتهن المتخاذلة (في بعض الأحيان)، فتتركهن على حالهن، وتقفز الرصيف الفاصل بين انتظارَي، وبوابة مدرستها، فأتبعتها سائراً عجزيا المذهلين كي لا تحط عليها عيون العابرين، والمتظرين، والسفلة.

وطوال عماشنا أظل أغذي فتنتها بورد الكلمات، وأسقي مسامعها بقصائد هوى حفظتها من دواوين عشاق برعوا في نسج عشقهم بكلمات يانعة، وكلما عَبرَنا شخص، ورغب الغرق في حور عينيها أتبري لقصف رغبته بوجه كالح، وكلمات قرضتها الغيرة فغدت غباراً يسفي الوجوه، وتغري المواجهين بتغير طرق عماشهم قبل أن التحول إلى جرو لا يكف عن النباح، ساعتها تبدي تبرّماً مصططناً:

- ألا أعجبك أن يكتشف الآخرون جمال حبيبتك؟

يتعكر دمي منبهاً إياها أنني لا أحبذ مثل هذا المزاح، وكلما اقتربنا من حيننا نهرتني:

- ابتعد الآن وإلا حدثت كارثة!

فأخذ بالابتعاد راكضاً، وسالكاََ انجهاً مغايراً يمكنني من أن أقف لها بجوار بيتهم، وحين تصل تجلدي كشجرة دنت بشمارها حد الانكسار فترمي أمامي ضحككتها، وتدس جسدها داخل منزلها بعد تلويحة من يدها تنفن في اختلاسها.

من خلالها كانت الحياة أكثر اتساعاً وبهجة، لم أنصور أن يشاركني فيها أحد، أحسست به يتسلل لقطف أحلامنا، لم يكن تسلاً حذراً، أعلن عن رغبته أمام الجميع، ومنح أباهَا بدلات واقية من غير مقابل، هكذا أعلن رغبته قبل أن يتسلل لجوف بيتهم طالباً يدها. أيام قلائل وانتشر خبر خطبة توفيق عبدالله لوفاء. لم أدِرْ ماذا أصنع؟ كنت أبكي فقط!

توفيق عبدالله.

أجزم أن جميع أهل الحي يكرهونه، وأنا أكرهه كرها مضاعفاً.  
يستغل الماضغون لسيرته تغيبه، فيصمون به بالسافل. وهذا أهون وصف  
يمكن أن يقال فيه.

في جلسة جمعت كبار رجال الحارة، تذكروا خراطيم سيارات الإطفاء  
المتدة من كل زاوية من زوايا الحي لإطفاء تلك الأوراق التي شارك الجميع في  
إشعالها، كان المنظر مضحكاً، ومربكاً، وحين وقف الملازم على تلك الحرائق  
الصغيرة المقدوفة هنا وهناك، لم يتمالك نفسه، وشتم الجميع الذين ظلوا  
صامتين من غير أن يجربوه عن المتسبب في تلك الحرائق.. في تلك الجلسة  
قال ناصر الدري:

- كان علينا أن نسلم ذلك الخنيث قبل أن يتلاعب بأموالنا.

ذاكرة الحارة نسقت أرشيفاً متكاملاً عنه، فبمجرد أن يذكر تنهال كل  
الشائم، والأقاول التي قيلت عنه، ولكل واحد من أبناء الحي شتيمة ألصقتها  
به، يقولون:

جاء من نسل وضيع، حاملاً صفات حقيرة، تمخضت خلاصتها من  
تزاوج أعراق منبوذة، كانت مهمتها الحياتية تفريخ السقط، والسفلة، وانتهت  
هذه الذرية بأبيه الذي اقترن بامرأة من أصول عريقة، ولوضاعته اهتمها في  
شرفها حين رأى استدارة بطنها بعد أن غاب عنها لأشهر، وحين أخرجت تلك  
البذرة الفاسدة من بطنها، كانت تقف بتهمتها، وصك طلاق بائن، فعملت  
ليل نهار لتوفر لابنها حياة كريمة، وتبتعد به عن سلالته الحقيرة.

هذه البذرة لم تبتعد كثيراً عن جذورها، فمنذ طفولته قيل: إنه كان  
يستخدم أعضائه التناسلية للهو، وحل مراراً من تحت الصبيان الذين تعلموا  
بلوغ الحلم عن طريق إتيته.

منذ تلك الطفولة كانت خطواته تشير إلى أنه سيسير في الطرق المعوجة  
فحرف بالملاط والسارق، والسفيه، والمؤذي.. كان يقف في الشوارع عارياً لمن  
أراد تأديبه من الجيران يقف رافعاً ملابسه ويبين عضوه صائحاً:

- سيكون نصيبكم هذا.

ولم يكن أحد يستطيع اللحاق به لتأديبه على بذاءة لسانه، فقد امتاز  
بالرشاقة، والعدو كقط بري، يقفز على الجدران بمهارة فائقة، ويلوذ بالأماكن  
المرتفعة مكرراً فعلته الشنيعة تلك، وصائحاً:

- ليس لكم عندي من نصيب إلا هذا.

يش أهل الحي من استصلاحه، ووفروا على أنفسهم جهد تأديبه، أو  
الرفق به، فمن وجده قريباً منه لطمه، ونهره من البقاء، أو الجلوس بجوار  
بيته، فتدرب على أن يكون بعيداً عن كل بيت تمكن صاحبه من لطمه، هذه  
العادة أبقتة منتقلة بين الأسطح، وفي الخرابات، وفي الشوارع المتفرعة والتي  
تمكن قديمه من العدو السريع.

أجهد أمه كثيراً، ففي الليالي المظلمة الباردة تجوب الشوارع والأزقة بحثاً  
عنه، فتجده مقدوفاً على أسطح المنازل، أو متورطاً في تهريب دجاجة، أو  
بيضة مسروقة، أو متعرشاً ظهر أحد الصبية كهر متدرب على قبض فريسته، أو  
نائماً تحت جسد أمك عظامه الطرية.

في طفولته لم يتورع عن فعل أي شيء فعاش طفولة قدرة.

وقف في شبابه بلا أي شهادة، أو مهنة، أو خلق، فخرج يبحث عن جمع  
المال بطريقته التي تعلمها من طفولته تلك.

تغيب عن الحي لسنوات قليلة، تمرغ خلالها بترية الطفرة الاقتصادية التي  
اجتاحت البلد، وعاد يحمل لساناً حريزياً، يعرف كيف يغزل الكلمات  
الفخمة، ويلف فريسته في كفن تشبه كل الجثث!!



غالباً تأتي سيرته مقرونة بأسماء الحيوانات المتذلة حين يتم الحديث عنه .

- الكلب ترك كل شيء ، وامتنع بيع اللصق .

- هناك من يتاجر بالأحزان .

- يقولون : إنه توجه بخطاب لوزارة الداخلية راعياً في احتكار الخوذات

الواقية .

هذا ما يفعله الأوغاد حين تضيق بالناس الفرج .

أشاع في الحي اتصاله بعالية القوم ، وقام بعدة أمور عمقت اليقين لدى الناس في قدرته على فعل أي شيء ، فخلق في قلوب الكثيرين مهابة ، وخوفاً من بطشه لذلك كان يهادنه البعض ، ويتزلف منه البعض الآخر ، ويشتمه الكثيرون كلما ابتعد عنهم .

فحين يسلمهم ظهره تستل العيون غمزها ، ولزها لتريح أعماقها من كلمات تمجرت على أفواهها ، ولم تطاوعها الألسن في إخراجها على مسامحه .

كان غزير الادعاء ، وآخر ادعاءاته أنه على صلة عميقة بأحد الأمراء الكبار ، ولم تكن قادرين على تكذيبه ، فأمواله الساتية في كل مكان تمكنه من عقد علاقات متينة بكل رجال المجتمع .

تغلغل مقت أهل الحي لتوفيق ، فلم يكف بتأريخه الحافل بالخشعة والدناءة ، فأضاف صفات مستحدثة اكتسبها من تلونات رجال المال ، والخصوص . . كان يسير متعالياً ببخصال دنيئة ، ومشينة ، متناسياً أن عرقه الوضع لن يتسامق به ، ولو جمع أموال الأرض (هذه جملة لسراج الينعاوي بعد صياغتها) ، وما زاد في احتقاره اقتياده لأمه ، وإيداعها إحدى دور الرعاية وأغلق على سيرتها هناك متكرراً لأم كانت في حاجة إليه ليدفع عنها تداعي سقف أيامها الأخيرة .

خسته ودنائه تدخلاته إلى الطرق القذرة من غير أن يتبلل خجلاً ، ومن تلك الدروب يحصد الأموال ليغسل تلبد عرقه الوضع ويقيم لنفسه صرحاً من المجد المصطنع .

لم يعرفه أحد حين عاد من رحلة جمع المال ، اخترق الحي بسيارة فارغة لم نعتد على وجود مثلها في حيننا ، وتعتمد إيقافها في جوف الحي معترضاً الشريان

الصغير الذي لا يسمح بمرور سيارتين في آن واحد ، فتكتلت السيارات الباحثة عن مخرج ، وهتبت الجميع من لعن صاحب السيارة المعترضة الشارع .

يومها تقول البعض أن أميراً دخل الحي بحثاً عن الفقراء ، وزادت هذه الشائعة مع تكتل الناس حول تلك السيارة انتظاراً لظهور الأمير الذي دخل إلى الحي من غير أن يصحبه الاخوان . . . اختار هذه الوسيلة ليعلن عن عودته .

بهت الباحثون عن الهبات لظهوره ، وصاحت أم يوسف العويني :

- هذا سارق الدجاج !

وتراجعت عن ذمه متوددة إليه حين رآته يدس المئات في أيدي من استبشر بظهوره .

غزلت حول ثرائه كثير من الحكايات ، فأسندوا أسباب غناه لعمليات مشبوهة ، ومع انتهاء حرب تحرير الكويت ، كان شخصاً مختلفاً يصتف من عالية القوم ، ففي سنوات معدودات جمع أموالاً ضخمة - ضاعت من غير أن يقدر على استردادها - تسببت حكايته عبر المجالس ، ولم يكن يستطيع المتحدثون أن يذكروا اسم شريكه فقد أشيع أن مجرد ذكر اسم ذلك الشريك يكلف المرء مضغ حمراته داخل السجن لمدة خمسة عشر عاماً كحد أدنى .

هذا الرعب جعلهم يكفون بلعنه منفرداً ، واستعاضوا الله فيما ذهب من أموالهم بسبب تلك الخوذات رديئة الصنع .

في الأيام التالية لاقتياده إلى سجن بريمان إذا ذكر قيل بصوت محموم :

- كان وضيعاً اكتسب صفات الرذيلة ، ولم يبق قطرة حياة في وجهه .

حين تنأى إلى مسامي اقتياده للسجن شعرت بفرحة غامرة ، فهو الوحيد الذي جعلني ألوك حزني ، وأفكر جدياً في ترك مقاعد الدراسة ، والبحث عن عمل قبل أن يخطفها ، وهي في اكتمال نضوجها .

في موعدنا الليلي كانت أكثر جزعاً وحرصاً على إبعادي .

تصنعت الحزن ، ذلك الحزن الذي تكشفه العيون حين يكون بارداً ، وفاتراً معاً ، كانت عينها تبرقان برقاً ضافياً :

- أخيراً وافق أبي على خطبة توفيق .

تركها حيث كانت، وعدت أبحث عن أي شيء أمزقه، وأمزق معه كمدني.

هافتني مبدية انزعاجاً من تصرفي غير اللائق معها، فصرخت بها محتداً:  
- أمن أجل خوذات لك ولإخوتك توافقي على أن تتحولي إلى سلعة،  
وسلعة لمن؟ لئلا هذا الخنزير.  
كان صوتها غاضباً، وعنيفاً: ومن قال لك إنني قبلت؟ فقط أردت أن  
أخبرك.

- لا أريد أن أسمع مثل هذه الأخبار.

- لا ترفع صوتك فأنا لا أحب مثل هذا التصرف.

وأغلقت سماعة الهاتف، لينتشر بعدها نبأ خطية توفيق لها، وقيل أن  
تكتمل الثلاثة الأشهر كان خبر اقتياد توفيق للسجن تفوح داخل كل منازل  
حيتاً، قلة أظهروا أسفهم ليس لاختياده، وإنما على تلك المبالغ التي أخذها  
منهم مقابل الحصول على الأقتعة الواقية من الكيماوي، تلك الأقتعة التي أشيع  
- فيما بعد - أنها صنعت في المدينة الصناعية بجنوب جدة، وأنها دبغت من  
جلد تصنع منه الأحذية الرديئة!!

ولم تكن تلك الشائعة تستفز أحداً بقدر ما كانت تستفز الجميلي الذي ظل  
لأيام طوال يستنشق الهواء عبر خوذة دبغت بجلد تصنع منه الأحذية الرديئة،  
كان أول من اشتراها من توفيق وفاخر بها أعيان الحي.

نما هذا الاستفزاز إلى صبية الحارة فتربصوا به وكلما رآوه صاحوا:  
- شمام الأحذية الرديئة.

[١٣]

لا تزال الطائرة جائمة، والضيق يتمدد برتابة، فيتلهى الركاب بالنظر  
بعضهم إلى بعض بوجوه محايدة، وكلما اعتل صوت من الميكروفون الداخلي  
ظنوا اعتزام القبطان إنهاء مكوثهم داخل تلك الكيئة المخنوقة بأنفاسهم.

بقي الشبان الثلاثة على حالهم يرتفع صوتهم بالتكبير وينخفض، ويجهون  
أي عين تحدق بهم بتحد صارم يقترب من حدود الاعتداء، ما الذي جعل  
الدين يتحول إلى قسوة في قلوب هؤلاء الشبان؟

كنت على وشك أن أسجل هذا السؤال في محاولة لتناوله كاستطلاع  
صحفي يلقي الضوء على الأسباب المؤدية إلى الغلظة، مقولات الدكتور  
عبدالرحمن العلوي جعلتني أراجع:

- في هذه البلد لا تفكر أن تناقش المسائل الدينية!!

رفع يده داعياً: الله يأخذه!

أول رجل أتعرف عليه حين دخلت للجريدة كان هو، رجل مربوع حت  
الصلع فروة رأسه واقتربت ستون عمره من الارتفاع للأربعين عاماً إلا أن الهرم  
النفسي أوصله للدرجات الأخيرة من العمر، يسير يائساً من إصلاح أي شيء،  
وعرف عنه ترديد جملة:

- الله يأخذه!

جملة مواربة لا تعرف يقصد من تحديداً، فأكثر من مرة احتاج لأن يلصق  
دعوته بأقرب رجل يناصبه العداء.. كان أول شخص تعرفت عليه حين  
انضمت لهيئة التحرير، رجل جاء من القاع يحمل أسرة متفرعة من النساء  
لأرامل، تعلقوا جميعاً في رقبته، وكرجل يتدرب على حمل الأثقال استطاع حل



كل أثقالة ليجد في نهاية الممر شهادة دكتوراه في الإعلام الدولي، لم يتزوج بعد، ودخله يذهب على رؤوس عائلته المتناثرة هنا وهناك، في نهاية كل شهر يخرج مظاريف ويوزع بها راتبه الشهري، ولا ينام حتى يوصل كل منها إلى صاحبه، لم يبق منه شيء إلا دعوته، بقيت جاهزة لمواجهة ما يعكر صفو مزاجه، يسير بجيب متخم بقصاصات ورقية يسجل بها كل فكرة تنير مخيلته حينما يكون منهكاً في عمل آخر غير الكتابة، نحن زملاءه القريبين منه نلمحه يقلب جيوبه ويثر أوراقها بحثاً عن قصاصة بعينها وحين لا يجدها يشتم أخته التي تعنتي بحياته:

- أكثر من مرة أخبرتها ألا تعبت بأورقي أو تخرجها من مكانها..

ويتناول أي قصاصة أخرى ويشعر في الكتابة.. لم يكن هندامه مرتباً بما يليق بشهادته الأكاديمية ومع ذلك كان يحظى باحترام الزائرين لقر الجريدة بما يلقه فمه من أفكار.

تعلمت منه وضع قصاصات ورقية في جيب، وكنت أتمنى التصاق لزمته بفعي فما إن رفعت يدي داعياً:

- الله يأخذه!

فتضاحك زملائي مطالبين أن أعيد الحركة والدعاء، وتبرع أحد الأصدقاء بإخبار الدكتور العلوني أني أسخر منه واستهزئ بحركاته، ليقف صارخاً في وجهي وإعطاني درساً في الأخلاق.

البقاء داخل كينة طائفة كالبقاء داخل فرن تحمي ناره، بدأ الضيق يتسلل إلى صبر الركاب، وانتشرت روائح ثقيلة لبعض المسافرين فامتصت بقية الأوكسجين الهارب من أمام أنوفنا والباحث له عن ملجأ من هذا الشفط المثلث.

تبادلت مع أحد الشبان الثلاثة النظر، ابتسمت له فبادلني الابتسام، خشيت أن تتطور تلك الابتسامة وتتحول إلى دعوة للحديث، فعدت لوضعي، وعدلت عن تسجيل فكرة غلظة الشباب، متحسناً جيبي وملامسة تلك القصاصة التي ثبت عليها رقم هاتف سجلته بعناية فائقة حتى أنني كتبت مراراً كي لا أخطئ نقله، كانت خشيتي أن أجد هذا الهاتف خارج الخدمة، أو تغير

مالكه، ولكي لا أقع في المحذور فقد رجوت عيسى شرف أن يزودني برقم إضافي فاستعصم بفعي من أن يكون لديه رقم آخر مبدئياً استياء من إلحاحي.

كانت المضيفة تبحث بعينها عن نسي ربط حزامه، تثبت في مقعدي مشيراً لها بيدي أنني أنهيت المهمة التي تبحث عن أهلها، لا أدري لماذا صدرت مني جملة ركيكة - هكذا أحسست - فتوقفت أمامي مستفسرة، عيناها الزرقاوان كعيني قطعة مستوحشة تحقدان، وتحدان موقع فريستها، متمهلة افتراسها لتتلذذ برويتها تلوذ بأخر الدنيا هرباً من غاليلها، غرست عينيها في ملاحي، وتستنطقني بشمل، أعدت جلتي بصوت أقل مما ينبغي، فأحتت جذعها تاركة ابتسامتها تندلق على وجهي كمخاط دودة أفرزت ساقها لتشل حركة فريستها، قلبتني بعينها من غير أن تفكر بازدراد فريستها على عجل، تعددت هرس ملاحي والتلذذ باستغاثي الواهنة، كانت لغتي متداعية تنهض فيها كلمات محدودة لا توصل إلى معنى، وكلما هربت منها تابعتني مصرّة على إنكاجي، نسيت كل الكلمات التي حفظتها عبر رحلاتي المتوالية للخارج، واكتفيت بالشكر، أعدت الشكر مراراً حتى ظننت أنني أخطأت نطق هذه الجملة أيضاً، وقبل أن تتركني أدب بخجلي بين الكائنات المحدقة بارتياكي، زمت شفثتي متمعضة، وانتقلت لتلبية نداء لأحد الركاب، وأنا على يقين أنها ستهرس بعينها الزرقاوان وجه ذلك الراكب.

شعرت بالخجل من هذا الموقف، كنت أتخيل أن جميع الركاب سيتقدمون بشهادات موققة مقرّين بعجزني المريع من التحدث بكلمتين متسقّتين بهذه اللغة التي قتت كيانتا، ساعتها تعلق اللعن في سقف حنجرتي، ولعن كل العرب الذين يضعون عمالة لا تحيد اللغة العربية في مقابل جمهور لا يجيد حتى لغته، تنفن صحفنا في التباكي على موات لغة الضاد بين الناشئة والكبار على السواء، كيف تحيي لغة وهي ثانوية، ثانوية في الحياة العملية: ... في المستشفيات، والبنوك، والقنادق، والشركات، والمطارات، وعلى ألسنة العذبات من المضيفات.

وقف مدرس اللغة العربية يتندّر عليّ حينما أعربت كلمة (مسرّعاً) في جملة: «أقبل الخادم مسرّعاً» على أنها مفعول به، صالح مغناطاً:

- سيأتي زمن لا نفرق بين الفاعل والفعل ولن يكون بعيداً إذا كنت تدرس في الصف الثالث ثانوي ولا تعرف إعراب (مسرعا).

كان أستاذ اللغة الإنكليزية يوصينا بحفظ المفردات، ومقررات التعبير، ونستقبل الامتحانات بحفظ الصفحات، وأرقامها، وشكل المفردة حين يصيبنا الإعياء من نطقها جيداً، كنا نحفظ كل شيء، معادلات الرياضيات، تركيبة عنصر كيميائي، قانوناً فيزيائياً، كل مقرر هو مادة للحفظ، مادة لاستعادة البلادة الأولى، بلادة أولئك الذين يتابعون الشعراء في بلاط الحكام، والخلفاء، وحفظ قصيدة مدح كاذبة قيلت في سلطان لا يفهم من الدنيا سوى الاستمتاع بسماع التبجيل، والتأليه، ونحن حفاظ نعيد سرد أبيات قصيدة واحدة مكررة عبر الزمن، نردها، ولا نعرف من معانيها شيئاً، مهمتنا الإمساك بجرسها الموسيقي، وعندما نجتل نستلهم قدرتنا البصرية، فنحفظ أشكال الكلمات، وأمام ورقة الامتحان نتخبط في كتابة ما حفظنا.

- إن الحفظ تدمير لقدرة العقل البشري.

سمعت هذه الجملة متأخراً جداً، ويبدو أن لا أحد من المدرسين العتاة قد سمع بها بعد، أجالس أبنائي يومياً لكي يحفظ مقطوعة أناشيد رديئة، أنصت إليه، وهو يحصي صادرات أنغولا، وأين تقع السلفادور؟ وكيف انتصر صلاح الدين في معركة حطين؟ وما هي شروط الصلاة؟ وكيفية الاستنجاء والاستجمار، وما هو قانون الطوف؟ وكلما حاولت أن أدربه على الفهم هلت دموعه سخية:

- الأساتذة يطالبونني بالحفظ، أعدك عندما أكبر سأحرص على الفهم!

كلنا أجلنا هذا الفهم، والآن لا نجد في ذاكرتنا سوى (قفا نبكي) ...)

وما زال الفهم مؤجلاً!

انكسر ظهري في انحناء طويلة على المقررات المدرسية، انحناء بدأت من المرحلة الابتدائية ولم يشو ظهري إلى الآن .. كل شيء نحفظه، نحفظه اليوم وننساه في الغد.

ناولتها مقرر النصوص لأثبت لها أني طالب مجد يحفظ كل المقررات من

غير تلكؤ، كانت ضحكاتها تفر من بين شفتيها كلما استمعت لحفظي، وتلتقط شهقتها:

- أنت تزدرد الكلمات كمعجوز أدرد.

فأنسى كل المقرر وأبحث عن فرصة للشم خدها، فتموج دلالاً وتعديني بأكثر من ذلك حين يغلق علينا بيتنا.

سرب من الأمنيات نجمها في شبكاتنا يومياً، ونظير أحلاماً على أغصان المستقبل وكلما عجلنا بالسير اكتشفنا أننا ما زلنا نقعد في أعمارنا الصغيرة.

أصبت بالهلع مع جريان سائل غطاخي على فخذي، كنت ملتصقاً بها وشيء يفور ويفور ويتدفق حمماً جارياً، ارتعشت كثيراً وذويت وأنا أجذبها نحوي بقوة .. بعدها أحسست أن الحياة لها أبواب أخرى تمتنحها للكبار .. لا أذكر أنني احتلمت، أذكر هذه اللحظة التي زفنتي إلى هذا العالم!

لم يكن الحلم هو الدليل الوحيد لبلوغنا عتبة الرجولة، فاللغة الإنكليزية بوابة أخرى ثبتت أننا شبيبا عن الطوق، فكنا نلصق الجمل، ونعوج الستنتنا برطن لكلمات نسرقها من كتاب (تعلم الإنكليزية في خمسة أيام) نحفظ الجمل الطويلة، ونردها بتكسير واضح، هذا الرطن المعوج يؤسس في أذهان ذواتنا أننا متعلمون، وأخذنا نصيباً وافرأ من تلك اللغة المستعصية على ألسنتهم، درست في أذهان أول جملة حفظتها:

- أي لاف يو.

وظللت أنتظر ردها طويلاً قبل أن أعرف أنني كنت ألقني على مسامعها بكلمات لا تعرف منها سوى أنني أتفاخر عليها بتقدمي الدراسي.

وشاءت أن ترد عليّ بالجملة نفسها فاقنيت لها كتاباً ماثلاً، وخططنا أن نتبادل عشقنا على مسامع ذواتنا من غير أن يتنبهوا لهذا الوليد الذي شب بين قلبين جمعتهما رقصة عشق رطيب.

كنت أظن أنني سأتمكن من تعلم الإنكليزية في خمسة أيام كما نص عليه عنوان ذلك الكتاب الرديء، وها هو العمر يمضي من غير أن أجيد هذه اللغة اللعينة.



اجتزت مادة اللغة الإنكليزية في اختبار الثانوية العامة بمعجزة استجلبتها أمي بالدعوات في صلواتها التي خصصت جزءاً من دعواتها أن أوفق في الامتحانات.

خرجنا بلغة عربية متداعية، ولغة إنكليزية كسيحة تقف على أفواهنا، تطل برأسها وتعود لأعماقنا من غير أن يستينها أحد.

لم يجِد وقوفنا أمام السفارة الأمريكية - من الصغر - في اجتياز هذه اللغة الثقيلة المملة.

ففي العصارى نتقاطر سيراً لمنطقة الروس حيث تقع السفارة الأمريكية، في طفولتنا الأولى كنا نقصد بوابة السفارة، وبيوت الأمريكيين المتناثرة هناك لجلب الألعاب التي تقذف خارج السور، وحين تقدم بنا العمر قليلاً ساءت نوابنا فقد أشاع أبناء الحي - الذين سبقونا عمراً - أن هناك فتيات أمريكيات يسبحن بالماء فتظهر أردافهن، وصدورهن، ولا يجبن أجسادهن من العيون المتلصصة على كنوزهن الأنثوية.

كانت هذه الشائعة كفيّة بجعلنا نتقاطر في مغامرات شبه يومية، نحوم حول أسوار ملاعب، ومساح للجاليات الأمريكية، كانت الأسوار خفيفة، فترتقي الأشجار المطلة على تلك الملاعب والمساح، ونظّل كالعصافير لا تنس من شفاهنا أي كلمة، فقط تسيل رغباتنا، وتتوتر أعضاؤنا، ومع الغروب نهبط مسرعين لإفراغ تلك الرغبات في دورات المياه بعد استرجاع محوم لكل تفاصيل الأجساد البضة التي لم تكن تعلم أن نسوراً صغيرة جارحة خطفّت شيئاً من أجسادهن، وعادت إلى أوكارها لئسكتوا بها نهم مراةقة مغلقة.

ياسين استطاع النفاذ إلى ذلك العالم وغدا يزودنا بالمجلات والصور الفاضحة التي توقف ينايب التخيلات وتوقفنا على وجوه وأجساد ممددة.

في إحدى المرات بينما كنا نحتضن أفرع الشجر المتعالي، ونستتر بأغصانها الكثيفة، وتبادل منظراً - اشتركتنا جميعاً في شرائه - انزلت قدم ياسين أثناء محاولته التقاط المنظر من يدي فهو صارخاً، لتتأقظ رافقن بأجنتنا بعيداً عن تلك العيون التي استفاقت لتلك الصبيحة، خباتنا الأزقة الملتوية، ومن هناك

أخذنا نتابع ياسين المتوجع من أثر سقوطه المفاجئ، حشناه مراراً أن ينهض قبل أن تصل إليه أقدام الأمريكيين اللذين ظهروا لاستطلاع منبت تلك الصرخة، كانت كرش أحدهما لا تزال تقطر بالماء، وكان الآخر يحمل مضرب التنس، ويجدق في عيوننا المتلصصة بهما من بعد، حملاه، واختبأ داخل تلك الأسوار المنخفضة.

لم نستطع إخبار العم جابر بما حدث لابنه، فاتفقنا على الصمت، عدنا يومها مبكرين، فقد كنا نصل إلى منازلنا مع اقتراب صلاة العشاء، حيث يستغرق منا السير وقتاً تقطع فيه عدة حواري حتى نصل إلى حارتنا التي تستند على الجهة الجنوبية، انهمكنا في اللعب، وكان شيئاً لم يكن، ومع انقضاء صلاة العشاء تنافر كثير من الصبية لدخول بيوتهم، وكعادتي دخلت إلى بيتنا متسللاً كي لا تلحظ أمي تلك القدرة التي تحملها قدامي الحافيتان، ودلفت متسللاً لدورة المياه ساكباً إريقاً من الماء الصافي محاولاً التخلص من الأتربة العالقة في كاحلي، طُرق باب بيتنا فاستجابت والذي لطرقاته على عجل، ومع انفراج الباب سمعت صوت العم جابر سائلاً:

- ياسين عندكم؟

توارت خلف الباب، محتمية بالستارة التي تعزل البيت عن الشارع لو انفرج الباب نتيجة أي فعل:

- مرحباً أباً ياسين كيف حال سعاد؟

- بخير... قولي لياسين أن يعود للبيت.

- ياسين ليس هنا.

- أين ذهب هذا العفريت؟ لقد بحثت عنه عند كل الجيران فلم أعثر عليه..

- حتى ابني لم يعد ربما لا يزالان يلعبان في الحواري المجاورة.

- شكراً لك، ولو جاءكم أخبريه أنني أبحث عنه.

عندما رأيته خبطت على كتفي: منذ متى وأنت هنا؟

- للتو عدت.

- وهل كان معك ياسين؟  
ارتبكت قليلاً وبدأ تلعشي: أخذه الأمريكيان.

- أي أمريكيان؟  
- أمريكيان الرويس.

ولم تنتظر تتبع تلعشي حيث جذبتني من ذراعي، واختطففت عباؤها،  
وهي تحاول إصلاح غطوتها على بوابة البيت: لا يجلب المصائب للكبار سوى  
الصغار!

وقبل أن نصل إلى بيت ياسين - وهي تخرجني مرة، وتدفعني أمامها مرة  
أخرى -، كان ذلك الرجل الأمريكي الذي تقاطر الماء من كرشه، يسند ياسين  
- الذي بالغ في عرجته -، وإبتسامته المشتتة لا تعرف كم الشتائم التي انطلقت  
بانجماه، وزع بصره بين المجتمعين حوله بارتباك، وأخذ يثرثر بكلمات صدها  
العم جابر وهو يهز ابنه هزاً:  
- ما الذي حدث؟

توجع ياسين ولم يرد على أبيه فهمً يخطف ترقوة الأمريكي لولا تدخل  
حسين داود - الذي كان يفاخر أبوه بنجابته، ويردد: ابني حسين حصل على  
علم لم يحصل عليه أحد في هذا الحي الكبير.

هذه المفارقة يتذكرها أبي كلما أهديت تقاعساً في دروسي، يعضّ على  
شفتيه: لو أنك امتلكت ذهنية حسين يا كلب - تبرع حسين داود بالترجمة  
بينهما، وكانت تظهر على ملامح ذلك الرجل الأمريكي عسراً في فهم ما يقذفه  
لسان حسين من لغة متداعية، ويتابع صراخ العم جابر باهتمام:

- قل لهذا الأبرص: والله لو حدث شيء لابني سيكون كرشه ثمناً  
لعظمة صغيرة في رجل ياسين.

كانت قدم ياسين ملفوفة بضماد لأول مرة نشاهده، وييده شتلة ورد  
نسقت بإتقان، سحبها العم جابر من يده، وقذفها خلف ظهر الرجل الأمريكي  
الذي مضى ممتعضاً من تلك المعاملة.

بينما ظل المجتمعون يصغون لزوائد حسين داود في ترجمته البائسة.

بعد تلك الحادثة، غدا ياسين لا يتسلق الأشجار المظلة على مسبح  
الأمريكان، فمع العصارى يتأثق، ويلبس بنظلاً وقميصاً - وكان في هذه  
الملابس موضع مسبة من قبلنا - ويسرح شعره، ويمضي مباشرة إلى البوابة  
الرئيسية، يطرقها، ففتح له، فيدس جسده في الداخل من غير أن يحتاج إلى  
ذلك المنظار الذي اشتركنا جميعاً في شرائه من أجل رؤية تلك الأجساد البضة  
عن كتب... مشكلتنا كانت في تبادل ذلك المنظار حيث يمكث في يد كل منا  
وقتاً يفوت على الآخر مشاهدة حركة جسد لا تعاد.



حاول أحد الملاحين تهدئته:

- ليست كافرة كما تعتقد فهي مسلمة!

صاح في وجهه:

- وهل تعرف الإسلام حتى تشهد لها!

انسحب الملاح من أمامه.. ونهض بعض المسافرين معلنين عن انسحابهم من الرحلة، ومبدين رغبتهم في العودة إلى منازلهم، هذه المحاولة وقف لها كابتن الطائرة بنفسه عندما وقف بين المسافرين محاولاً ألا يثبت عينيه على الشبان الثلاثة:

- عليكم العودة لمقاعدكم، فسوف نقلع بعد لحظات.

- لن نقلع وهذه السافرة المتبرجة معنا!

عقّق كابتن الطائرة النظر صوب الشبان الثلاثة محاولاً استرضاءهم بابتسامة واسعة:

- اهلاً، سننفذ رغبتك ولن نقلع معنا المضيضة، سننزلها الآن ونستبدلها بملاح!

- جزاك الله خيراً.

لم يكمل جلته إلا وأبواب الطائرة قد فتحت، وصعد رجال أمن المطار في حركة سريعة ومباغتة يحيطون بالشبان الثلاثة واصطحبوهم لخارج الطائرة.. انقاد الشبان الثلاثة لهذا الأمر من غير أن يخرج من أفواههم كلمة واحدة.

فانتشر صوت المضيف في فضاء كينية الركاب موضحاً - من غير اعتذار لكل هذا التأخر - طرق اتباع وسائل السلامة، تدل قناع الأوكسجين بين يدي الملاح، وكمم به وجهه الضامر كحبة تين يابسة، وعيناه تتابعان انتشار الجنود داخل أرضية المطار محاولاً تزامن حركة يديه مع الصوت المنبثق من الميكروفون الداخلي المعلن عن وسائل السلامة الواجب اتباعها عند حدوث خطر طارئ.

قناع الأوكسجين وسيلة جيدة لإبقاء الحياة في أوردتنا، لو أن الحميلي استخدم مثل هذه الأقنعة لما أصيب بحساسية الأنف التي بقيت معه منذ تحرير

[١٤]

- حرام عليك.. حرام.

صرخة عالية كسرت تلك الرتبة، وانطلقت المضيضة راكضة في عمر الطائرة متخيلة عن لياقتها وأناقتها.. قال البعض إنها كانت تبكي!

كان صوت أحد الشبان الثلاثة عالياً متوتراً:

- لن نقلع الطائرة ما دامت هذه معنا!

ارتج الركاب وتداخلت الأصوات والتوقعات:

- الطائرة مخطوطة!!

- اكتشف الملاحون عطلاً بالطائرة!!

وتبرع أحد الركاب بتوحيد التوقعات:

- لن نقلع الطائرة سمعت أن بها عطلاً!

فتهيجت الأنفس رعباً، وهم الكثيرون بمغادرة الكينية، فتسابق الملاحون لنفي هذا الخبر، والتأكيد أن التوقف ليس له علاقة بعطب، وإنما انتظاراً لاستكمال ركوب بعض المسافرين الذين حلوا عفشهم، ولم يصعدوا للطائرة.

أبواب الطائرة مغلقة، ولا شيء يشير إلى أن ثمة ركاباً قادمون، والمقاعد تضيق بالركاب، ما الذي يحدث؟ كان في حركة المضيفين شيء مريب، يتحركون صوب الشبان الثلاثة ويعودون، ولغط أولئك الفتية يتمدد في آذان المسافرين، وحاول الملاحون إبقاءه في حدوده الدنيا، كان صياح الشبان الثلاثة عنيفاً ومعتداً، أحدهم انتفل صائحاً:

- لن نقلع هذه الطائرة وهذه الكافرة معنا.

الكويت إلى الآن . . مجرد رؤيته تذكّرنا بخוזات توفيق عبدالله، وتراكض الصبية وهم يترصصون به صائحين:

- شمام رائحة الأحذية الرديئة.

فلا يبيد سوى حجارة الشارع ليحصبهم بها، شامئاً أصلاهم، وذلك الماء الذي أخصب بذرة توفيق عبدالله.

الطفولة هي ورقة التقويم الوحيدة التي نقطعها من غير أن نقرأ ما كتب خلفها. من هناك يتشكل مستقبلنا، ومن ذلك المخزن الصغير يخرج العظماء والقواد والقوادون أيضاً.

أخذت محركات الطائرة في الدوران متدرججة على المدرج محدثة صوتاً مدوياً يثير الفزع، ويهش الطمأنينة الرابضة في الصدور بعيداً عن موقعها.

تطلعت إلى أجزاء من بيوت جدة الهاربة عن عيني، فألحها كعروس اختطفها البحر من بين أنياب صحراء هالكة.

هذه المدينة المسترخية على الشاطئ، وكأنها فتاة تنتظر عاشقاً ما، يخرج عليها من بين زبد الموج المتخاذل، ويقودها إلى فرحتها الأولى.

تجالس البحر من الصباح الباكر حتى إذا مد الليل خطواته بشوارعها سحبت رداءها بخفر العذارى الحجلات، وعادت تبخر صوب مرقدها تاركة فتنتها يتطبب بها عشاق الليل.

كبرت تلك الصغيرة في وقت قصير.

يوماً تكبر على نبوءة كارثة أن تتقوض تحت أحلامها العذاب، جروحها المتسعة تؤمس توقعاً لن ينجب، ستغرق هذه المدينة ذات يوم في أوحالها لقد خطفها للصوص والسماصرة، ودجنوها كما يشتهون، سخروها لأن تحمل ما لا تطيق، فغدت مدينة مسلوية الإرادة، والذكريات.

في جلسة سمر وعلى مقربة من شاطئ شرم أبهر تأفف عثمان الوردى من سماعه لأنباء التحالف الدولي ضد العراق، وحين لاهه أبي نفص مؤخرته، ونفض من مجلدة صائحاً:

- إن من يصنع الحياة هم أولئك الأوغاد القذرون، أوغاد يأتون من فجاج الأرض يتكاثرون كخلايا النمل، ويعكرون حياتنا.

- أنت متحامل كثيراً.

- وأنت مغفل أكثر من اللازم.

- أنا مغفل يا أبو طارق!

- نعم، حين تصدق هذه اللعبة الحقيرة التي يمارسها بوش وأعوانه.

- ولكن بلدنا . . .

- بلدنا لن تغفل منهم، ستجدهم يقفون في إشارات المرور، وسأذكرك.

مضى وبقية من كلام ما زال عالقاً في فمه، ترجاه أي البقاء، فسحب نفسه، وصعد مركبته نافثاً جلته الأخيرة قبل أن يمضي:

- سيأكلون لحنا الآن، وغداً سيسحقون عظامنا، تذكّر هذا!

عثمان الوردى لهب يخشى عليه أبي أن يطفأ في الزنازين سيئة التهوية، بعد أن قيد لمسألة عابرة لاستخفافه بأهل الحي، وتحزهم من صدام، وصواريخه، لازمه أبي ليمنع تدفق سخطه، وفي كل مرة يسارع أبي بوضع يده على فم الوردى كي لا تخرج كلماته المشككة في نوايا الدولة من الاستعانة بالأمريكيين، موصياً إياه بالصمت، وفي كل مرة يفعل أبي ذلك يفور عثمان الوردى كقنبر لم يحكم إغلافها، وينت أبي بنعته الشهير:

- أنت لا تحيد شيئاً في هذه الدنيا سوى الناكحة.

يقف الوردى على النقيض تماماً من يوسف الجنيني، وإذا التقيا تحوّل أبي إلى مفصل مهمته أن يبعدهما من الالتصاق ببعضهما ببعض.

الجنيني يرحب بالأمريكيين، ويتمنى لو أن بوش يضع علم أمريكا على العالم العربي، ظل لسنوات يبحث عن أي جنسية أوروبية، وعندما لاحت بوادر الحرب، وقدم الأمريكيون، كان يحضر مجلس أبي منشراً:

- غداً سيكون لنا شأن عندما تُمنح الجنسية الأمريكية!!

فيطفر الدم في شرايين عثمان الوردى لاعتناً الدنيا التي أنجبت فسيلة الجنيني.



سمعت أبي يحدث أمي عن صديقه عثمان الوردى:

- ستكون نهايته أسفل الأرض.

كان صوتها حارقاً، وهي ترد عليه:

- لا تماشيه فهذه النوعية من البشر تحرق من يهاورها!

الوردى، يوجب شوارع جدة كأغنية قديمة لا يعرف مذهبها إلا من أجاد الغناء، وغدا صوته نشازاً في كل مكان يذهب إليه، يعود لأبي عبطاً:

- فسدت اللذم يا صاحبي...

يقولها كلما سار في دروب مدينته التي روى شوارعها بقدميه، لا يمل من ترديد حدودها، وكيف انفجرت فجأة لتصل شطايها إلى الجبال.

وكلما جاءت سيرة جدة ضرب على فخذه متحسراً:

- مصيبتنا أن أهل الرياض أحبوا جدة، فغيروا لهجتها، وحجّبوا بحرها.

باهتزازاتها المترنحة تحلق الطائرة باتجاه شرم أبخر حيث تحاطفت البيوت الفخمة زرقة البحر وحاصرته بعيداً عن أعين الناس، غدا البحر ملكاً للأثرياء والصوص والسماصرة، ولم يعد البحر متنفساً، أو باباً يلج منه الصيادون حاملين مواويلهم وأمانهم في استجلاب رزق شحيح.

ها هي جدة تهرب نحو الجبال، كنت أتطلع إليها من عل أسترق النظر إلى فنتتها، وأجول بعيني عبر نافذتي الصغيرة بحثاً عن أيّد صغيرة تلوح من هناك.

## [١٥]

لم تستو الطائرة في ارتفاعها بعد، فما زالت تطعن الفضاء، وتخترق الطبقات الدنيا مشتة هواء ثقيلًا هبط على صدر المدينة فأرهمها، نهض راكب مبدئياً رغبته للوصول إلى دورة المياه، فجدبه أحد الملاحين من كم ثوبه، وأعادته لمقعده زاجراً:

- أيها المتخلف ليس الآن وقت نهوض!

خضع الراكب لجذب الملاح واقتعد مقعده، وبقيت عيناه ترجوان الملاح السماح له بزيارة دورة المياه، ويتراجع رجاؤه حيال تلك الملامح المكفهرة.

ما زالت الطائرة تنتز فتشعرك بأن كل ما فيها قابل للسقوط ليتباني رعب ماحق:

- كيف لو سقطت هذه الطائرة الآن؟

ما زلنا على مقربة من مطار جدة، سيكون منظرونا مغرباً بالمناعبة، سنكون مادة دسمة لحديث أهل مدينة جدة. . كما حدث لطائرة الجيش النيجيري التي تحول سقوطها إلى حكايات ظلت غارقة في أفواها لزمّن ليس بالقصير، فحين تبيأت الجيوش المشاركة في حرب تحرير الكويت للعودة، كان نصيب إحدى الطائرات النيجيرية الاحتراق بعد تحليقها بزمن قصير فحاولت الوصول إلى المطار بجناح واحد بعد أن أكلت النيران جزءاً كبيراً منها، وفي محاولتها تلك تساقطت أوصال جيش الجيش النيجيري كأرغفة محترقة، تساقطت: أقدام، أيّد، رؤوس، ضلوع، تناثرت بين أحياء جدة قبل أن تصل إلى المطار الجنوبي، يومها سقطت رجل جندي نيجيري على حيناً، وجددها الربيعي على سطح منزله بعد ثلاثة أيام من تلك الحادثة، وتحبّرنا جميعاً، هل نعيدها للسفارة النيجيرية أم

تتكفل بدفنها كما يحلو لنا؟ واستقر رأي الربيعي الذي وصف نفسه أنه الأحق بالتصرف بتلك القدم المتفحمة كونها سقطت على سطح منزله، استقر رأيه على دفنها بنفسه، فبالغ في غسلها، ولفها بأربطة شاش وأفنى لنفسه بوجوب الصلاة عليها وحين لم يوافق أحد على ذلك، أقام صلاة منفردة، وحلها بين ذراعيه، وسار نحو مقبرة الأسد، وعندما منعه حارس المقبرة لم يجد غضاضة من رميها في برميل زبالة، وعاد إلى منزله قريير العين!

ما زالت الطائرة هتت اهتزازاً قوياً، وما زال سؤال يوم في غيظتي:

- كيف لو سقطت هذه الطائرة الآن؟

لن تعرف أنني أحد ركاياها، ستعلن الجرائد نبأ سقوط الطائرة من غير اكتراث، وسأكون أحد الضحايا المجهولين الذين تتشابه أسماؤهم هنا وهناك، كم من شخص يحمل اسماً كاسمي في هذا الكون؟ ربما تعرف بمقتلي بعد سنة، أو سنتين، هل تراها ستبكي؟ وترتدي فستاناً أسود اللون كشارة لحزنها، وتعكف على تقليب رسائلنا القديمة، وتسترجع حكاياتنا مع الأغنيات، والمفردات التي كنا نردها، هل ستفعل كل هذا لو سمعت بمسقط هذه الطائرة المتهرئة؟

هل ستذكر وجهي، وتقليبها له حينما تسنح فرصة ما لأن أكون بجوارها في غرفتها الصغيرة، هل ستذكر تلك الشامة التي عشت بها كثيراً، وفي أوقات مختلفة؟

آه ما الذي يجملي على كل هذا التلف على امرأة تقف بيني وبينها عشر سنين عجاف، لم تزرع أرضها بسؤال، هي تعرف كل الطرق المؤدية إلي، تعرف كل شيء فلماذا لم تحاول إيصال ما انقطع، أتراها فعلت، حملت حمام البريد لهفتها، وشوقها، فتساقط الحمام في أجواء الحرب، اختنق في أجواء ملوثة بالكراهية، رف ورف وحينما اختنق هبط بجناحيه ليلفظ أنفاسه وحيداً، ويدفن رسائل عشق في صحراء هالكة، أو على قمة جبل متعال، أو استجاب لجرف موج بحر تعود على ابتلاع الحياة. هل فعلت ذلك؟

في السنة الأولى من رحيلها سمعت صوتها، وانقطع الهاتف، وظللت

ملازماً للبيت لمدة شهرين عليها تفعلها مرة أخرى، وكلما رن الهاتف ركضت فلا أجد لها.

هل صدئ قلبها بالسيان، فالقلوب تتحجر حين لا تجد دمهها، تتحول إلى قبضة تبحث عن وجه تلكم، أو تتشقق، تنصدع، وتنشق في خرابتها وحيدة. كل الذين عادوا - من اليمن - بعد الرحيل الجماعي سألتهم عن أبيها فلم أجد إجابة تطري قلبي، بعضهم يقول إنهم استوطنوا الحديدة، ويقول البعض: عادوا إلى زيد، ويقول آخرون: ذهبت للعاصمة. لا أحد يدل على طريق يؤدي إليها.

في سنوات لاحقة، وبينما كنت أجول مدن تهامة بحثاً عنها، قال أحد الذين سألهم عن أبيها:

- كثيرون ممن عادوا ماتوا، وربما من تسأل عنه لقي حتفه!!

الخاطر الوحيد الذي أعجزه كلما عبر غيظتي موتها.. تتشابك هواجسي لتصل إلى مرحلة الكفر حين أغيبها امرأة لا تموت.

آخر خيط تمسكت به، جاء على لسان عيسى شرف العائد إلى جدة بعد غياب دام ست سنوات، كان ضمن أولئك الذين انجرفوا مع سيلان المخططات الإعلامية، كرم أولاده في سيارة متهالكة، وغادر جدة من غير أن يودع جيرانه، أو ينتظر حقوقه الموزعة على زبائن متجره الصغير.

حين وقف على رأسي هالتي منظره: رجل خرج من محرقة بنصف استواء، نحل، شحوب، حت الصلع فروة رأسه، وكسر نابه، وانسخت أسنانه بفعل التقوت اليومي - كما أخبرني لاحقاً - بعد لحظات من تأملي لهيئته، وجدته في حضني يجيش بالبكاء، ربت على كتفه فيما كان يحاول كشفه دمعه:

- ما الذي فعله بك الزمن يا عيسى؟

- كما ترى.

- كان حالك جيداً هنا.

- نعم كان جيداً، قدمت من شهر لاستعادة وضعي السابق.



- أشك في ذلك يا عيسى!

- أرغب في مساعدتك.

- أبشر.

- أبحث عن كفيل لتحسين وضعي، وأطمع في أن تسدي لي خدمة.

- .....

- هل تكفني؟

اصطحبته تلك الليلة إلى مقهى الأبراج، ومضينا في حديث طويل، كنت راغباً في جذبه للحديث عنها (تربطه صلة قرابة بعيدة بأمها)، فاستعصى بأحاديث كنت أقطعها بالتأفف، طوح بي في معاناته التي وجدها تنتظره في قريته الصغيرة، كان يسرد تفاصيل صغيرة عن أعمامه، وإخوته الذين تنكروا لكل صنائعه التي قدمها لهم حين كان يمدهم بالمال، والهدايا في كل الأوقات، أقسم إنه عندما عاد لم يجد من يمد لأطفاله بكسرة خبز، تركوه في العراء يبحث في غيم الإيواء عن خيمة له ولأبنائه، عاش في ذلك المخيم لشهور من غير أن يقدر على تدبير عمل يقي أطفاله حتى داهمتهم على حين غرة، أو أن يسكت بطون الأصحاء منهم، تنهد بعمق:

- وطن الإنسان هو المكان الذي يمدّك بالرزق الشريف.

عاد للعن أقاربه مجتمعين، متشاكياً بأن أحد أبنائه يقترب من الموت برقة معلولة أنهاكها الالتهاب الرئوي ولم تعد قادرة على استجلاب الهواء، يقول إنه هرب من أبنائه المتواصل..

وكلما أمعن في الشكوى تبرمت منه، ومن أحاديثه الطويلة التي لا تنقطع.

تجاسرت وقطعت شكواه:

- ما هي أخبار موسى الفيل؟

شعر بالضيق، وومضت عيناه بوميض باهت (ربما كان يحبك امتعاضاً من استهتاري بعذاباته، والقفز عليها بالسؤال عن رجل يعرف تماماً أني لا أسأل عنه مباشرة) ظل صامتاً، أعدت عليه سؤالي، فدفع إجابته بتملعل:

- لا أعرف.

استدرك جوابه الجاف بافعال الاستذكار:

- تذكرت، التقيت بالجحش، وأخبرني بأن صلته وثيقة بهم.

- الجحش!!

- نعم الجحش، حصل على الجنسية اليمنية!

وصمت للحظات، وفتر فمه عن ابتسامة تكشف عن دهشته:

- تصور، الجحش لا يعاني من أي ضائقة مالية هناك، بل على العكس يتمتع ببعض الثراء فقد التقيت به في أحد المطاعم الشعبية في صنعاء، وأعطاني رقم هاتفه، لكنني - لا أخفيك - ارتبت من تصرفاته فقد كان يتصرف كقواد يحترف.

أطلق ضحكة جافة:

- يقول إنه أنشأ صندوق صداقة للمغتربين العائدين من السعودية! أليس هذا غريباً؟

وضرب فخذه متحسراً: هذا الهندي القذر أفضل منا في بلدنا!

- وما هي صلة الجحش بموسى الفيل؟

- أثناء جلوسنا تطرقنا للعائدين فذكره مع من ذكر، وقال إنه على صلة بأهله.

اتسعت حذقتاي:

- أي صلة، هل تزوج بوفاء؟

- لا أدري، هكذا قال، ومنحني رقمه، ووعدني أن يقف لمساعدتي، ولا ريتابي من تصرفاته لم أتصل به.

- أما زال الرقم معك؟

- أظن ذلك.

فتح محفظته، وبعد تقليب قصير أخرج ورقة مطوية، وناولني إياها:

- هذا هو رقمه.

تناولته منه، وأعدت كتابته مراراً كي لا أخطئ نقله.

تطلعت إلى عيون الركاب، عيون منطفئة، ومتوهجة، وخافية، بينما كانت  
أفكار سخيفة تتزاحم في مخيلتي: هل أسأل أحدهم عن أبيها؟  
امتدت يدي إلى جيبي الأسفل، وأخرجت تلك القصاصة التي دونت بها  
رقم الجحش مستذكراً ما قاله عيسى شرف:  
- عندما تصل صنعاء أطلب هذا الرقم، وستجد الجحش في طريقك،  
هو يعرف طريقها.

أحس أنه ابتذل نفسه فاستدرك:

- هو يعرف طريق موسى الفيل.

[١٦]

الجحش.

أذكره تماماً حارسنا الليلي الذي أمطرننا بالتهديدات مراراً.

ذلك الدابة الذي ظننت أنه عاد لبلاده، ها هو يلاقيني في آخر الطريق  
كعادته سابقاً، يقف كجوبة عليّ أن أدلف منها للملاقاتها.  
طرق خفيض على بابنا، ومع انفراج الباب لمحت أخاها الصغير يقف  
متصلياً بين فرجتي الباب المفتوح، هل جاء يحمل رسالة منها؟ فحين تسع  
رقعة الخصام بيننا لا نجد سوى براءة طفولته، ونحويله إلى ساعي بريد يلحم  
تباعدنا، خطف وجهي بنظرة سريعة، وتلجلج بكلمات مقتضبة:

- أبي يرغب في رؤيتك لأمر ضروري!

ارتبكت، وتدهت مني جملة قلقة:

- يريدني أنا؟

هز رأسه نافياً مشيراً باتجاه أبي، واختفى كما ظهر.

استكثفت أمني هذه الدعوة، وحرنت: إذا كان يريدك فلماذا لم يأت هو؟  
(ما الذي يحمله على استدعاء أبي في مثل هذا المساء؟ هل افتضح أمري ولم  
يشأ أن يعيدها جذعة؟).

تسرب الليل في شعاب المدى منذ خمس ساعات، أو تزيد قليلاً، مخترقاً  
وعورة ظلمة لم تمهد لها تلك الأنوار المبهوثة من أعمدة الإنارة المنتشرة على  
مسافات متباعدة، فتمكن الليل من الاختباء في جوف الشوارع الضيقة متخلياً  
عن بقع داكنة من أطرافه، لتغسلها الشوارع المتيرة كما تشتهي.



لم يكن من عادة أبيها البقاء مستيقظاً إلى مثل هذا الوقت، فغالباً يكون في هذه الساعة معلقاً شخيرته على حلم ذابل، وكلما ضمّر رواه بأمنيات تسكيها خيلته في كل حين.

ذات ليلة روت لي وفاء جزءاً من حلمه، وضحكت حتى خشيت أن تنبه ضحكها جزءاً من الليل فيستيقظ أهلها، وأنا أجلس بين عينها.

أحلامه تبدأ من رؤيته لابنتيه وهما تجران فستاني عرسهما على أحد أمراء البلد، وحين تحقره زوجته بيلوغ حلمه عنان السماء يتراجع بسرعة مذهلة لرتبة أثرياء البلد، وأعيانها، وفي كل يوم يقيم حفل عرس تتغير مصاهرته وفق ما يتناقله الناس من أخبار عن وجهاء البلد، وفي كل ليلة ينتضب اثنين منهم (الأغنى فالأغنى) كعريسين لابنتيه.

متعجب هو بأحلام البقطة، يثرثر بها على مسامع أسرته من غير حياء، قال لهما ذات يوم:

- استجدان رجلين يفاخران بهذا الجمال!

ومع انقراط أحلامه يتحسر عميقاً:

لو أن لي أموالاً فلن أصاهر إلا أمراء هذه البلاد!

يقفز كاللدوغ صوب سحارة عتيقة، ويخرج منها أوراقاً مصفرة يبشرها:

- لتأتي واحدة منكما، وتقرأ هذه الحجاج.

يقبل أوراقاً مصفرة بين يديه:

- هذه ما تبقى من حجج أراضي الأجداد لقد أحرقتها أعمامكم في رهنيات لا تعود، وكلما سددت رهنية أرض استعادت حجتها.

وفلت تنهدات حارة:

- لقد فرطوا بأكثر منها في حالة ضعفهم.

عندما روت لي وفاء أحلام أبيها، استغربت من مقولته التي يكررها:

الناس كلها تتأمر علينا لكننا سنجد وسيلة نحملنا لأن نكون بغية المتزلفين. أبدت وفاء حزناً عليه، وهي تسرد بعضاً من تصرفاته التي يمارسها في

أوقات كثيرة، تمتت لو أنها تستطيع تهدئة أحزانه، وخشيت أن يكون دخل إلى مجاهل الأمراض النفسية بتلك الأفعال، وعندما حاولت تخفيف الأمر، روت أن أفعاله تتطور نحو الأسوأ:

ليلاً يبسط أحلامه، يتخيل أنه عاد بمال وفير، ودخل قريته منتشياً، وفرق الهدايا، ونشر الأموال على الرؤوس، واسترجع مزارع أجداده التي تقاسمها الأقارب، والجيران، والمرابون في قروض لا تنتهي، باع أبوه حقليين ثمناً لتجهيز سفره عله يعود، ويمد من فرحته برويته يقف على مشارف القرية حاملاً المال والهدايا، وكل يوم يعضي يسحب للقاء، غرق في الغربة، ونسي أن يشعل فرحة أبيه بالعودة، والمال الوفير.

غادر تلك القرية منذ طفولة مبكرة، ونسيها هناك، نسيها في طفولته بين ذكريات باهتة، ووجوه غائبة التضاريس، وحينما أفاق، وجد أنه يقف في الخمس من عمره، وقتان تلاحقان شعره المبيض بفتنة ما زال يتخير لمن يهبها من أصحاب تلك الطليات المتواضعة.

كنت أظنه جاء للصح، ونسي نفسه داخل الأعمال التي امتنها على مر السنوات الطويلة التي قضاها بين جدة، والطائف، ومكة.

كنت أظن ذلك، سمعت أبي ذات ليلة ينهش في لحمه بتأفف:

- رجل كالضبع يتبول واقفاً، ولم أره محرماً قط.

فما الذي دعاه لاستدعاء أبي في مثل هذا الوقت؟

انشغلت أمني بتجهيز أبي قبل الخروج، فلم تألف منذ أن التقت به أن تتركه يغادر باب المنزل من غير أن تطمئن على قيافته، وكلما أظهر انزعاجاً من اهتمامها البالغ فيه التصقت بكفته - مبدية أسناناً شذ أحدها بتلبيسة ذهب تفاجر بأنها أول هدية تلقتها من أبي - مدابة:

- من لها مثلك عليها أن تحمله كلما عرض على عين!!

هذه الجملة استبدلتها في ما بعد حينما سخرت منها جدتي:

- أتريه إبريقاً أكله الصدا!

انشغلت بكبي غترته البيضاء التي ألّف وضعها على رأسه من غير عقل،

تاركا طرفيها يتدليان على كتفيه العريضتين، ولا يجهد نفسه بالبحث لهما عن انحناءات تقلل من انسكابهما على وجهه المشرب بالحمرة.

خروج أبي في مثل هذا الوقت سيعيق محاولتي لمعرفة سبب استدعائه.  
في الأيام الأخيرة كانت عيناها مسهدتين، وطفحت ملاحظها الصغيرة بضجر لم تشأ إدخال في سراديبه المغلقة.

إنها المرة الأولى التي تتخلل فيها عن حرصها، وتدسني داخل البيت، وترغمي بين أحضاني، انشغلت عن بكائها، ونشيجهما المكتوم بتحس صدرها، واحتوائها بين أحضاني، لعقت دموعها، مالحة هي الدموع، مالحة في الفرح والحزن!

هل استشعر أبوها تلك اللهفة، وتلك القبل التي انداحت بين مفاتن ابنته؟  
هل وقف على قبلاي التسريلة من جذع رقبته الطويل إلى سفوح نهديا العصين؟

دفعني يديها وهي مغمضة العينين، وكلماتها تنقطر لوعة:

- يكفي.. يكفي.

ارتعش نهديا كصفورين خنقهما طقس قارس فأخذنا يبحثان عن الدفء بين أغصان بلا أوراق، وكلما توغلا، واستشعرا بخطر ابتعادهما بين تلك الأغصان، رف جناحهما باضطراب جارح.

دفعني بأخر قواها:

- لا تكسر إناء الحب الذي بيننا.

ماء حميم أعاد ضياعي من بين غيوم نهديا، فاعتذرت، وقبلت رأسها، واستدبرتها هاماً بالخروج فجذبني وتعلقت برقبتي:

- أحبك، لا تنس هذا أبداً.

قُبلت مفروق رأسها، كان شعرها كثيفاً يفوح برائحة عميقة هادئة، وضعت وجهها بين راحتي:

- وأنا أموت فيك.. أنت كل الحياة.

خرجت من ذلك الباب، وأريجها يعصف في كياني ويسترخي كأغنية سقطت من حنجرة مطرب في لحظة نشوة جودها كما لم يفعل طوال حياته.

مع خروجي كان الجحش ينتظرني بالقرب من الباب، كان متكلساً في جلسة أشبه بحجر ضخم ألقتة الدنيا من الأزل، ليتعثر به السابلة، وعابرو السبيل، صفق يديه:

- الله يعطينا الحظ!

منذ أن كان يراقبنا من بُعد غدوت ضचितه الليلية حيث أنقده مبلغاً مالياً كي يخفي كجرذ اصطاد حشرة غبية، ومضى إلى مخبئه هارداً ذيله بفرحة تتسع لالتهم تلك الحشرة دفعة واحدة.

تطلع الجحش إلى يده مستكراً:

- هذه المرة لم تكثف بالنافذة بل دسست جسدك خلف الباب، وسعر سكوتي في هذه الحالة مضاعف!

- لا أحل تقوداً، غداً سأكمل لك ما تريد.

تحرك كدابة تعرف المسالك التي تطرقها، وهي منكسة رأسها باستسلام.  
هل فعلها الجحش وأخبر أباهما بانسكابي على نحر ابنته؟ وإذا لم يفعل ذلك فما الذي يحمل أباهما على استدعاء أبي في مثل هذا الوقت؟



وانتظار النزر اليسير من الأخبار الدائرة على أرض الكويت، وعلى حدودنا الشمالية.

كنا حيسي منازلنا نجلس أمام التلفاز مترقين فجعية ما، تأتي من العراق، كانت خشيتنا من انطلاق الصواريخ العراقية بلغ حداً يجعلنا نستجيب بالصراخ، والعيول لأي طرقة في الخارج.

حرص التلفاز - على غير عادة - مدنا بالتعليمات الواجب اتباعها في حالة سقوط صاروخ عراقي.

في تلك الأيام نشأت عادة التفاف البعض على البعض، يتجمع الأقارب والجيران في مكان واحد لمواجهة الخطر المحتمل، وفضل الغالبية فكرة الموت الجماعي، ففي المساء تتجمع الأسر في مكان تكون منافذه محكمة الإغلاق... حالة الحرب تترك ثقباً مفتوحاً في الصدر لاستقبال أي مباغته، والحلفاء يثرثرون كثيراً: صدام سيحرق المنطقة، سيجعل نطفها وبلاً عليها، وستحول تلك الثروة إلى ديناميت ينفجر ملتهمها الدنيا بأسرها... هذه الوديعه من الخوف مكنتنا من الارتجاج بسهولة، وانسكبنا على بعضنا كأوانٍ تشمّت قبل الألوان.

اهتزت الملكة عن بكرة أبيها. اهتزت اهتزازاً عنيفاً!

حدث هذا حينما ظهر سليمان العيسى على شاشة التلفاز مرتبكاً، وعيناه الجاحظتان مغروستان في وجوهنا، وهو يتلو التعليمات، وفجأة تلعثم، وتحشرجت الكلمات بين فكيه (ربما كان يبكي)، توقف عن بث الكلمات، واعتلت وتيرة صوته:

- انطلق صاروخ.....

حاول التخلص من تلعثمه فسفك رعيه على مسامع كل البلد:

- ... الخطر يهدد كل مناطق المملكة على الجميع اتخاذ الحيطة، والحذر!!

أظن أن الملكة بكل مدنها وقرها، سهولها وجبالها، ارتبكت حينها، فلم يحدث في تاريخنا أن نهتز جميعاً (وفي اللحظة نفسها) تلك الاهتزازة العنيفة، أن نهتز جميعاً بسبب جملة يلقيها أي شخص كان، سليمان العيسى هو الوحيد الذي نال هذا الشرف! فقد كانت صرخته كفيلة بجعلنا نترامى بين جرفي

[١٧]

بدأت حرب تحرير الكويت.

تعكرت مواعيد لقاءنا، كنا نجلس داخل البيت، ووالدتي تجوس باحثة عن طمأنينة تركز إليها، وتثبت يقينها من أن كل الثقوب التي يمكن لهواء عابر النفاذ منها قد سدّت، وغدت كجروح غائرة لا تنتح عرقاً، فهاجس الغازات السامة التي وعد صدام بإطلاقها تغلغل في النفوس، ولم يترك لها لحظة اطمئنان، وزيادة في الحرص، وضعت أمامنا مناشف مبللة بالماء، ووفق التعليمات التي تلقيناها من مراكز التطوع كان علينا أن نضعها على أنوفنا في حال شن غارة جوية أو سقوط صاروخ داخل المدينة.

وعلى غير عادة امتلأ قم أمي بالشغاف حين سمعت أن توفيق عبدالله جلب خوذات واقية من الغازات السامة، ولم تنفع توسلاتي لأبني لاقتناء خوذات تقينا تلك الأبخرة، كانت شغافها مواربة نصفها لتوفيق، والنصف الآخر كتمته في صدرها بغيظ أخرجت بعضه على مسامح أبي في غرفتها الخاصة، فسمعت أبي ينهزها:

- كنت أخاف على عثمان الورد، وأنت الآن تجعليني أخوف عليك.

وتسللت ضحكته عبر الممر المؤدي للمطبخ:

- تعرفين أنها فرصة سانحة لأن أتخلص منك، وأبني بامرأة أخرى.

أظنها قامت بنفس حركاتها حين تغضب منه، تضرب كتفه، وتقطب بحاجبيها:

- لا هم لك إلا البحث عن امرأة أخرى.

تدّد الوقت، ولم يكن أمامنا من فعل نؤديه سوى التطلع إلى جهاز التلفاز،

الحياة والموت، انتظاراً للحظة القصف، وحل دماننا، وأشلأ بعضنا، مع جلته المرتبكة، وغير المسؤولة حدث ارتباك مزري! انطلقت صفارات الإنذار نافخة أبواقها لتعجل بتسارع نبضات القلوب الهلعة من موت فجائي، خطف كل واحد منا منشقة مبللة ووضعها على أنفه، وبقيت العيون جاحظة، وكأن موتاً مباحثاً جرى في الأوردة، وسارع أبي بإغلاق الأنوار، لتحل الظلمة، والفرع، وارتفع صراخ إخوتي الصغار ليجدوا حضن أمي يتسع لاحتوائهم بين ضلوعها، وهي تردد أدمية، وتلمس رؤوسهم ربما كانت تكفكف دمعها، وتبحث عن شيء تعتصم به غير الدعاء.

- لا أريد أن أموت هنا.

تقنعت بمنشفتي، وتسلفت إلى خارج البيت.

تسللت من البيت مستغلاً تلك الظلمة التي حلت بالكون، وخرجت.

هبط ليل خرب، وأرسل جنوده لفتش عن نفس مطمئنة لتذيقها العذاب، شارع مقفر، وعتمة بسطت أطرافها في الطرقات، وعويل ينبثق من تلك المنازل المنكبة على بعضها، وصفارات إنذار تزار كسباغ هم يتمزيق للمدى لتتنقض على المكان بضراوة الوحوش الجائعة، ثمة أقدام تتراكم باحثة عن مأوى يقيها ما يمكن أن يسقط من السماء، فيقصف روحاً تواقه للحياة.

عويل ينبثق من كل جهة، ويختلط مع ظلمة طارئة تحيل الدنيا إلى مشهد سينمائي مرعب، وقفت بجوار بيتها، أشعلت عود ثقاب لأقرب من نافذتها مباشرة (كنت أمني نفسي أن أجدها تنتظري لنموت معاً، كنت أمني نفسي بذلك - لمحت لصقاً يغطي أطراف نافذتها بإحكام. لا شيء يسكن في هذه اللحظة سوى الظلام، والعويل، طرقت النافذة عجلاً، وانتظرت.

- لم تكن نقراتي كفيلاً بجعلها تنسى رعب الموت، وتبلي دعوتي.

صوت سليمان العيسى ما زال يرن في قحف جمجمتي، وصفارات الإنذار تتعالى مغلخلة طمأنينة مستفزة، فأعاود نقر نافذتها، وأقبع أسفل منها منتظراً أن تطل عليّ بوجهها الضاحك.

مضى الوقت بطيئاً، ولا أحد يجيب، والشوارع مقفرة من تلك العيون

التي كانت تصنع من أحداقها شركاً لعاشق ارتدى ظلمة الليل، وخرج ليأس بكلمة، أو كلمتين من ذلك الفم الذي لا يمل من السخريّة.

أي جنون أحق نرتكبه حين نكون عاشقين، كنت قابلاً في ذلك الشارع الضيق، وسؤال يعكر مخيلتي:

- هل من الممكن أن تصل صواريخ صدام إلى مدينة جدة؟

لا جدوى من مكوثي فقد يشت من استجابتها لنقراتي المتتالية، فاعتراضي رعب طفيف حين تخيلت صاروخاً ينفجر في هذا الزقاق الضيق ويتناثر لحمي على جدران بيتها، راعني الهلع الذي نبت على وجه أمي، وهي تجمع أشلائي الممزقة بعويل يقطع نياط القلب، كنت أرى الصاروخ يسقط، ويختار رأسي مستقراً له، يغرسني في قاع الأرض، أرعبي التبايعا، فعدت لكي أموت بين ذراعها.

أدركت مفتاح الباب ودلفت، يبدو أن سليمان العيسى استعاد رباطة جأشه مردداً جملة رمت خوف المصنّين له:

- زال الخطر.

يبدو أن أمي كانت تلمس رؤوس أطفالها الصغار، وتخطب أبي:

- سمعت الباب يفتح.

قفز أبي حاملاً رشاشه ومتهيئاً لإطلاق رصاصاته في أي جهة كانت، تحركت أمي لإضاءة أنوار البيت، وحين رأيته مقبلاً رفعت صوتها صارخة:

- هل جنت لتخرج في مثل هذه الحالة؟

وعندما وجدته راعني في حضنها حقرتني لرعونة تصرفاتي، وحدجت أبي بنظرتها التي تطلقها في حالة العدائية: هذا هو الذي تفاخر بأنه من صلبك.

أرخص رشاشه ضاحكاً:

- لأنه من صلبني خرج في مثل هذا الوقت.

ارتجيت بجوار إخوتي سائلاً:

هل يعقل أن تصل صواريخ صدام إلى مدينة جدة؟



ارتفع صوت أحد الركاب منتشياً بغناء يذكر الطيور المهاجرة بالإياب، فتبهجت النفوس، وشاركه البعض ذاك الغناء الشجي، كنت أراقبهم مبسماً، وعاصفة من الحنين تحت أعماقي، فرفعت صوتي مغنياً معهم:

ارجع لحوالك كم دعاك تسقي

ورد الربيع من له سواك يجني

قبل رحيله بأيام، كان موسى الفيل يدندن بمقاطع هذه الأغنية، سمعته مراراً، يترنم بها، وفي كل مرة، ينضج صوته بأسى حارق، استرقت لندندته، وأنا قابع خلف النافذة الشمالية التي أطرقتها ليلياً طرقات خفيفاً لأرى وجهها، ينسكب عليّ بضحكة مرتبكة:

- ألا تتخل عن جنونك؟

ولم تعد تكثر بثريد تلك الجملة كلما جئتها.

في تلك الظلمة الشاحبة، تمخر سفينة أحلامنا، وتشرق على منزل يطل على أمواج البحر المتكاسلة، المنزل يتسع لشغب أطفالنا العشرة، وثمة تحت يقف في منتصف البحر مهياً للإبحار في بحور الدنيا السبعة، ليلياً نواصل حلمنا بحلم، وقبل أن تنبهنا أقدام المصلين المتقاطرين للمسجد، تكون قد اختفت من خلف نافذتها، وعادت قدمي تسلكان ذلك الشارع المتعرج، وثمة ترنيم تهيج أعماقي برقصه هائمة في مكان ما من هذه الحياة اللذيلة.

كل شيء يأتي من الفراغ، ويذهب إلى الفراغ، الفراغ مثل الماء دائماً يجيد شقاً ينفذ منه، ليس هناك نهاية لأي شيء! كلنا خالدون، كلنا ميتون، خالدون في فراغ، وميتون في فراغ آخر، نحن كنغمة موسيقية منطلقة في الفراغ،

وعندما تعتقلها عبقرية فنان فإن حضورها هو تقنين لحضور سابق، هذا ما آمنت به مؤخراً.

كان عليّ أن أؤمن بهذا من وقت مبكر، منذ تلك المراهقة التي استمرت من غير انقطاع، ربما لو أفتنا في زمننا سنشعر بكآبة الحياة، فالحياة جميلة بحماقاتنا!!

لم أكن مواظباً على الذهاب للجامعة، أغرق في بحر النوم إلى الظهيرة، وأجفل من صوت أمي الذي يصير على مقربة من أذني:

- انهض.. لقد مضى كل النهار، وأنت لا تزال تغط في نومك.

تترثي عليها تلمح جذعي يستقيم في مخدعه، فلا تلمح إلا استرخاء مفاصلي كقط عثر على فيء في قبولة قانطة، تجذب الغطاء مزجرة:

- إلى متى ستظل على هذا الحال، سهر بالليل ونوم بالنهار؟

حجمعة صوتها تخرجني من نومي الثقيل، فأفتحك بأعذارها عليها تتركني أغرق في نومي كما اشتهي:

- لقد أخبرتك مراراً أنني أصبحت طالب جامعة، وكل محاضراتي رحتها للمساء.

تتمادى في غيظها، فتقترب مني، وتغطيني مرة أخرى: الأفضل أن تعفن، وأنت هكذا!!

وتغلق الباب بعنف: لن يكون حالك أفضل من بقية إخوتك.

ليلياً أنتظر موعدي معها، فيعد أن تزحف عقارب الساعة متجاوزة الثانية صباحاً حتى أدب في ذلك الزقاق الملتوي، منتظراً أن تطل عليّ من نافذتها، وكلما جئتها اشتكت من صعوبة النهوض صباحاً للذهاب إلى مدرستها، فيعتلي وجهي تيرم طافح، وأهم بمغادرة مكاني، فتطلق عساويف وجهها:

- لا تغضب فقد عدلت نومي، ليكون بعد عودتي من المدرسة، مع هذا

أظن أنني سأعيد التوجيهي، في النهار نوم، وفي الليل أنتظر موعدي.

تسحب إلى خلف نافذتها كلما نبهتها صفقة الجحش بدنو قدم عابرة لزقاقنا الضيق، وأقفر كهر مدرّب للاختباء خلف برميل النفايات، حتى إذا غابت

تلك الخطوات بعيداً، أجدها رفعت هامتها، لتلطل عليّ من خلف النافذة  
ضاحكة:

- لقد رحلت كل القطط من شارعنا، وغدوت أنت القط الوحيد الذي  
يخفي خلف هذا البرميل.

تبه الخيران لموعدنا الليلي، وتفتن الشباب في رصد لقاءاتنا، ولكي أهرب  
من هذا التريص تأخر موعد لقائنا للساعة الثانية صباحاً (بوصية من الجحش)،  
هذا التوقيت المتأخر، قلل عدد العيون المتربصة بنا لكنه لم يغمض عينا  
الجحش، كان يشعرني أن الشارع مقفر منه، حتى إذا طرقت نافذتها وقف في  
آخر الشارع متربصاً بي كبومة لم تحفل عيناها الواسعتان إلا بمشهد واحد،  
شجعني على إهماله، هذا الإهمال جعله يمعن في عناده، ولا يكتفي بالوقوف  
في آخر الشارع معكراً لقاءنا، كان يعبرنا ذهاباً وإياباً، قاذفاً كلمات من  
التحقير والازدراء، في ما بعد تمكنت من استمالته بمقاسمته مكافأتي الجامعية  
ليتحول إلى حارس، يحرس لقاءنا الليلي بطيب خاطر.

جئت متسللاً كعادتي، رضت أسفل نافذتها، خرج صوت أبيها ناهراً  
إياها:

- توجهي لفراشك...

أطلق أمة عميقة ورتيبة كأنه جل أناخ بجسد مثقل بأحماله بينما كانت  
زوجته تبوّن عليه بكلمات تصلني متقطعة.

في تلك الليلة كان صوت أبيها حارقاً، وهو يندندن بمقاطع تلك الأغنية  
الشجية، وعندما لم يطرب لصوته رفع صوت مسجله ليصدق أيوب طارش  
متحملاً مهمة تحريك مجادف الغربة في عتمة ذلك الزقاق الضيق.

[١٩]

اللوعة اليمنية، الغربة الموحشة، وصوت أيوب طارش مذبوح، ينزف  
حرقة الموانئ البعيدة، وينادي:

وأنت على الغربة تعيش هائم

سعيد وغيرك مبتلى بالأحزان

مشاش مكتوبك ولا الصدارة

قصدي تعود حتى ولو زيارة

هذه الفخاخ التي تغزل شراكها من شجن قديم توقعنا في خيوط الحرير،  
أجزم أن كاتب هذه الأغنية رجل يمضي أضواء الترحال، وتعفت ذاكته في  
المدن المعلقة، ومل السفر من وجهه، وترك له قلباً فتحت كمداً، فقرضته رياح  
الصحارى، ورطوبة الموانئ.

ماء الغربة ينحدر في أعماق اليمنيين منذ انفجار السد، فحين جرى الماء  
صنع أخاديد من الحين في قلوب اليمنيين، ونقش عذاب الخطوات البعيدة.

استغرب الركاب انسجامي مع تلك الأغنية، فقد كف الجميع عن الغناء  
إلا أنا، فقد واصلت غنائي، حتى غدا صوتي نشازاً، ولم أكن أبه بتحديق  
عيونهم، وربما سخرياتهم.

في موعدنا يكون ذروها كعصافير تنتظر الصباح، لتشتقش من أوكارها،  
في تلك الليلة، وقبل أن أطرق نافذتها، سمعت أباه يندندن ملثعاً:

ارجع لحولك كم دماك تسقي

ورد الربيع من له سواك يجني



كمت في مكاني، بينما كان الجحش يجلس في نهاية الشارع ملوحاً بيده  
مطمئناً يخلو الشارع من المارة، في البدء جاء صوت أمها المخنف الذي أعرفه  
جيداً حين تنده عليها في الليالي الماضية:

- ما الذي يبيقك في هذه الغرفة كل هذا الوقت؟ هيا تمهيني للنوم، ففي  
كل صباح تنهضين جثة لا تقوى على الحراك.

فتهبط من مكانها متصنعة ترديد أي درس من دروسها، ويعدها تليبي  
استفسارها:

- أفضل أن أبقى هنا للاستذكار.

بتلك الخنفة - نفسها - قاطعت غناء أيوب طارش لمواساة زوجها فاختلطت  
صوتاهما في أذني:

- هون عليك، فالأمر لا يستوجب كل هذا الضيق.

- بعد أربعين عاماً أكتشف أني غريب، تصوري بعد كل هذا العمر عليّ  
أن أجمع كل تلك الأيام، وأعود إلى وطن لا أعرفه إلا من خلال الذكريات،  
أو رسائل الأهل، وزياراتهم.

- وما الذي يملكك على الرحيل؟

- لقد تغيرت الدنيا.

- سحابة وتعب.

- هذه المرة ليست سحابة، أتريدني في آخر عمري أن أبحث عن  
كيف؟ بعد أن كنت أسير مرفوع الهامة تريدني أن أتخضع للسعوديين لكي  
يكفلوني!!

- أناس أكثر فعلاً ذلك.

- ألم تسمعي ماذا قال الرئيس علي عبدالله صالح؟

- ماذا قال؟

- من يبقى في السعودية فهو عميل، وعلى الأحرار أن يعودوا إلى  
بلادهم.

- ماذا يعني عميل؟

- يعني ضد بلده، وضد صدام.

- الله يلعن صدام، هو السبب في كل ما نحن فيه.

ارتفع صوته عالياً:

- لو سمعتك مرة أخرى تشتمين صدام تحرمين علي!!

وسكن بينهما صمت ثقيل، وبقي أيوب طارش يكمل مهمة التجديف في  
مياه الغربة:

وأنت على الغربة تعيش هائم

سعيد وغيرك ميتل بالأحزان

.....

عيني على عمري .. عمري جرى سنينه

أما الفؤاد قد زاد به حنيه

رف القلب بحرقه مضاعفة .. هل ترحل؟

عدت إلى بيتنا لعنا صدام في كل كتاب بينما كان رفيف القلب يضطرب  
جزعاً، ويذوي، يذوي كطائر عليه أن يخفق بجناحيه وحيداً في كل هذا  
الفضاء.

- لو أننا في مكان آخر سيكون الوقت أكثر اتساعاً ومتعة.

بيت واسع كجحر فار، نعود إليه في كل حين، ولا شيء يحدث.. الكلام مكرّر، والحكايات معادة، والأمانى ترحل كل يوم لمستودع المستقبل، وأطفال يقبعون في منازلهم كالمساجين، يمسكون بحديد النوافذ، ويمجّرون: نريد أن نخرج!

تغدو رؤوسهم المطلة للشارع كثمرات نيتة، تنتظر موسم الاستواء، لتتخلص من تعلقها كل هذا الزمن، تلك الرؤوس الصغيرة المطلة للشوارع المقفرة، والبلبكونات المغلقة، والحياة الميتة، تغريك لأن تشقق صوتك في الفراغ: يا أولاد الكلب، ماذا يقول عنا الجيران؟

أصغروهم حفظ هذه الشتيمة عن ظهر قلب (يطلقها للجمع والمفرد من غير تمييز)، وأضاف لها كلمة واحدة فكلما أرقه أحد إخوته صاح به: يا أولاد الكلب!

وإذا هبوا به اعتذر سريعاً: أولاد كلب عجوز!

هذه الإضافة جعلتنا نستلقي ضاحكين، فأصبح يتفنن في إضافة أي كلمة أخرى بجوار (يا أولاد الكلب) ليستجلب ضحكائنا، يبحث دائماً عن نعت يجاور لفظة الكلب، أبدت أمه امتعاضاً من هذا التسيب الذي أبدية معهم، وزعجرت كنمرة:

- أنت تهميهم لأن يكونوا شتامين، عليك أن تبدي الحزم، وإلا لن تستطيع تقديم جيل صالح!

شعرت أنها تصمني وصماً يقلل من مهابتي أمام أطفالي، فقفزت ممسكاً بأذنه، وصائحاً:

- أنت قليل الأدب... سيقولون لم أعرف كيف أرييك!

تعلق بيدي صائحاً: أتوب يا أولاد الكلب.. والله أتوب...!!

تركت أذنه، وأنا أغالب ضحكة جارفة كي لا يسقط عبوسي من ملاحي المتفرجة.

أطفالنا سجناء الشق لا يعرفون إلا ما يبثه هذا الفضاء، وغدا الكلب

نسي الملاحون أصوات الشبان الثلاثة، وتسامحوا مع غنائنا وكأننا نحتفل بمغادرة كابوس علق في وسادتنا.. وإمعاناً في إغاطة وإهمال ملاحظات أولئك الشبان تزينت المضيئة بأنوثة مضاعفة!!

انحت من موقعها صوب نافذة تطل للفضاء الخارجي وتتبع بخيالها أولئك الشبان الذين مضوا للغرف المخلقة وتشق غامض جرى بين عينيها بهدوء.

جنحت الطائرة محلفة بموازة مدينة الحجاج ليلمحها الركاب مقببة كمدينة القسطنطين، وتغدو جدة مدينة بعيدة تركت بها جزءاً منك... تلمحها تصغر، وتصغر، وهناك في نقطة ضئيلة تلوح لك أباد صغيرة بمواء يقترب من الرجاء:

- بابا لا تتأخر.

أين هم الآن؟ هل ينبحون من غرفتهم الضيقة: اشتقنا لك يا أبي، هل يرددونها الآن؟

هذه الأوتاد هي التي تربطنا وتجزئنا إليها، كالطائرات الورقية كلما ابتعدنا جذبتنا تلك الأيدي الصغيرة بخيط رفيع، تجذبنا من أماكننا الشاهقة لنذعن لحذبتها ونأتيها من آخر سماواتنا، ونتراقص أمامها، ونسقط منتظرين أن ترفعنا أياديهم من على الأرض، تلك الأيدي الصغيرة قادرة على جعل التحليق بعيداً عنها عذاباً آخر.

يضيق صدرك، وتغدو كل التصرفات قريبة من العتة، تجاورك زوجتك في المساء تملط حولك، وتغد ذراعها لتحريك محاولة غزل حلم صغير، تنفر كلماتها بصوت متضجر:



أنموذجاً، يكبر في خيلتهم، والخنزير أنموذجاً، وكل أنواع الطيور القميصة نماذج مباركة، لا يوجد لديهم نموذج ينير أعماقهم المعتمة.. غدا الفضاء يقذفنا بغردوات الكون عبر تلك القنوات العاجزة عن خلق نموذج لأطفالنا.

دفع صديقي طارق باب المكتب، وجلس في مواجهتي فاتحاً عينيه على اتساعهما، ومحاولاً تهريب فجيعته، وصدمة من خلالهما، وعندما لم أكثر ثربلاً المعركة ضرب كفاً بكف:

- نحن في آخر الزمان!

وردد استغفاره مراراً، كان ينتظر أن أتسق مع حالته، وأسأله:

- خير..

- من أين يأتي الخير، وأبناؤنا ينحرفون أمام عيوننا؟

- صلّ على النبي...

- تصور ما هي أمنية ابنتي؟

- .....

- أن تصبح راقصة مشهورة.

- راقصة!!

- نعم راقصة.. طفلة من مواليد مكة، ومن نسل مبارك أمنيتهما أن

تتعري أمام الجميع.. بالله تصور.

- .....

- كدت أجن، علمت من أمها أنها كانت تشاهد الراقصة ديناً، والتي

قدمتها للذبيعة أنها مفخرة عربية.. ديناً مفخرة عربية، تصور مفخرة عربية دفعة واحدة!

صمت للحظات، وصاح:

- ماذا أفعل؟

قفز كلاي في خيلتي، هؤلاء الكلاب يواجهونني بكلمات شاذة، ولا يخضون طرفهم حيال أي ممارسة أقوم بها، هذه الفئران ماذا تحيك في صدورهما؟ لم يعد هناك أنموذج، الكل تلوث، وفسد، فهل فعلاً سأضيف ذرية

غير صالحة في مجتمع يتحلل داخل شقق مغلقة؟ يمارس كل أنواع الرذيلة، حتى إذا خرج حل مع أقنعة يتزين بها في كل حالة، رائحة التفسخ تشم من سلوكياتنا!

أخشى من كلبى الصغير فله فللتات قاتلة... يترص بي، ولا يتورع عن انهامي بكل نقيصة كلما رأى سلوكاً يتناقض مع توجيهاتي لإخوته، يجلس مصوباً كلبانه، كقناص محترف مهمته اغتيال توجيهاتي، وقبرها أسفل قدمه الصغيرة.

أرغمت نفسي على الجلوس معهم لمشاهدة أحد أفلامهم الأثيرة (مائة مرقش ومرقش) هذه المائة، والواحد كلهم كلاب، وكلما ظهر أحدهم على الشاشة تخاضعوا في أي من أفراد العائلة يحظى بشرف أن يكون ذاك الكلب.

أبي حظي بلقب: الكلب الأصغر لأكلي، وعمهم الأصغر بلقب شقيعه، وعمهم الأكبر بلقب دبسة حتى أمي لم ينسوها فقد اختاروا لها اسم كلية ودبسة دورها التملح بالأرائك، وإظهار سعادة مفرطة، كنت أسمع أسماء تلصق بكل أفراد أسرتي من غير أن أستبين وجه الشبه، وبعد أن الصقونا جميعاً بأسماء تلك الكلاب، ندهت حشرات متضخمة من ابني الأصغر:

- أه يا خسارة!!

تبادر لذهنى ندمه على إنزالنا منزلة الكلاب، وقبل أن أطمئن لهذا الخاطر، كان يسكب حسرته:

- أسرتنا الصغيرة لا يمكن أن تصل إلى هذا العدد!!

وبعجلة، واصل حديثه معي: أبي ألا يوجد لدينا أقارب يصل عددهم إلى المائة والواحد؟

قال الأوسط: لو كان عدد أسرتنا كذلك سنكون عائلة محترمة مثل هذه الكلاب!

ورجاني أن أحصي عدد أفراد أسرتي شرطه الوحيد أن أصل في عدي إلى مائة وواحد وأن أجمعهم في وليمة ليتسنى لهم تسمية كل واحد منهم بما يوافق هواهم!

تصنع الألم متلوياً:

- أنت بنقر..

كان عليّ أن أجلس طويلاً أمام التلفاز لمتابعة كيف وُلِدَ اسمي الثاني.

\*\*\*

بنقر كلب لطيف يجالس صديقه راجي مؤلف الموسيقى الموهوب، والمفتونة به كلبات الحي، يجالسه بنقر لاختيار شريكة حياته من خلال تلك المعجبات اللاتي يعبرن راجي ليمطين بوده، ووجد بنقر في مجالسة راجي فرصة لمشاهدة الكلبات الجميلات العابرات عله يجد واحدة منهن تعجبه، ومع ظهور بهيرة قفز بنقر نباحاً بoudace: هذه هي.

وتزوج بنقر بهيرة فولدت له خمسة عشر كلباً ذوي جلود مرقشة جميلة وكلما كبروا تحيل جمال جلودهم وروعها، هذه الروعة أغرت رولا درفيل لشراء تلك الكلاب بنية سلخ جلودها ودباغتها وصناعة الحقائق والأحزمة الفخمة، وتقدمت رولا درفيل بعرضها لأنيسة صاحبة هذه الكلاب التي رفضت بدورها عرض رولا درفيل، ولشدة إغراء وجمال جلود تلك الكلاب عملت رولا درافيل لانتداب شخصين (هراش وكسير) لسرقة الخمسة عشر كلباً واستغل هذان الشخصان غياب أنيسة عن الدار مع كلبها (بنقر وبهيرة) وسرقا الكلاب وانطلقا بها إلى غزن كانت رولا تجمع فيه كل الكلاب المسروقة ذات الجلود الفاخرة، تنبّهت كلاب الحي لسرقة أبناء بنقر فتناحبت معلنة عن السرقة، وصل نباحها إلى كل مكان فعلمت المدينة بسرقة أبناء بنقر ليعاطف الجميع مع بنقر وبهيرة، وتبرع الكثيرون لإعادة الكلاب المسروقة، وانبرى لهذه المهمة الزعيم وهو كلب ذو سمع ثقيل يعاونه في هذه المهمة قط يدعى المساعد ويفلح الاثنان في الوصول إلى موقع الكلاب المسروقة ويكشفان للناس أن رولا درافيل قامت بسرقة وتجنية مائة كلب وكلب مرقش لتقوم بسلخها واستخدام جلودها المرقشة في إتمام مشروعها وتصنيع الحقائق والأحزمة الفاخرة، ومع خروج تلك الكلاب مجتمعة ساروا خلف أبناء بنقر الذي استقبل أبناء بفرحة غامرة ولأن بقية الكلاب بلا آباء قام بتبنينها جميعاً.

[٢١]

تحول بيتنا إلى ملصقات لتلك الكلاب المرقشة، أبدت أمهم غضباً زائداً لهذا التشويه الذي طال غرفة استقبال السيدات، كنت أجلس في مكتبي، ويصلني صراخ زوجتي كآلة ثابتة تنخر جمجمتي، تفاقزوا جميعاً في اتجاهي، ولاذوا خلف الباب مقلدين حركات كلاب جسورة، كان أصغرهم يذرههم مرحوياً: جاءت بهيرة!

فينكمشون خلف باب غرفتي، متحمكين، وهازين رؤوسهم، ويتبادلون لعق بعضهم بعضاً، صُدموا حينما وجدوني أهب باتجاههم: من هي بهيرة؟  
تلعثم الكبير كثيراً، ولم يعب، وانقلت لسان أصغرهم: بهيرة أمي!  
- ومن قال لك إن اسمها بهيرة؟

اكتفى بأن تبادل الضحك مع إخوته، فبادلتهم الضحك لأجد زوجتي تقف صارخة:

- ليس من أحد يقوي شوكتهم سواك.

جذبتها ضاحكاً:

- يسمونك بهيرة، فمن هي هذه البهيرة؟

- لا أعلم، كل أسمائنا تبدلت فهم يتبادلون أسماء تلك الكلاب حتى

أنت يسمونك بنقر!

- أنا بنقر!!

جذبت الأصغر من أذنه:

- من هو بنقر؟



احتجت إلى أيام طويلة لمعرفة هذه القصة، كنت أجلس معهم وهم يتقافزون حولي: هذا الكلب جدي، وهذا الكلب عمي، وهذا خالي، وهذا...

تمحك الصغير بصدري ككلب مدرب، وعبت بشنبي قليلاً:

- ما رأيك يا بقرق؟

- في ماذا؟

- ما رأيك أن تبني إخوة لنا ليصل عدداً إلى مائة مرقش، ومرقش!

نفاجاً حين خطفت أذنه، وعلقت في الهواء بينما كان يصيح صارخاً:

- أتوب يا أولاد الكلب!!

كم اشتقت له ولإخوته... أين هم الآن؟

[٢٢]

تحرك الملاحون لتوزيع الجرائد، عبرتني المصيفة باسمه - وكأنها تذكر جلي المتكسرة أو أنها تعقد هدنة صلح بعد أن راتني أتضاحك على بكائها حين أعلن الشبان الثلاثة كفرها - عبرتني تدفع عربة صغيرة وضعت على سطحها عدة جرائد، امتدت يدي وتناولت صحيفة ٢٦ سبتمبر متصفحاً محتوياتها باهتمام...  
تجدد خبر على صفحتها الأولى:

الرئيس اليمني يفتح منتدى الديمقراطيات الناشئة غداً:

17 دولة تبحث عن الوسائل الناجحة لتحقيق الديمقراطية على أرض الواقع

٢٦ سبتمبر - صنعاء

برعاية فخامة الأخ العقيد علي عبدالله صالح يفتح غداً منتدى الديمقراطيات الناشئة، ويشارك في هذا المنتدى زعماء وأقطاب على مستوى رفيع في السياسة والاقتصاد والمجتمع المدني يمثلون (بحسب الترتيب الأبجدي بالإنكليزية) دول: بنين وبوليفيا والسلفادور وجورجيا وغانا وغواتيمالا وغويانا والأردن ومقدونيا ومالاوي ومالي ومنغوليا والمغرب وموزمبيق وناميبيا ونيبال واليمن.

وجميع هذه الدول تسلك مساراً هادئاً في سجل إرساء التقدم الديمقراطي، رغم التحديات الاقتصادية والسياسية الكبيرة.

ويستهدف المنتدى بحث التوترات المصاحبة لتنفيذ عمليتي الإصلاح السياسي والاقتصادي في وقت واحد، وأن يكون فرصة للممارسين للعمل السياسي أن يناقشوا ويحللوا تجارب كل بلد، من حيث أفضل الممارسات وأوجه النجاح والفشل في عملية التحول الديمقراطي.

اكتفيت بقراءة هذا الجزء من الخبر المطول، ولم أرغب في قراءة ما تحمله التفاصيل الداخلية، كنت أعمل في حقيقتي اليومية جريدتين محليتين، شرعت بقراءة عناوين الصفحة الأولى من إحداها، وجوه صحفنا تتشابه لم يكن بها شيء لافت..

غضب الدكتور العلوني يلتصق في أذني:

- ألم يفقه الصحفيون أن صحفنا كاذبة، وأنها تقدم هدياً ميثاقاً في كل يوم، فكل ما يمور في المجتمع تسفحه هذه الصحف على صفحاتها ماء عذبا، إنها تخور الشوك، تنسق كذبتها يومياً من أهات الناس هذه الآهة تغدو امتناناً بجريان الحياة في أوردتهم، وهبة يحنون رقابهم بترديدها كنغمة شجية.

الدكتور العلوني لا يكره أحداً كما يكره سعد خلاف.

سعد خلاف شغل منصب الرقيب الداخلي منذ حرب تحرير الكويت، يسمونه داخل الجريدة صمام الأمان، منحه رئيس التحرير سلطة تفوق سلطته (ويقولون بل امتلك هذه السلطة من جهات أعلى).

اتسعت طموحاته وترسخ وجوده حين ألغى مقالاً لرئيس التحرير، يمارس ألعاباً قذرة على مستويات عدة، جاء إلى الجريدة بجلد محمر وزغب تائثر هنا وهناك، أيام قلائل وكان الريح يتعب من تحريك ريش جسده..

الدكتور العلوني يعمم تمه:

- صحفيونا أشبه بذلك الغنبي الذي يكسب بيته يومياً ويضع نفائياته تحت سجادة صالون الاستقبال، كل شيء نظيف لا يحتاج إلا لرفع السجاد ومواراته.

حملت كثيراً من آرائه، هذه التلمذة لم ترق لرئيس التحرير:

- هل فعلاً أعمل أفكاراً نضالية في زمن انتهى فيه النضال؟

صدمت بالدكتور العلوني فلم تتوافق نظيراته في المجالس الخاصة بما يتقاد له داخل الجريدة، ووقفت عند أول درس تعلمته.. النزاهة.

في كل مرة أيقن أن مثل هذا التدليس الذي يمارس في صحفنا لا يصلح لإخراج الأفكار القيمة.. هم يريدون بوقاً يكمل معزوفة متناغمة كاذبة الادعاء.

وكلما جئت للكذب أحسست بالعري، أحسست أن طوفاناً من عيون البشر تهتك جلدي وتتوعدني بيوم لفصل عنقي عن جسدي ومواراتها تحت سجاد سميك.

أشارك القراء سخرتهم حين يدور الحديث عن مغالطات صحافتنا، لم ينسوا ذلك التناقض، يصفوننا: بالحواة غير المدربين!

تلك الواقعة كانت مهزلة تعمينا جميعاً عنها: ارتفع سعر البنزين فرتج الناس لهذا القرار، فخرجت صحيفتي بمانشيت عريض تودد الصفحة الأولى: ارتفاع أسعار البنزين قرار حكيم!

وعندما انتهت الدولة لهذا الخطأ وأعلنت عودة الأسعار على ما كانت عليه في اليوم التالي مباشرة خرجت الصحيفة بنفس المانشيت: تخفيض أسعار البنزين قرار حكيم!

في أحيان كثيرة نقرأ صحفنا للضحك والتنكيك على السياسة الإعلامية التي ينتجها الصحفيون، كلنا يعرف أننا نكذب: الصحفيون يعرفون أنهم يكذبون، والقراء يعرفون أن ما ينشر كذب، والمسؤولون يعرفون أن ما يكتب كذب، ومع ذلك لا تزال الصحف تصدر!!

هذا الاستغراب يبيده الدكتور العلوني ولا يقف عند هذا الحد بل يحرم فعل الكذب، يفعل ذلك في الجلسات الخاصة وحين يطلب منه غير قناعاته يوافق مباشرة للقيام بالمهمة ولا يرى في فعله أي تناقض!

كلنا مشطور، كلنا يسير بوجوه رثة زينتها لبعضنا ولا نبدي ملاحظة على هذه الأفتعة السيئة التي نتخاطفها جميعاً لحضور حفلات الكذب الموزعة في كل مكان..

أوشكت على قذف الجريدة جانباً، وتراجعت حين لمحت استطلاعاً نشر على صفحتين عن بيوت آيلة للسقوط في حي العشيمة بمدينة جازان، كان لوم الصحيفة والمسؤول منصباً على الساكنين لعدم مغادرتهم بيوتاً ستتقوض على هاماتهم، فليس مهماً إلى أي بقعة يتجهون، فقط عليهم مغادرة هذه البيوت واستقبال أشعة الشمس بهاماتهم الحاسرة لم يرد ذكر ما يستوجب أن تقوم به



الإمارة أو البلدية أو وزارة الإسكان أو الدولة أو فاعلو الخير من توفير بدائل لهؤلاء الذين ينتظرون السقوط ولا يستطيعون النهوض!!

في عدم الاكتراث هذا تراخى كل شيء، حتى البيوت تراخت مفاصلها وحنث للاستسلام.

بيت موسى الفيل لم يعد كما كان، قام مالكه الجديد بتقسيمه إلى غرف ضيقة تستأجره جاليات تشادية لا عمل لها سوى العبث بمحتويات القمامة وتفرغ أبناء الإتمام هذه المهمة المضيئة.

الابتعاد عن ذكرياتك يبقينا ناصعة نابضة في داخلك، وكلما عايشتها تصفعلك تبيسها وضمورها، تقشط يومياً جلدك حيث لا يبقى إلا واقع صلف مستبد.

تلك النافذة التي طالما وقفت أمامها ليالي طويلة منتظراً بزوغ وجهها ها هي تغدو فجوة كبيرة تكشف بيتاً بانساً تجمعت فيها مجموعة من النساء التشاديات انبطح بعضهم في أرضية غرفتها وانشغلت المسنات منهن بإحصاء اللعب الفارغة مذكرات بعضهم بالنفايات المتبقية!

أشعر بالحسرة كلما وقفت أمام بيتها، كم تمنيت لو أن أبي اشتراه قبل أن يتحول إلى تجمعات لبائعات الهوى واللعب الفارغة.

عاد أبي في تلك الليلة التي استدعاه فيها موسى الفيل، فاستقبلته أمي مستائلة:

- ما الذي كان يريد منك في مثل هذه الساعة؟

كانت تسأله وهي تتناول منه غترته الناصعة البياض:

- لماذا استدعاك موسى الفيل؟

- يريد أن يبيع بيته.

- وما دخلك أنت؟

- قال إنه حريص على العشرة ومن الواجب إخباري ببيته قبل أن يعرضه للبيع.

- ولماذا يبيعه أصلاً؟

- قرر العودة لليمن.

- بعد كل هذه السنوات؟

- ألا ترين الجميع يرحل؟ حاولت أن أثنيه عما عزم عليه، قائلاً له: لا عليك سأقوم بكفالتك أنت وأسرتك لكنه استنكف من هذا، وصاح في وجهي: وهل تظنني هندياً أو تايلاندياً، أبعد هذا العمر أصبح عبداً لا أتحرك إلا بأمر كلي.

لم يقتنع بأن الأمر مجرد تنظيم لا يستهدف اليمنيين بتاتاً، لم يقتنع بأي كلمة قلتها له وأصر على العودة صارخاً في وجهي: بلدي تنتظر كل الشرفاء وسوف أعود كما عادت قوافل الشرفاء.

وكالعادة شب بيننا شجار تدخل الجيران لفضه بعد أن ارتفع كثيراً..

كنت أصغي لحوارهما وخيالها يرق في غيظي ونصلُ حاد يخرق أعماقي:

- هل سترحل وتتركني هنا؟

تعمدت قراءة تصريح رئيس بلدية جازان المنشور أسفل الصفحة ولم أصعق تماماً من حكمه القاطع:

- بيوت العشيمة مزوغة للملكية، صحيح أنهم لم يعوضوا إلى الآن لكن يجب على قاطني هذه البيوت المغادرة!

هكذا أنهى رئيس البلدية القضية، فهو غير معني إلى أين يذهب أهل تلك البيوت، تنتهي مشكلته برحيلهم ولكن لا رتشاف ماء البحر أو للموت إن شاءوا. نعم ليذهبوا للجحيم، فنحن أصفار لا أرقام لها!

لفلت الجريدة وحشرت بها جيب المقعد الأمامي وأعدت التطلع لجريدة ٢٦ سبتمبر رغباً قراءة تفاصيل منتدى الديمقراطية الناشئة علني أخرج بأفكار تكون مادة دسمة لصحيفتي.

وكلما حاولت التركيز ارتبكت الطائرة في مسيرتها فتسرع غثياني بالتمدد، وألح النساء التشاديات وهن يبرزغن من نافذتها موصيات بعضهن بثلث الحاربات التي لم تخضع للتفتيش الدقيق بحثاً عن اللعب الفارغة وبعضهن يرسلن عيونهن لاصطياد الباحثين عن لحظة لهاث بثمان زهيد.

وتاريخنا أردية لقادة تركوا بزاتهم معلقة في غرفة صخرية حافظت على روايتهم كما تحافظ البيضة على محها، تاريخنا العربي هرب هذا السر، فقتت بيضته كاشفة عن خيط دم، خيط كان مشروعاً لجنين فسد في الظلمة والهواء الرث، فليس هناك حدث ينهض بتفاعلاته الاجتماعية مفزراً واقعة تاريخية، نحن تفاعلات لأمزجة أشخاص ولدت كل هذا الركام مما يطلق عليه مصطلح تاريخ.. تأسست هذه القاعدة من كتب الطبري وابن الاثير.. والمدن هي بناء شخص يحولها من أرض منسية إلى تاريخ، وصنعاء جاءت على يد صنعاء بن ازال بن عتير بن عابر بن شالح المتهبي عند سام بن نوح.

آه صنعاء.. لا بدّ من صنعاء وإن طال السفر (من شذب هذا المثل حتى يغدو مسافراً على كل لسان، وتغدو صنعاء آخر المرافق لرحالة يجد في حصونها مستقراً أو عاشقاً خرج يبحث بين جبالها عن فتنة خبأتها بين جبالها الخضراء.. من قال: لا بدّ من صنعاء وإن طال السفر؟ الأمثال تنفر من الشفاء وتنسى أن تعود لصاحبها، يغدو المثل ملكاً مشاعاً للناس، كل الناس، وصنعاء كتاب نثر حروفه على الألسن فلم يعد أحد إلا وجعل صنعاء بغية لشيء ما حاك في صدره).

لا بدّ من صنعاء وإن طال السفر.. يسند بعض المؤرخين هذا المثل للإمام الشافعي حينما كان في رحلاته المصنية وغدت صنعاء شغله الشاغل فقال تلك الجملة ليغدو مثلاً يلهب خواصر الإبل والبغال والحُمير والخيل المقلّة للعشاق والرحالة والقواد، فما الذي جمع الإمام الشافعي بحب هذه البقعة، هل كانت له حبيبة هناك.. أم أن علماً اختبأ في جبالها الشاهقة فحمل الشيخ على تمشيط هذه القمم لقطف كلمة من صدر جلته فضة هذه الوجوه.

بعض الكتب الميتة تقول إن قصياً بن كلاب جاء من اليمن وإن كل الأشياء جاءت مقتفية أثره من هناك، وأخال أن إصرار الإمام الشافعي على بلوغ صنعاء لم يكن إلا بحثاً عن سر المكان المخبأ في اللوح!

تَمَوَّجَ شعرها على جبينها وهي تطل من نافذتها:

- هل سمعت بمثل: لا بد من صنعاء وإن طال السفر.

الطائرة تشق عباب السماء بترنحات متواصلة، فأهرب عينيّ من نافذة الطائرة المهتزة كاهتزاز مقطورة أصاب إحدى عجلائها العطب فلم تترك الطمأنينة تسترخي في أفئدة راكبيها.

استشعرت بخوفي الدائم من مثل هذه الحالات، فكثرت التفاتاتي، وتجنبت أن تستقر قبل أن يتمدد غشياني ويجذبني لرحلة تقيؤ سخيّة، ولكي لا تتفاعل هذه الحالة توقفت عن القراءة مسنداً رأسي ومشتتاً رغبة التقيؤ بإغماضة استجلب بها نوماً استعصى عييته بسبب تلك الاهتزازات المتواصلة.

المسافر الذي يجاورني وجد سلوته في دندنتي السابقة، فحاول استنهاض نشوة الغناء في داخلي - مرة أخرى - بترديد مقاطع تلك الأغنية التي كنت أقف في أجزاء من مقاطعها ولا أكملها، لتعسر مفرداتها على الفهم.

أعلن المذيع الداخلي عن وجهتنا والزمن الذي سنقضيه في رحلتنا ساعاً للركاب بحرية الحركة، ليظفر ذلك الراكب من مقعده دافعاً بوابة دورة المياه بعجلة خشبية من أن تسيل قطرات بوله على فخذيه.

مع إعلان المذيع لوجهتنا رنت كلمة صنعاء في داخلي، هي أول مرة أصل إليها فلماذا ينبعث من داخلنا كل هذا الشوق، ما الذي يربطنا بالمدن.. هل توصلنا الأسماء إلى جوف التاريخ؟ تعيد تجهيز طعم الحياة، الأسماء هي الوجود الأول، فالتاريخ ليس أحداثاً متراكمة تفرز حالة تاريخية، التاريخ أسماء تخلق أحداثاً تلون الحياة ولا نعرفها إلا بالتاريخ، هي أشبه بأسمال ارتداها قائد وخلعها فبقيت رائحته تجوب الزمن.



لم تدعني أجيب وأكملت تدفقها:

- لم أكن أتوقع أني سأكون هناك في يوم من الأيام.

الآن أسترجع هذه الجملة وكأنها ترن في أذني لأول مرة، كيف لم أنتبه لها طوال بحثي عنها.. جلست مدناً كثيرة بحثاً عنها ولم يخطر ببالي أن أقف بباب اليمن أو أصعد جبالها أسأل عن امرأة تحرق الكون إذا نظرت..

ها أنا أبيع الدنيا كلها يا وفاء لأقف أمام عينيك لتحرقيني كيفما تشائين..  
ها أنا جئت.

[٢٤]

تسببت عيناها في تورطي بعشق اليمن في وقت مبكر..

وجدتها أمامي منذ الطفولة الأولى، منذ تلك الطفولة كانت تحمل مقاطع أغنية جديدة، وفي تلك الشوارع الخلفية المقدوفة في حبيبا لعينا لعبتنا الأزلية (عريس وعروسة)، اقتطفت أكاليل من زهر الياسمين من أحد جدران حبيبا ووضعتها على هامتها، وخطونا لمنزل الزوجية، كان دائرة وهمية وزعنا بها غرفنا، والتصقنا في زاوية منها، كان ليل عجوز يعبرنا في التصاقنا الخدر، شممت رائحة جسدها يتوغل في دمي، حوطتها بذراعي، فجاء صوت أبيها باحثاً عنها فنفرت من ذراعي كمصفورة جريحة تحبى جرحها في عتمة تلك الشوارع الضيقة، يوماً كانت تودع شيئاً من جمالها في داخلي حتى إذا كبرت كانت منبسطة على كل تضاريس حياتي.

- مفتون بهاتين العينين..

- عيناها فقط..

وأشاحت بجبينها تداري غضباً صغيراً افتعلته عنوة، فامتد جيدها فضياً تسيل منه حلاوة الجبال الشاهقة فتروي خدوداً فتنت بمنحدراتها الثلجية، امتدت يدي إلى وجتها:

- كيف تستقر الغيوم على هذه المنحدرات.

يقفز طائر الشوق من قفص الأغنيات

يا نسيم الصباح سلم على باهي الخد ونبهه من منامه

قله إني على وعده أسير مقيد حتى يوم القيامة

الأغاني اليمنية سحقت قلوب العشاق، أغاني تذكرك بذلك الاحتراق الذي تركه الشعراء مبذوراً بين اللحن والكلمة، فنز رذاذ عشقهم نفضاً يحرق كل المراكب المحيرة للغد.

الطائرة تلوب في الفضاء، ودوامة من الغثيان تتعارك مع وجهها ينضج حيناً ويغرق أحياناً..

والذي يماورني انتدب فكاهة للإجهاد على تلك اللبانة المستعصية على الانقراض... وعيناها تيزغان من تلك الدوامة لتقرضاني كيف تشاء.

[٢٥]

ها هي تقف في البال كحورية شف عنها الزمن ووقفت حارقة ظلمة حانية  
تتمطى في مرقدها كشمس صغيرة بزغت في عتمة الروح:  
ناشني ناشني يا ابو الشماع الملم والحلى في كلامه  
من رأى غرته هلل وشهد وكبر بدر ليل في تمامه  
رجوتها أن أراها حالماً تستيقظ من رقدتها، ضحكت من هذا الطلب  
ووصفته بالعتة.

هناك على مضارب خديها تجلس الحياة متفتحة بشتلات ورد دائمة الحمرة  
تطل على سهول ثلجية، كم تمنيت التنزه بين ملاحها حين تفيق ملاحها  
لاستقبال أشعة الشمس.

في كل صباح مدرسي تجدني أقف أمام بابها، أنتظرها حتى تعبرني وتلقي  
عليّ تحية الصباح، أشاغلها بطلب وحيد:

- أريد أن أرى وجهك في هذا الصباح؟

ألح لمعان عينيها يومض من خلف غطاء وجهها كاشفاً عن فرحة بكر  
خفتها على شفيتها فأبقت ابتسامة غائمة:

- فقط أرى ندى الصباح على وجنتيك..

تتلعثم خطواتها في الطريق مقتربة من صوحيباتها قبل أن تفعل... نهترني  
مراراً عن هذا الطلب الصياني.

- أراك لم تعد تحفل بالناس فأنت لا تكثرث بالشارع المزدهم وتتبعني

كظلي.



- كلٌّ مَنْ في الحبي غدا عارفاً بافتاني بك .

- ولهذا عليك أن تعقل .

في إحدى زياراتي الليلية لاولتها شريطاً لمحمد عبده :

- أريدك ان تسمعي أغنية يا نسيم الصباح كأنه يغني لك .

- لن تراني وأنا مستيقظة من النوم أبداً .

جهدت كثيراً لرؤية وجهها وهو يجيئ في الليل من أطرافه، عمدت مراراً للوقوف لها في شارعها الذي تطرقه ذاهبة لمدرستها وكلما طالبتها بهذا الطلب خفت ابتسامتها على عتبة شفتيها وقفزت متوسطة صويحباتها قبل أن تريني عيناً نفقت غبار نوم قلق .

في أحيان نكتب مستقبلاً من غير أن نعلم، حدثت هذه الكتابة مرارا، لم اتخيلها زوجة لي أبداً، كلما تعكرت أمرجتنا كتبت لها :

- لو فرقنا الأيام أريدك أن تذكرني أنك الوحيدة التي أعيش من أجلها .

أهديتها أغنية (حاول فتذكرني) مراراً، في كل خصام أقذف في طريقها بشريط تلك الأغنية، فتلتمظه من الأرض وفي موعدنا الليلي يكون عبدالحليم حافظ يراقص الشارع بأغنيته تلك بينما أذرع الشارع ذهاباً وإياباً علني ألمحها فلا أسمع سوى صوت ييكي عشق ذبل في أوردة الزمن .

لو مررت في طريق مشينا مرة فيه

أو عدت بمكان كان لنا ذكرى فيه

ابقي افكرني . . حاول حاول فتذكرني

في أحيان كثيرة تتحقق أمانينا لكن على غير ما كنا نشتهي .

من نافذتها الصغيرة سال كمد من بين شفتيها :

- غداً سنسافر لليمن .

وقفت كلوح مهتز كلماتها كماشات تخلع مفاصلي، نزبل تماسكي فارتج بين يديها :

- غداً ساكون هناك . . غريبة في بلدي، وأنتم هنا تصفقون لرحيلنا،

تصفقون فرحين لأننا سنغادر ونترك لكم خبزنا . . الآن تتذكرون أننا غرباء وتنسون أننا بنينا هذه البلد حجراً حجراً .

كان دمعها يذرف كحلاً غامقاً جرى في تلك السهول الثلجية، وشواكيشها تخلع مساميري، فأترنح بالقرب منها كيوابة قرضها الزمن وعليها أن تقع كيفما تشاء . .

- مساء غد سيكون هذا البيت مظلماً ربما تأتي كعادتك ساعتها فقط تذكر أن هذه النافذة كنت أجلس بها لأنتظرك .

كنت صامتاً وهي تدق مسامير كلماتها بإتقان، فأبدت ضجراً من صمتي :

- أود أن أغلق النافذة فلن تكون بعد هذه الليلة مفتوحة كهذا .

- لا تذهبي .

- أسمع حركة داخل البيت .

- لن أذهب سأنتظرك هنا .

انسحبت على عجل، وأوصدت النافذة بقوة، ليلتها نمت بجوار نافذتها كنت أغفو وأفيق وكلما غالبنى النعاس عمدت لشيء ينفر سكونه من أهلامي، فتعمدت الانتكاء على حجر صلد وكلما ملت انغرس رأس الحجر المذنب في جسدي فأفيق، أنطلع لتلك الانحناءة الممتدة في حلق هذا الشارع كفصة لم تكتمل، من هناك تظهر أقدام الساهرين : أقدام متزنة وأقدام ثابتة، وأقدام عجلة، وأقدام متصلة في وقتها، وبيوت أوت على نفسها وهربت سرها من نوافذها : نوافذ مظلمة، ونوافذ تنير الجهة المظلة عليها، ونوافذ غدت منظاراً يكشف ما يجول في الليل المتباطئ، بقيت نافذة سلمى مغلقة بعد أن دست حبيبها داخل البيت ليسكت أنوثة فارت ولم تجد من يطفئ لهيبها، وهناك قطط تعبت بتكدس القمامات المتفرقة وتعبت بذاتها في تزاوج مسترخ سيخفف من مواتها ويثبت سكون الليل لبعض الوقت، وهناك جرو يتبع أمه السارحة في لهائها المستمر، أصوات خافتة تأتي من الشارع الخلفي لمجموعة مغمورة كسر الحمر نفوسهم فتشاحنوا بالسكن ثقيلة، في الجهة الأخرى من الشارع توقفت شاحنة بوسط برحة تستقبل أفراح وأحزان الحبي . .

في عصر هذا اليوم هضمت هذه الشاحنة معظم محتويات بيت موسى الفيل، رأيت عاملاً يحمل دولاباً أذكره تماماً، سجت داخله لعدة ساعات، فعندما تسلك في إحدى الليالي لداخل بيتهم داهمتنا أمها على حين غرة، وقبل أن تفتح لها الباب كنت أحل ضيفاً داخل ذلك الدولاب تركتني هناك لثلاث ساعات كانت كافية لأنخر بطن الدولاب بحرفينا مستخدماً قصاصة كنت أحملها معي، بعد هذه الواقعة بعدة أيام مدت يدها من النافذة وجذبت أذني:

- لماذا لم تخبرني بما فعلت داخل الدولاب كدت توقعني في حرج لولا أنني تنبئت لفلعتك بالصدقة.

المصلون يعبرون مسبحين مستغفرين، بعضهم اعتقل وقفتي هذه مراراً، في كل مرة أحاول الابتعاد عن بيتهم قبل أن يحين خروج المصلين يحدث هذا في الإجازات غالباً... لم يكن أحد منهم يخرج لومه يتركون تقريرهم معلقاً على عيونهم أو على حواف شفاههم وأيديهم التي تتلاقى ضرب كف بكف.

يوم رحيلها لم أعد مكتئباً بأحد، مكثت أسفل نافذتها علني أراها ثانية، طوال الليل كنت ألوم نفسي:

- لماذا لم أتقدم لخطبتها؟

قبل عام رق مزاج أمي كثيراً وهي تتطلع إلى جسدي بفرح:

- لقد غدوت رجلاً

فاغتتمت انبساطها: ما رأيك أن تزوجيني؟

فارت ملاعها الحقيقية، وتنازلت كأساً يجاورها مهددة:

- استحي على وجهك ما زلت تأكل وتشرب من جيب أبيك!

في الليل تسر لأبي بظهور فحولتي على ملابس الداخلية فيتشفي أبي كثيراً، ويسرد بطولاته حينما كان غلاماً يافعاً يجرب ذكوريته في كل ما تصل إليه يده، فتنبطه على ظهره مستقبحة حديثه، فيتضاحك باسترخاء ويحتويها بين ذراعيه:

- إذا استوت همة الرجل فلا يكسرهما شيء.

وقبل أن ترد عليه يكون منشغلاً بتهديتها كما تعود دائماً.

ألقى أذني بنافذتها، اتحماس وأهمس باسمها...

- وفاة... وفاقا...

يغالبنني النعاس فالوذ بالسير، ألح بعض الفتية الساهرين وهم يجوبون جهات من فرجات هذا الشارع الممتد بانحنائه إلى الشارع العام.

فأعود كجرذ خشي من عيث صبي يتبعه بحذاء قديم، صوت أذان الفجر الأول يشق الصمت، فعدت النداء بصوت منخفض، سمعت صوت المزلاج يتحرك ببطء فتنبهت تماماً، أطلت - وجهها يشي أنها لم تنم جيداً - بقي توردد وجنتها متشياً، كانت تغالب دمة وهي تتحدث:

- ها أنت تراني وأنا مستيقظة من النوم.

أشارت للشاحنة التي تقف بعيداً.

- بعد قليل ستحمل هذه الشاحنة ما تبقى لنا داخل البيت.

- هل انتهى كل شيء؟

مصت شفيتها وزادت أناملها من فوضوية شعرها:

- تصور أنني لا أعرف بلدي، كنت طوال الوقت الذي يستعد فيه أبي

للعودة أشعر أنه سيقتلني من بلادي، لا أعرف بلداً غير هذه البلاد.

تجمعت دموع كثيرة في عجاجرها:

- أنتم حجارة لا قلب لكم... هكذا فجأة نغدو غرباء وعلينا الرحيل.

- لو رحلت سأتبعك إلى آخر الدنيا.

استقبلت جلتي بإطباق عينيها زافرة هواء ثقيلاً ران بصدرها:

- هل ترى سيارة النقل من عندك، إنها تحمل كل ما تبقى لنا في هذا

البلد وحينما كان أثنائنا يرحل لجوف سيارة الشحن كنت أظن أنك تفكر في بقائي معك، أن تفعل شيئاً من أجلي...

صمتت للحظات، عابئة بخصلات من شعرها المنسكب على خديها:

- ماذا فعلت من أجلي؟ تقف ليلاً أمام نافذتي تسمعي الكلام، الكلام فقط.



طفرت دموعها وأغلقت النافذة مرة أخرى، وغابت.  
عدت للبيت متسللاً، كانت أمي تقف على بوابة دورة المياه تغالب نعاساً  
ثقيلاً:

- أين كنت؟

- ذهبت لصلاة الفجر.

زفرت بجملة مقتضبة ساخرة:

- أعرف تماماً أين هي قبلك.

.....

- ليس لنساء الحلي من حديث سوى سيرتك أنت وهذه الملعونة!!

ودخلت لتتوضأ بينما كان الباب الخارجي يعالجه أبي بمفتاحه، فدمست  
جسدي بين إخوتي كجثة تحن لقبر مغلق تماماً.

ربما مضت ساعتان أو ثلاث، نهضت فزعاً، قبلت يد أبي:

- أستاذك في السفر إلى جازان؟

- ما الخير؟

- دُعيت لحضور زواج شقيق محمود.

جذبتني أمي هامة:

- أعرف سبب سفرك، هل أخبره؟

تخلصت منها على عجل ومضيت أهين نفسي للسفر.

[٢٦]

سيارة النقل متخمة بعقش جُمع خلال أربعين عاماً، تم إيصاله إلى شركة  
النقل الجماعي ولم يعد متيقياً منهم سوى لحظات وداع تتمزق فيها الروح.

الجيران يحوطون مدخل بيتهم من كل جانب ودموع منسكية يتبادلونها  
لترميم غناء انكسر ولم يعد بالإمكان إعادته لحالته الطبيعية.

في لحظات الدواع النهائية يمز شيئاً من أعماقنا فنبكيه في حينه، نعلم أن  
آلة حادة اجتثت شجرة قديمة علينا أن نبكي ارتطامها العنيف في داخلنا.

صعدت لمياء وأخوها في البده، وانشغلت وفاء مع أمها في تقبيل  
المودعات، كانت الحارة بأجمعها تقف على تلك الدموع المتبادلة، رأيت أمي  
تقبّل وفاء وتنسحب للبيت، كنت أقف كمحمود نور خرب تطل عليه بين الحين  
والآخر عليها تعيد ضوئاً خفت في محاجر، وتحاول اختلاس تحية من يديها  
الصغيرتين كما كانت تفعل كل حين.

استبطلأ أبوها صعودها لداخل السيارة المنتظرة لنقلهم فاستحثها مع أمها  
للصعود:

- ستأخر على رحلة النقل الجماعي .. هيا عجل.

تعقبتهن، في محطة النقل الجماعي انشغل أبوها بإنهاء إجراءات السفر،  
فأسرعت لداخل البوفيه متيضعاً ما أحتاج إليه في سفري الطويل، قذفت  
بمعلبات الأكولات الخفيفة إلى مؤخرة السيارة وأخذت أتربح خروج فافلتهم.

لمحتني أقف كمحمود نور خرب، فتعمدت الجلوس في مؤخرة الحافلة وعلى  
مسيرة سبع ساعات كانت تغافلهم وتلوح بيدها من الزجاج الخلفي .. وفي كل  
استراحة تقف فيها الحافلة نظل تتبادل القبلات الهوائية والتلويح بالأيدي.

كان منفذ الطوال المؤدي إلى اليمن مزدحماً ونشوة اليمنيين تزداد تصاعداً، وتغدو الأصوات أكثر حدة وعدوانية، من هناك صدمتني هيئته، كان يسير بعجلة متجهاً إلى إنهاء أوراق الخروج، يسير كمن يحاول الاختباء من العيون، تبعته بعيني كان ثمة شيء مريب يتحرك مع تلك القدمين المستعجلتين في كل شيء ووجهه الغارق في نصف اختباء بترك عمامته تحجب جزءاً من ملامحه، هل أنوهم رؤية توفيق في هذا الشخص؟

أصوات متداخلة، وإنزال عفش وصعود عفش، ومساعدو السائقين يقضمون لهجتين متباينتين، وباعة وعسكر ومفتشون ومسافرون، جو غوغائي يترك في أذنك مفردات السفر العشوائي المرتبك، تنبئت لأبيها يقف أمامي مباشرة ولهجته تقترب من الازدراء:

- ألا تستحي من وجهك؟ كل هذه المسافة وأنت تتبعنا، أعلم لو قدر لي تزويجي بحمار لما ترددت على أن أمها لأي سعودي!!

وغنيها بأن أجلسها في وسط المسافرين، فبعد جلته الطويلة المرية اعتراني الحنف، وقفت أنظر إلى وجهه الدائري الضخم وكلماته تنغرس في داخلي كرصاص مركز التهديد تمزق موقعها ولا تبقى إلا لحظة صمت تحاول استيعاب موقع الجرح.

لم أجد لها في مكانها، رأيت لمياء تنظر إلي صافقة بيديها ومبديّة عجز حيلتها.

درت حول الحافلة، كانت عيناها تقفان لي في كل جزء منها، متوعداً أن يشق بطني قبل أن يصل إلى بلاده، انبوا إجراءات الجوازات، وتحركت الحافلة، رفعت خشبة الحدود وعبروا بوجودهم للبعيد، وعندما حاولت اختراق تلك الخشبة مقتضياً أثرها استوقفني العسكري:

- جوازك لو سمحت.

بقيت أنظر إلى تلك الحافلة وهي تمضي بعيداً، ربما تخيلت يديها الصغيرتين تلوحان بتحية الوداع الأخير.

[٢٧]

الطائرة التي تقللتنا صغيرة من طراز ٧٢٧ تتجاذبها المنخفضات الجوية فتنوشها كقطعة بلاستيك بين فكين شك الطبيب في مقدرتهما على القضم... تهتز كأرجوحة تراخت حبالها وتنطوح مهتزة اهتزازاً متتالياً يثير القلق، إحدى المعائن تضع يدها على عينيها ولسانها يصرف دعوة واحدة:

- يا رب سلم.

اعتراني خوف مفاجئ، التفت إلى مَنْ يجاورني:

- هل الوضع مطمئن؟

الوجوه البينية تنتعج غربتها في كل الأزمان، وجهه غارق في استحلاب ذكريات قديمة، يتلبن لبناً شامياً عروق صدغيه تبدو نافرة وفكه الأسفل كمطحنة تلتفت قبل الأوان، تبادلنا حديثاً مفككاً حتى غدت الكلمات تقاس بالأبعاد وخشية انزلاق اللسان بما يكدر الثقة لوصل بين راكبين جمعهما مقعدان متجاوران، اهتزاز الطائرة يربكني فأعيد السؤال على مسامعه:

- هل الوضع مطمئن؟

كان سؤالي مربكاً له على ما يبدو:

- ماذا تقصد؟

ربما ظن أنني أسخر، حاولت أن أعزز حسن ظنه:

- المطبات الجوية تجعل الطائرة لا تستقر على حال.

تبادل سوء الظن في أحيان كثيرة، وفي الأسفار يغدو الضيف على بلد متوعداً لأهلها ومادحاً لتلك البلاد حتى وإن لم يكن على وئام معها.



الذي يجاورني ينظر يتلهى بمنظري الموعوب فاتراً فمه عن نصف ابتسامة،  
كان تشبهي بمقعد الطائرة يغريه بمواصله التريض بنصف عين ونصف ابتسامة:  
- هل هذه أول رحلة لك إلى صنعاء؟

لم أكن قادراً على هز رأسي، فقد بدأ غثيان ثقيل يتمدد على وسادة صدري  
ومحاولة مستميتة لأن أبعد هاجس الاستفراغ (سيكون منظري رثاً ومدعاة  
للسخرية) كنت أحاول تديد غثياني بالتصبر على انقضاء دقائق الاهتزاز بسرعة  
وأن تعود الطائرة لاستقرارها، اقترب التقيؤ من نفق فمي كثيراً، فامتدت يد  
مجاوري لجيب المقعد المقابل وأخرج كيس بلاستيك ناعماً وزودني بحبة ليمون:  
مصها ستذهب بغثيانك.

مددت يدي يتشاقل محاولاً ألا أحرك رأسي باتجاهه مباشرة:

- جلبتها معي خوفاً من الدوار.

تلمعضتها على عجل، حوضتها تدفع غثياني لأسفل الحنجرة، أخيلة قبيحة  
تعترك في ذلك الرأس غير الثابت وتحوم محرصة على استرجاع حالة من  
اللاتزان تنساقط هنا وهناك فتبرق بها الذاكرة وتستعجل سقوطها فأشتتها  
بعيداً.. يندو صوته مزعجاً:

- هل تعرف أحداً في صنعاء؟

كففت سؤاله بيد متوترة:

- أنا أحدثك حتى تنسى ما بك.

- حسناً، امنحني بعض الوقت.

- لا تقلق فالطائرة عادت لاستقرارها.

أحسست برغبة إخراج ما علق بفمي من مرارة نزت من عنق المعدة،  
تناولت منديلاً وألصقته بفمي فتداعت كل تلك الأخيلة لتجيش مرارة زائدة،  
فخطفت الكيس وتوالت هوعات متتالية سكبتها على دفعات فناولني بجاري  
كأس ماء بارد محمضاً: اغسل وجهك ستشعر بتحسن.

تهتبت أن المجاورين لنا كانوا يرمقوني بوجوه متباينة الملامح، خجلت  
كثيراً حينما تلاقت عيني بفاتنة تجلس في المقعد الموازي لمقعدني لعينيها

جاذبية تخطفك باتجاهها وشفة سفلى مرتوية وثقيلة كانت تعلق ابتسامتها وتمازج  
طفلاً صغيراً بجوارها ربما سمعت همسها: لا تفعل مثلما فعل هذا.

عينها تذكراني بتلك العينين اللتين أحرقتا كل هذا العمر، ما بال النساء  
اليمينيات جارحات هكذا.. استويت في مقعدي مصلحاً تلك الأضرار التي  
أحدثها استفراغي وحاولت أن أبرر فعلتي برفع صوتي: دائماً أسافر لكن هذه  
الحالة لأول مرة تحدث لي.

وألقيت نظرة على تلك الفاتنة، أعادت نفاها على وجهها وتركت عينيها  
تواصلان سحريتها بفنتنة طاغية، قمت من فوري لدورة المياه فوجدت أن بزتي  
لم تعد تليق برجل تنتظره مهمة رسمية، حاولت إزالة تلك البقع الصغيرة التي  
استقرت على القميص، بللت مناديل عدة وفركت كل المواقع بتأثام وقبل أن  
أغلق بوابة دورة المياه اتضح أن البنطل لم يعد صالحاً لأن أسير به فقد افترشت  
بقعة مقرشفة حوض البنطل منتهية بزوائد ممتدة من تقيؤ مر، أخرجت عنقي  
من باب دورة المياه راجياً الملاح إحضار حقيبتني المستقرة فوق مقعدي مباشرة،  
أصلحت من وضعي وعدت لكرسي وأنا أغالب خجلاً مضاعفاً عن مجاورني  
من الركاب وتحديداً من تلك العينين الساخرتين، وأكيت على نفسي ألا أسترق  
النظر إلى عينيها الحارقتين.. كان الذي يجاورني قد تبرع بإزالة بعض الرذاذ من  
على مقعدي مبدياً تعاطفاً ودوداً، تلعثمت باعتذاري:

- أعتذر بشدة عما سببته لك من ضيق.

- لا تقل هذا أنت ضيفنا والضيف أخ.

استرددت نشاطي ساحباً من حقيبتني رواية (أطراف الغابة) لصنمين عثمان  
علني أنني نقاصيلها المحشدة بأحداثها وشخصوها، احترم مجاورني انهماكي في  
القراءة وحاكاني بتقليب جريدة ٢٦ سبتمبر وافتعال القراءة العميقة، لكنني  
بلطف فالتفت إليه لأجده يشير إلى أحد المشاريع الاستثمارية المزمع إقامتها في  
مدينة أب:

- لو لدنيا قليل من الحظ لاستطعنا أن نستخرج البترول بكميات كبيرة  
ومهمنا يبلدنا.

برعونة (هذه الرعونة أحد عيوي التي اكتشفها بعد فوات الأوان) بتلك الرعونة وتقريباً منه ادعيت قراءتي لتقرير يشير إلى أن اليمن تجلس على بحيرة من النفط مردفاً:

- الأمريكان هم السبب.

كنت أنتظر استفساره فلم تهرب من فمه كلمة بل ظلت عيناه تحدقان في وجهي باحثين عن علاقة بين كلماتي وإرهاقي:

- نعم، قرأت بحثاً فحواه أن اليمن تجلس على بحار نفطية، واستخراجها يعني أن تتحول اليمن إلى دولة غنية والأمريكان لا يريدون يمناً غنياً.

- وماذا يعني الأمريكان من أن تتحول اليمن إلى دولة غنية؟  
- عندما تصبح اليمن دولة غنية يصبح ميزان القوى في المنطقة غير

متوازن.

- يا أخي ميزان قوى آيه، هل تظننا نجلس في السوق لوزن كل شيء؟

- لاحظ لو أن اليمن دولة غنية تجاورها دول متقاربة تماثلها في الغنى كالسعودية والعراق وإيران ودول الخليج، هذه الدول بغناها ستتحول إلى كتلة اقتصادية وعسكرية وسياسية تهدد المصالح الأمريكية وسياسة الأمريكان تقتضي أن تكون بين كل دولة ودولة مجاورة لها فقر وكثافة سكانية.. تخيل معي الآن وضع دولنا العربية لتحقيق من صدق مقولتي: مصر كثافة سكانية مهولة ولا بد أن تظل فقيرة تليها السعودية غنية وكثافة سكانية ضئيلة تليها العراق دولة غنية وعدد سكان مرتفع.. هذا يخل بميزان المصالح ولذلك ضربت العراق لتجاورها مع دولتين غنيتين ولوجود دين يمكن أن يجمعهم ويتغلب على المصالح السياسية لا بد وأن تضرب العراق أو توجد قوة موالية للأمريكان، وإيران لا بد أن تضرب لأنها غنية وذات كثافة سكانية، هل عرفت لماذا على اليمن أن تظل دولة فقيرة، فلو غدت اليمن دولة غنية فسوف تكون كل الكتل السياسية المتجاورة غنية وبأعداد سكانية مرتفعة ستتحول إلى غول يلتهم أمريكا.

في تنظيري السياسي السابق كنت أتعمد رفع صوتي لعلها تسمعتني وتثق بأن خلف هذا التقيي ثقافة عميقة ومع آخر جملة تفوهت بها استرقت نظرة في

اتجاهها فلمحت أهدابها مطبقة على نوم ثقيل، شعرت بالمهانة وندمت على دلق كل تلك الكلمات المنمقة على مسامع رجل ينتهي به الأمر على مراهنه فكيه في طحن لبان انحشر بين أوداجه المتصلبة..

- لم أفهم.

- لا عليك فال مستقبل القادم سيكون لليمن.

- يا ليت.. لو جاء النفط لمنع تسرب هذه الأعداد المهولة إلى بلاد الغربة.

- اليمني تاريخه طويل فأنتم أول من رحل ومنكم خرجت العرب لكل بقاع الدنيا.

- يبدو أنها دعوة ولن يبطها أي شيء.

أهملته وعدت لاخترق أحراش أطراف غابة صنيين عثمان، كانت الأوراق اليابسة تنقصف تحت قدمي وتلك الجلود السمراء تمتص عن جيبني أشعة الشمس الحارقة، أو تضع يدها التشققة سائراً من وابل انتشى على رؤوس أشجار الكاكاو وجوز الهند... قامة ما طعنت ذلك الفراغ الذي يعتلي عيني، كانت قامتها تتمايل كغصن مل الانحناء فتمدد باخضرار، ألفت علي ضوء عينيها وغرت كسفينة أطلقت لبوقها العنان ليبشر المسافرين بقرب دخول الموانئ الحاملة، تتبعت مشيتها وهي تعبر لدورة المياه لمحت عجزها ضامرين، بقيت مؤخرة وفاء الأكثر تمرداً وحضوراً، فحين تمشي يرتج الكون لمشيته، وتمرر قسوتها للخلف من غير أن تقدر عباءتها على ترويض تمردها الدائم تتكور كهضاب الصحارى المستوية..

حين كنت أقف أمام بوابة مدرستها منتظراً قدومها ترميني صويحياتها بكلمات تقترب من الغزل، لتتحول هذه الكلمات الى مناقشات حين أقف أمام نافذتها:

- أخبرتني زميلتي أنك تلتهم وجهها..

- لست أحق فأنت جامعة لكل النساء.. وإذا تطلعت في فتاة فانا أبحث فيها عنك.



أرضها هذا التعليل وإن أبدت غضباً حفزها لإغلاق النافذة في وجهي ..  
لم يكن هذا تعليلاً، كنت - وما زلت - ألمحها موزعة على كل النساء لهذا  
شغفت بكل النساء، فكل امرأة تحمل شيئاً منها، ويبدو أنها عمدت إلى توزيع  
خصالها على كل امرأة عبرت هذا الكون، ويبدو أنني في حاجة لأن أجمع نساء  
المعمورة لتكون هي بين يدي!!

- آه يا وفاء أكان لا بد من أن تحرقني كل أيامي وتركتيني أبحث عنك في  
كل نساء الأرض؟

[٢٨]

استغل جاري في المقعد التفاتاتي وصوّب سؤاله:

- هل تعرف أحداً في صنعاء؟

(لو يؤجل هذا السؤال قليلاً حتى تأتي .. كلنا نحاول أن نصنع من أنفسنا  
مادة للدمشة والإبهار، ونخلق من رفات سِيرَتنا المحطمة أصناماً نسندها  
بإدعاءات كاذبة وإن لم تكن كاذبة نضخمها حتى نصل إلى درجة الانتفاخ ..).

كان لجوجاً بسؤاله:

- هل تعرف أحداً في صنعاء؟

(لو يعلم أن الدنيا عندي غدت كلها صنعاء، وأن بهجتي كلها هنا).

- أنا لا أسمعك فأزيز الطائرة يثقل أذني .. انتظر لحظة سوف أمضغ شيئاً  
يلذهب هذا الثقل.

التقطت حبة حلوى ومصصتها وعندما لمحتها قادمة علقت بصري بها،  
كنت راغباً في رؤية شفتها السفلى الحبل بالبرغيات، أحسست بعيني تخترقان  
حجابها فأثقلت غطاءها بإسدال طبقة ثانية على وجهها، أحسست بضراوة وفاء  
وعنفوانها .. يبدو أن النساء الصناعيات متشابهات.

في حيناً تحلّق الشباب في برحة اتسعت لكل شيء وحين تعبرهم تفرز  
قلوبهم وعيونهم في رصد ممشاها، كانت طاغية الفتنة لا تشتري أحداً بعينيها،  
تمخر عباب القلوب ولا تحط بعينيها بين تلك الأهداب المتربصة بطيرانها، قاسية  
هي تلك الحصون وتقف كامرأة تاريخية تبحث عن كرسي يليق بمعظمة تلك  
الفتنة.

- رفعت صوتي للذي يجاورني: عم كنت تسأل؟

قلت لك: هل لك معارف في صنعاء؟

- أعرف الكثيرين هناك.

شعر بعيني تلاحقان جلسة تلك الفتاة فسخن دمه ولم يتحمل سخونته

فصك جملة صارمة على عجل:

- اليمن ليست كما هي عليه بقية المدن الأخرى.. نحن قبليون.

وكأنني لم أتنبه لمقصده رددت:

- أعلم ذلك فلي جذور يمنية ضامرة وجئت لإنعاش تلك الجذور.

- ماذا يعني انعاش؟

- لا، لا، أقصد أنني جئت مدعواً... مدعواً من الحكومة اليمنية!!

هكذا.. قطعت كلمات الحكومة تقطيعاً ثقيلاً (الحوكمة) شعرت وأنا

أقولها بزهو مبالغ فيه، تخميت أن تسمع تلك التي سككت على وجهها قبل قليل

هذا التقطيع الثقيل.. ونفضت بطرف أصابعي رذاذاً تبقى من ذلك الاستفراغ

اللعين بقي عالقاً بسنادة المقعد، وأسندت ظهري بزهو سخيף نافخاً صدري

في محاولة لأبدو طبيعياً ربما قفزت بمخيلتي عظمة مفتعلة، ما علق في إصبعي

من نفث رذاذ التقيؤ أعاد وشوشة سيرته لمعدتي ليتحرك موج طفيف من كبرياء

اعتراضي إزاء تلك الليمونة التي مد بها لي الذي يجاورني:

- ضع هذه في فمك.

- لا، لا، أنا في حالة جيدة.

كنت أنتظر أن يفرغ فمه وتتسع حدقتا عينيه لكونه يجالس رجلاً مهماً

مدعواً من الحكومة، هذا الانتظار ضمر حين كان ردة فعله بارداً ولم يثره البتة

ذلك التقطيع المحكم لكلمة حكومة:

- أين ستزل؟

- لا أعرف فهم ينتظرونني بسيارة داخل المطار.

شعرت أن جلستي ناقصة فأكملت: ... ينتظرونني بسيارة داخل أرض

المطار

- من هم الذين ينتظرونك؟

- ألم أقل لك إنني مدعو من الحكومة!

حدق في ملاحي ملياً وانبثت شفته عن جملة أخذت أستفسر عنها في ما

بعد: أفلك: أنت زلاخ؟

- ماذا تعني بزلاخ؟

- لا شيء..

صمت ونقل وجهه للنافذة فتعبرنا سحب كثيفة ندلف عليها فتتقطع أسفل

جناح الطائرة كالعهن المنفوش..

وصلت الرسالة لتلك الفتاة كما يبدو، كانت قد أزاحت غطوتها وتنقبت

وألقت نظرها باتجاهي باستنكار يبدو أن لا شيء بهيأتي يمنح الناظر ظناً معزواً

باهمية القابع في مقعد خلفي يكفكف حالة تقيؤ تداومه بين الحين والآخر.



ذوى خلف أمه وبقيت عينها الجميلتان ترتبسان بيدي المرفوعة في  
الهواء:

- ماذا يقول لك هذا الجرو؟
- لا شيء.
- أنت وأبناؤك تتآمرون على إتلاف أعصابي... ألا يكفي ما أجده في  
العمل.. ماذا قال لك؟
- قلت لك لا شيء..

كان يشدها من الخلف وكلما أراد البوح قبض على فستانها:  
- إذا لم تخبريني سأجعله يصصرصر بالبكاء؟  
- يقول إذا أردته أن يسكت فاحضري له العسكري!  
كان يجاورني عندما كنت أستعطف عسكرياً، وأنا أتجلجج بالكلمات،  
وعندما عبرنا نقطة التفتيش كان سؤاله عميقاً وبريثاً:

- لماذا تخاف من العسكري؟
  - من قال لك إني أخاف منه.
  - عندما تقف أمام العسكر يصبح صوتك منخفضاً وتحدث بهدوء.
  - اسكت يا ابن الكلب!
  - أرايت كيف تغير صوتك؟
- أبناؤنا هم الوحيدون القادرون على اكتشاف الأقنعة التي نرتديها خارج  
منازلنا...

[٢٩]

مدعو من الحكومة.

ذواتنا الخامدة ننعشها بأوصاف ومناصب تصنعها أوهامنا، بينما حقيقتنا  
تتكشف في أعماقنا (أعماقنا فقط)، نعرف تماماً أننا بالونات مفرغة الهواء ولا  
نجد متبرعاً ينفث زفيره في رؤوسنا المغلقة لتحلق قليلاً ونهبط أسفل الأقدام  
بحركة دراما تكية.

نعرف هذا ومع ذلك نعمن في البحث عن سقوط تحت أي قدم مقابل أن  
نحلق للحظات!

في سيارتي المتهالكة أقف متجلجلاً أمام شرطي المرور ويحمد صوتي وربما  
ترنخف يداي ويتيسر لساني في مكانه... هل هذه الشخصية يمكن للدعوة رسمية  
أن تقيم رعيها من شرطي منسي ألقى في أحد شوارع جدة المهمة..

جئت فلم أجد الغداء جاهزاً، ففزت بكديك مدرب شائماً للحظة التي  
جمعتني بها، كانت منكسة رأسها وألم يتمدد بين ملاحظها فيبطل ابتسامتها  
وصوتي يكرز كآداة طبيب الأسنان جاء صوتها مجهداً:

- أنا متعبة اليوم.

- كل يوم أنت متعبة.

تلذرف جملة واحدة وتصمت كعادتها تترك عينها تسيحان في الفراغ ويدها  
تعبث بأقرب شيء يلامس أناملها، اقترب منها طفلها الصغير ودس فمه بأذنها  
فانفجرت ضاحكة:

- ما الذي تقول يا ابن الكلب؟

- ألم أقل لك أنك زلاخ؟

كانت جبال صنعاء (من تحتها) تنغز خاصرة الفضاء وتنبأها بمدراجاتها  
الزراعية التي تنحدر من قمم تلك الجبال الأبية وعلى السفوح تلمح الرعيان  
وقطعان الماشية يهيمون في خضرة فاقعة، بينما دنا السحاب ليلشم قمماً تعالت  
في ارتفاعها.

- جدة جميلة.

قالها وهو ينظر إلى بهاء صنعاء من النافذة القريبة منه بينما كان المذيع  
الداخلي للرحلة يوصي بربط الأحزمة، خرط همومه فجأة: قضيت بجدة  
عشرين سنة، وفي كل سنة أقول: سوف أغادرها، وأعود لوطني، ولزوجتي،  
وفي كل مرة أعود فيها لبلدي أمكت خمسة أيام، وأغيب هائماً في شوارع جدة  
خمس سنوات أخرى... ابني الأكبر عمره الآن ستة عشر عاماً، أذاكر وجهه  
في تلك الأيام الخمسة التي أقضيها معهم حتى إذا عدت لجدة أجهدت مخيلتي  
لتذكر تفاصيل وجهه.

تنبه أنه كان في حالة هذيان مباحثة فالتفت إلي:

- نسيت أن أسألك، ماذا تعمل؟

- صحافياً.

- أنا أبيع قول بالشرقية لا أعرف القراءة جئت لجدة وعمري خمسة عشر  
عاماً، بقيت فيها أول مرة خمس سنوات متواصلة، وبعدها لم أستطع مغادرتها،  
أشعر بالغربة عندما أغادرها، وحينما حلت حرب الخليج أحسست بأني غريب  
على جدة، وغريب على بلدي، في تلك الأيام أخذتني النخوة، ونزحت مع  
النازحين، عدت لوطني الذي لم أعد أعرفه، آتي إليه بعد كل خمسة أعوام  
فأمكت فيه غريباً سرعان ما أحن لجدة، عندما عدت إليه بعد الحرب، كنت  
مقرراً البقاء معفراً بثراب بلدي، هي خمسة أيام انقضت لأكتشف أنني لن  
أستطيع التأقلم مع صنعاء، كنت أحس باشتياق كبير لجدة، لم أحمل معي شيئاً،  
قبلت مفرق رأس زوجتي وهي نائمة، وعدت لأقف خلف القرن أقلب  
أقراص التمسيس وأدفع حيناً آخر يميني لزوجتي وأولادي... ضاع عمري بين

[٣٠]

- مدعو من الحكومة.

الذي يجاورني في المقعد ارتدى بدلة تخاصمت ألوانها وإن بدا في وضع  
متأنق إلا أن حركاته تنبئ أنه حل ضيفاً طارئاً على هذه الأناقة، يسحب ربطه  
عنته بين الحين والآخر ويسدلها على صدره فلا تروق له، فيحشرها بين فتحة  
كوته الكاكي ذي اللون الأحمر والأرضية الصفراء تاركاً أنامله تطمئن  
لاستوائها، عروق صدغيه النافرة والتي لم تحتجب كما يجب أنكمها بمضغ لبان  
استعصى على الطحن المستمر الذي بدأه منذ إقلاع الرحلة، وكمن أراد أن  
يتوثق من معلومة مشوشة مال نحوي:

- قلت إنك مدعو من الحكومة!

- نعم من الحكومة...

- من دعاك من الحكومة؟

- من رئيس الدولة.

ترك لباته تلوب بين فكيه واتسعت دهشته المستنكرة:

- من رئيس الدولة!!

بخبث أو بسذاجة مال إلي: لماذا لا تجلس بالدرجة الأولى ما دمت ضيفاً  
على الحكومة؟

- وصلتني تذكرة درجة أولى لكن الخطوط اليمنية اعتذرت لعدم وجود  
إمكانية إركاب في الدرجة الأولى لهذه الرحلة.

هز رأسه وصمت ربما همز بجملته التي لم أستبين معناها:



اشتياقين! قررت الآن أن أحمل زوجتي وأولادي ليكونوا بالقرب مني.. وأنا الآن عائد لحملهم معي.

احترمت تدفق كلماته كنت أنظر إلى وجهه الموجل في الغربة بابتسامة مرتبكة وأصغني لكلماته الحارة وشيء يعترك في داخلي على هيئة حمم.. مد يده لسترة جيبه الداخلي وأخرج صورة مكرمشة تماماً:  
- هذه صورة ولدي خالد.

قربها من بصري وشاركني التطلع إليها بهيام:  
- أوصيت جده بأن لا يتركه يجول الشوارع، أوصيته أن يدخله أحسن المدارس، هو يدرس الآن وإن شاء الله يصبح طبيباً.  
- إن شاء الله.

أصابني الامتعاض، واعترك داخلي بشتائم حارة لرعونتي التي تصاحبني في كل حين، لمت نفسي كثيراً أظن أن هذا اللوم ظل جيبساً في صدري، كنت أستخف بكل المقولات التي قلتها، بقيت جملة واحدة تتكرر على هيئة شتيمة أحاول إيصالها لداخلي:

- فوال تحدّثه عن الإستراتيجية الأمريكية... أي غياب هذا؟  
آوه لو علم الأصدقاء بهذه الحذقة حتماً سيقرضون جلدي بنكااتهم المتطايرة.

[٣١]

التلويع شارة مخزية، فعل يصدع بناء علاقة إنسانية عمرت خلال وقت وتشابكت فيه العواطف والحكايات والذكريات.. كل هذه الأفعال تشققها تلويحة يد مباغتة بحركة آلية تشتت أزماناً وأحلاماً وأمكنة وحوادث وحكايات.. تلويحة تقول باختصار شديد: انتهى كل شيء!

فيما كانت الحافلة تعبر الحدود تبقت يدها - لست وثقاً ربما تكون يد لمياء - تلوح وتمسح كل العمر الذي جرى بيننا تمسحه بتلويحة قصيرة..  
كم أكره هذه التلويحات القصيرة المباغتة..

بقيت المضيئة الأنثى الوحيدة المتبرجة تلتقطها عيون المسافرين وتدرس جسدها في مخيلتها في علاقة محمومة، لم تنكرت كثيراً بنهب عيوننا لمقاتنها التي تنكشف في حركاتها العجلة، تركت ابتسامتها الساخرة وعيناها الزرقاوين الشبيهتين بعيني قطرة رومية تجولان بوميض باهت مخففة من بث ضوئها على تلك الوجوه الكالحة وزاهدة من فئران تحرشوا بوبرها فأشاحت عنهم بأنفة وكبرياء مقيتين، يبدو أن وجوهنا جميعاً لم تثر شهيتها بالتحديق أو الملاطفة هذا إذا لم تكن باعثن لتقرزها واشمئزازها من لحظات غزل عابرة.. أو أنها كانت تخشى أن يكون الشبان الثلاثة قد عادوا إلى داخل الطائرة متربصين بحركاتها ليؤكدوا كفرها من خلال حركاتها!!

جسدها الوحيد الذي تبرا من الأغلال السوداء التي اتشحت بها كل النساء اللاتي يقتعدن مقاعدهن داخل كبينة الطائرة، جسد بض وافر الطلاوة واللمعان، بياض زنديها يذكرك بأن جلدك اتسخ بقاذورات الأرحام قبل أن يعرض لنسمة الحياة وعبرها بلون تفتضح أصباغه حين يقارن بمثل هذا الزند

العشش به زغب اشتكى من وهن عتيد، بياض لامع تحط عليه رغبات لزجة  
فتنفذه بتعال سافر، بقي جسدها مستباحاً للجميع تنهيه عيوننا من غير أن  
تكثر للساعات جراتها أو تحتاط من سرقة ماء نهر نهديها، حين كانت تنشي  
لتقديم وجبتنا أو تلبى طلباً لأحدنا لم تكن لتستر شرخاً فلق جبلين عصيين  
وبقي لامعاً كبرق تحجر في عاجر تبحت عن غيثه ليطفئ لظى عطش علق في  
أسقف حناجرنا.

كان مقعدي يطل على مجرى الطريق الذي تقطعه في ذهابها وإيابها، وكلما  
عبرتني احتكت مؤخرتها بمرفقي فأشعر بالخرج.. اقتربت مني وهي تبث  
ابتنامتها حاولت أن تطلق جللتها بالعربية لتتلافى تعطيلاً يمكن أن أحدثه بلغتي  
البتاعية:

- لو سمحت اربط الحزام.

تدحرجت الطائرة على المدرج بصوت ثاقب يصم الأذان وظلت تتدحرج  
لبعض الوقت بينما كانت عيناى مثبتتين على تلك الفتاة وهي تصلح زيتتها وقد  
بدأت أكثر جمالاً وقد تحلقت على خديها خصلات شعر فاحم السواد منحنتني  
نظرة خاطفة وأمعنت في غوايتها بتمرير الوجود (أحر الشفاه) على شفيتها مهملة  
نظراتي المركزة، تخلصت تلك القامات المربوطة من أحزمتها ونهضت لحمل  
حقائبها المستقرة فوق هاماتها بينما كانت المضيفة تعلق بصرها من خلال النافذة  
مترقبة وصول السلم، ارتفع صوت المضيف الداخلي عبر الميكروفون مردداً  
اسمي ومطالباً بتعريف نفسي للملاحي الطائرة.

في تلك الهوجة صرخت بصورة غير لائقة:

- ها أنا هنا.

رافعاً يدي، وناهضاً من مقعدي بصورة غير لائقة بتاتاً.

التفت عيني بعين تلك الفتاة الحارقة، هذه المرة كانت عيناها أكثر اتساعاً  
ولمعاناً، سار شاب في عمر الطائرة حاملاً يافطة متوسطة الحجم كتب عليها  
اسمي، وفي زاوية من تلك اللوحة كتبت التشريفات الجمهورية..

توالت تصرفاتي غير اللائقة بإظهار التأفف من بعض الركاب المتسابقين

على مخرج الطائرة، تقدم الشاب معتزلاً عن اللبس الذي حدث بالنسبة لأمر  
الاركاب، غمغمت بكلمات عجلة وغير منسقة، فاصطحبني لمقدمة الكيبنة  
فمنحني الملاحون أولوية النزول، عندما هبطت كانت ثمة سيارة تقف عند  
مقدمة الطائرة لأجد باب السيارة يفتح فدنست جسدي قابعاً خلف مقعد  
السائق مباشرة، فألقيت بصري نحو الركاب المتجهين للبابص الذي سيقلمهم إلى  
الصالات الداخلية لمحت عينيها معلقة بي وقد ازداد اتساعهما، وكانت يد من  
يجاورني تلوح لي مودعة وابتسامته تنطلق كمصفور حائر بين التحليق والهبوط.



يلفحني هواء صنعاء، فانتشيت كطائر ولید اكتشف فجأة أنه ييسط جناحيه ويرفرف معتلياً الأماكن وممتلكاً كل ذلك الفضاء.

صنعاء هذه التفاحة التي تتدلى في أعماقي وتحقق في كل حين.

كيف تتحول الأماكن إلى لوحة وحين تنخس أيامك وتستفزها لأن تبجر إلى الشوارع والمتاجر والمطارات، والمراقص والمسارح ودور السينما وتستعذب اللهجة وتعشق الوجوه القادمة من هناك وتصصف وتفرض الخارطة لتتعرف إلى ما يجاور ذلك المكان.

(ما الذي يحملنا على كل هذا؟ هل الحب يثبت جذورنا في الأمكنة؟).

قبل رحيلها بأيام كانت على غير عاداتها قالت كلاماً مالحاً:

- أنتم شعب مغرور أشبه بشعب اليهود، فهم يرون أن لا أحد يمتلك الحقيقة سواهم وأنتم كذلك.

وعندما رأيته صامتاً: ألا توافقني؟

وعلى عجل هزرت رأسي مؤمناً على مقولتها: نعم نحن يهودا

ما بالنا نستسلم لأحبائنا ونذعن لكل مقولاتهم ولا نحاول أن نقف في مجرى كلماتهم؟

تتحدّر أصول أمي من مرتفعات جبال البسروات، وفي أحيان كثيرة كنت أسمع أبي يقلل من أصولها حين يشب بينهما التفاخر بعروقهما وقبل أن يمتد غضبها بعيداً يكون قد حط من شأن كل المخلوقات ولم يعد في البشرية من أنقياء سوى دم أسلافها فتضحك حتى تدمع عيناها وتنهض لتسوية غرفة النوم كما فعلت في أول ليلة من عرسها.

ليل بارد.

الليل في صنعاء قارس جائم كرطوبة جدة.. آه جدة، هناك الوجوه الأليفة وصوصة أطفال ظنوا أنهم كلاب مرقشة، فهزوا رؤوسهم على أنها ذيل غليظ ضمر في سجن رولا درافيل!!

في جدة تمضغ الضجر والأمانى تتناثر بين شقوق أيامك في كل حين تمنى أن تخلق بعيداً عن بحرهما الذي لا يرى، أن تتخلص من شوارعها الخلفية الضيقة المنسية والتي تنفث ذكرياتك العذبة، تعلم بأن ترى مدناً أخرى تحس برغبة جامحة لأن تجلس في الحسين وترى القاهرة وكأنها خرجت للتو من البلاط الفاطمي، في جدة ترغب في أن تهجر مامها المالح وتقف على منحدرات الجبل لترى دمشق تنبسط تحت ضوء عينيك وترى الخلفاء الأمويين يتخطفهم الموت وأنت سادر في غيك ومثلذذاً بالجواري اللاتي جلبن من فارس وبيزنطة، ترغب في ترك شوارعها الخلفية وتقف على نهر بردى ذلك النهر الذي حله العشاق والشعراء وشربوا مائه حتى نضب ولم يعد باقياً منه إلا اسم يثير لواعج الهوى الدفين أو تتمحك برغبة رؤية الجمال الفاتن على الروشة حيث النساء الفاتنات متناسياً دمار الحرب الأهلية والأيدي التي أشعلت الحرب الهوجاء، هناك النساء الكفصة التي جمعت من كل بقاع الأرض واحتكرتها بيروت، نساء في بيروت تذكر نعيم الجنة، والحواريات اللاتي سيأتينك راغبات خاضعات متهيئات لتحويلك إلى كائن ممتع، وفي تلك الفنادق المظلة على بحرهما الذي هرب من حرب أهلية ضروس يحق لك أن تمتشق غريزتك وتودعها مستودعاً مستأجراً لساعات كسلى بالخندر والنشوة..

هذه المدن تذكرك دائماً بالحلم الذي كان عليك أن تنجزه من وقت مبكر،

هذا الحلم الذي استيقته رهين أعماقك الآسنة والتي تلوث بالعمل والزوجة والأبناء وواجبات اجتماعية سخيفة، كل هذه الأغلال تحولك إلى كلب وديع مستأنس تربض تحت تلك الأقدام لاهثاً منتظراً أدنى إشارة تبدر من أي إصبع لكي تنبح أو تهزول هنا وهناك، هذه العبودية التي اشترت طوقها بمالك الخاص وباختيار تام تغدو حبيسها، أسيرها الأوحـد في معركة قمت بتحديد ساعة الصفر بها ومع انطلاقتها كنت تقاد بسلسلة طويلة من الواجب.

ويغدو الخروج من جـدة عذاباً والبقاء فيها عذاباً، وحين يزورك حلم الخروج، تخرج فيداهمك الليل في المدن الأخرى وتأتيك تلك الغصة تنحر حنجرتك وتستقر قريباً من القلب.. تذكرك أنك تلهث بعيداً عن تلك الأقدام التي اخترتها!!

أوصاني المندوب الإعلامي قبل أن أصدع لغرفتي بجملة لم أكن أنتظرها:

- عليك أن تنام فغداً صباحاً يبدأ المؤتمر.

يحافيني النوم في كل مكان أصل إليه، كغريب عليه أن يتدبر أين يضع رحاله وأمانيه، لم أتعود النوم مبكراً، فأنا حارس الفجر لا أنام حتى أسلمه لنهاره وأتوثق أنه استلمه كاملاً بقمـره ونجومه وغيبـه وحين تشعل الشمس شرارتها في المدي أغمض أعفاني غير مكترث بالتضجرات التي تمتلئ بها أشدق أمني، وعندما تفيض حسراتها تنثرها على رأسي على شكل دعوات مغمومة أن يرحمني الله من مغبة السهر، فقد كانت تبطن الشك لسيرة فتى غداً مهوراً بالليل وأغاني العشاق وتعرف من جارباتها أن مثل هؤلاء اللئاعين طريقهم الغواية والوقوف في الشوارع الضيقة وهم يغالبون سكرأ أكل ألبانهم أو مخدراً عطل قدراتهم وقادهم لإدمان السير في الطرق المؤدية للسجون القريبة والبعيدة.

وعندما اقترنت بامرأة أخرى أصيبت بالفجعية من زوج لا يرغب في المكوث معها ويظل طوال الليل يبعث بجهاز التسجيل ويطلق تأوهات مع تلك الأغاني التي تقف في طرق الشباب وتضرم لهيب الشوق في جوانحهم، وظلت لزمن تنسل منه الكلمات علها تكتشف من أحرق قلبه وتركه نبأً لليل والأغاني الحارقة وعندما ملئت ألفت النوم على أغانيه المهيجة لذكريات دفينـة يعبر عنها بأهات مديدة.

- عليك أن تنام فغداً صباحاً يبدأ المؤتمر.

وددت لو أن أخرس وصيته بصوت حائق:

- كيف أنام في صنعاء التي انتظرتها طويلاً.

بدأ المساء رتيباً، عندما عبرت بي السيارة عمر المطار لتنعطف وتقف أمام صالة كبار الزوار، الأماكن الرسمية تجلب الملل وتستنهض خصلة النفاق، تخشيت في كرسي فخـم رشت مسانده وخلفيته بقشرة ذات لون ذهبي، هذا الكرسي يحمل طبيعة السياسة، طبيعة المواقف السياسية، طبيعة الأماكن التي تفرز الأحداث، كراس ترش بماء ذهب زائف، كالسياسة تماماً كلها كلام زائف، احتسيت كأس البرتقال، وجوه كثيرة تشابهني سمـرت في كراسيها وأبقت عيوناً تجول كمؤشر بوصلة أصابه العطب، وجوه علقت ابتسامة رشت بماء زائف.. تمنيت لو أنني أستطيع اللحاق بعين تلك الفاتنة التي كانت تجاورني في مقصورة الركاب، هذا الخاطر الأرعن كاد يوقـعني في حرج لا يليق بمدعو أن يرتكبه فقد أصـررت على الذهاب إلى صالة المسافرين القادمين من غير أن أبدي سبباً واضحاً، وقد ارتبك المندوب الإعلامي إزاء هذا الطلب مظهرأ استعداده لتلبية أي أمر احتاج إليه، وينفس ثورة الحماسة التي اعترتني تراجعت مبدياً سوء تقدير لي أنا عليه.

في هو الفندق كانت جموع غفيرة متواجدة في حركة دائمة، أنجز المندوب أوراقـي الخاصة ومنحني مفتاح غرفتي واتجه إلى اللجنة الإعلامية. في الجزء الأيمن من هو الفندق انكبت مجموعة فتيات منقبات على كتابة أوراق وتجهيز ملفات متعددة الألوان تخص ضيوف المؤتمر، حملت حقيبتي واتجهت إلى المصعد



وقبل أن أصل إلى البوابة رأيت فتاة تسير بحمامة .. آه هذه مشيتها حتى اهتزاز وركبها واحتضانها لجذعها الأعلى بيدها اليمنى التفت متابعاً مشيتها اندست بين الفتيات المنقيات وغابت في ذلك السواد، هل يعقل أن أجدها بهذه السرعة، (أعلم بأني مصاب بمس يميل كل النساء لصورة جانبية لوفاء، فكل امرأة أجد فيها شيئاً منها، ربما توهمت أن مشية هذه الفتاة تتطابق مع مشية وفاء)

تحركت متوجهاً إلى حيث كانت ولكنني تراجعت بعد أن تذكرت ما أحدثه التقى من تعكير هيتي ولم أكن مطمئناً للأثار التي تركها في جهات متفرقة من أطرافي، كنت أشك في صلاح هذه الهيئة لاستقبال أي فتاة، فكيف لو كانت هي بعينها.

صعدت على عجل، وتحسست جيبي أخرجت تلك القصاصات التي دونت بها رقم هاتف الجحش وجرت يدي على الأرقام المثبتة في قاعدة الهاتف، جرس يرن في مكان ما من صنعاء، يرن كجرس كنيسة مهجورة، يبقى رنين لا يستجيب له أي عابد، تواصل الرنين حتى مل واستبدل رنينه بنغمات متقطعة وسريعة. أعدت المحاولة رنين الهاتف يتمدد في مكان ما من صنعاء ينادي عليها فلا تجيب، تذكرت تلك المشية الشبيهة بمشيتها، فاغتسلت، وارتديت بدلة جديدة على عجل ونزلت.

كانت الفتيات ما زلن مواظبات على عملهن من غير أن يلتفتن للقادمين، وقفت على رؤوسهن، ماذا عساني أن أقول: هل أسألن عنها؟ .. ها أنا ادخل في التصرفات الرعناء، في كل خطواتي ثمة رعونة تتوالد وتتكاثر خلفه أفعالاً تقلل من الهابة والاحترام، وطدت نفسي علي أن أبذو متزناً فانا هنا أهل اسم بلادي وبجانبتها وعي حضاري كصحافي يجب أن يكون مقنعاً في كثير من تصرفاته وأحاديثه حتى وإن كان تصرفاً زائفاً، كلنا نحتاج إلى ماء الذهب الزائف لنصنع بريقاً لحضورنا، تراجعت بينما كانت إحداهن تعتقل قامتني الواقفة على رؤوسهن ببلادة فوجهت سؤالها بلهجة يمنية صرفة:

- هل أستطيع أن أقدم لك خدمة؟

- كنت أحتاج إلى مفردات الحفل.

- سنوصل كل ما تحتاج إليه إلى غرفتك.  
وأعادت غرس رأسها بين تلك الأوراق الكثيفة، توجهت إلى أحد النادلين متودداً فأبدى استعداداً لخدمتي قلت على حياء:  
- ثمة فتاة هنا أظن أني أعرفها هل يمكن لك أن تساعدني في معرفة عنوانها.

انتفض فجأة وقرض على أسنانه مغناطاً:

- لو أنا قواد لما رأيته على هذا الحال.

عدت أجر قدمي للجلوس على أحد الكراسي المظلة على الخارج ومن خلف زجاج البهو تبدو صنعاء شاحبة، لا يوجد هنا سوى الضيوف والعاملين بالفندق ومجموعة من رجال القصر الرئاسي والإعلاميين بينما أهل اليمن يظهرون من خلف ذلك الزجاج السميك كهياكل تمعن في البعد ..

جذبني أحد المندوبين الإعلاميين في تعارف سريع ببعض ضيوف المهرجان من الإعلاميين العرب، كل الأسماء لا تمسك بها، ويصبح من الإخراج أن تطالب أحدهم بأن يعيد ترديد اسمه فتجد في كلمة يا أستاذ خرجاً لطيفاً لضييق أفق ذاكرتك فالألقاب لها فوائد في مثل هذه الحالات.

هذا اللقب ليس منجاة على أية حال، فهناك أكاديميون يرون أن مناداهم بلقب أستاذ بعد نقیصة لمكانتهم العلمية، وحين يصبحون بروفيسورات يطالبون بمناداهم: الأستاذ الدكتور.. ومثل هؤلاء ليسوا ذوي جدوى.

من ذلك التعارف السريع استطاعت ذاكرتي أن تقيض على ثلاثة أسماء: اسمي أول شخص وآخر شخص: أنور وعمر، وسلوى هو الاسم الثالث للأشئ الوحيدة في هذا الوفد.

تتلى كاميرا متطورة من عنق عمر فتستوي كقلادة توسط صدره العريض، قامته الفارعة ونظراته الفاحصة تشعرك بأن الحياة تجري في جميع عروقه، وأن هذا السكون يتكوى على وجهه كالنفائات المكسدة فتجرفها ضحكاته ككاسحة مهمتها إبقاء الحياة منتشية راقصة بين شفتيه، وجهه حديثه إلينا من غير تحديد شخص بعينه:

- أليس هناك ما نعمله سوى الانتظار؟

كانت مجموعة الوفود لا تزال منغلقة فقربلت جلته بالتحديق في وجهه من غير أن يحد رداً، فأردف:

- نريد أن نخرج.

رد مندوب الإعلام ضاحكاً: إلى أين يا أستاذ عمر..

- إلى أي مكان فهنا الهواء مملب..

حاول المندوب الإعلامي أن يوازن بين كلماته:

- صنعاء ليست كالقاهرة أو بيروت، فصنعاء تنام مبكراً.

كل تلك الفتنة تنام مبكراً، هل يعقل أن ينام قصر غمدان والقليص، وعرش بلقيس والبردوني والمقالح وشجر القات وأن تأوي أسوار وقلاع الإمام للنوم بعد ثورة فتحت كل الأبواب؟ هل يعقل أن تنام صنعاء في هذه الساعة من غير أن تستذكر آلاف السنوات..؟ ألم تشيع من النوم الطويل في حضن الإمامية؟

الغيب لا يعني الإلغاء، نحن الذين نغيب الأشياء ونستحضرها، نحن أقلام تكتب ما تشاء وتحكي ما تشاء، ثلاث نساء استحضرهن دفعة واحدة: زوجتي ووفاء وسلوى.. تحضر اثنتان منهن، وتغيب سلوى مع أنها حاضرة أمامي لكنها غائبة في حضورها..

كانت تتمحك بي: لو كنا خارج هذا المكان سيكون الوقت أجمل.

تبادل المباحكة، أعمق الكلمات الجارحة في أعماقها، وأثور حين يمسي لسانها، كانت تبحث في كل سنوات زواجنا عن تلك المرأة التي أحرقت مستقبلها برجل شاركها حياتها بنصف قلب محروق، كانت تبحث عن وسيلة تبقي هذا النصف حياً معها على أقل تقدير، وفي كل مرة تكتشف أنها استلمته كانتا منتهي الصلاحية:

- لماذا لا أكون معك في سفرائك المتلاحقة؟

في كل سفرة أحمل فيها حقائبي هرباً من هذه الأوتاد وبحثاً عن سفيتها التي شقت البحار وتركتني كراكب أخرج نسيته على إحدى الموانئ من غير أن تظن أنها نسييت قبطانها، أسعى في كل سفرة أن أكون وحيداً علني أجدها راسية في ميناء من الموانئ التي أجوبها بحثاً عنها..

- لماذا لا أكون معك في سفرائك المتلاحقة؟

أثور عليها فتعصم بصمتها منكسة رأسها عابئة بأناملها أي شيء يجاورها. قبل عام تماماً انفجرت براكينها، قذفت بحممها في كل مكان، لم تعد



تلك الساكنة التي تعبت بأناملها بأي شيء يجاورها غدت صورة لأملها،  
صورة مستفزة تألب داخلي لأن يحرق كل الخطب الذي هيأه لإشعال جسد  
جعدة - كما كنت أشتهي دائماً - حملت سكيناً صغيراً في يدها، وأمست  
بشيء مهدة:

- سأقتل إن خرجت!

- دعيني أمضي فوقك الرحلة أرف.

لن تمضي قبل أن أقتلك، أو تطلقني.

طلقة الرصاص تحتاج إلى الضغط على الزناد فقط لتمضي مخترة الأجساد  
والكون معاً.. شددت شعرها بعنف:

- أنت طالق.. طالق!!

كان هواء ثقيل يعبر المكان، فيبعث بكل شيء، ويتساقط كل شيء..

الآن وكلما حزمت حقائب السفر أغلق باب شقتي بهدوء بعد أن أودع  
أطفالي عند جدتهم، وأمضي نحو أمل يغور في تضاريس اليمن.

ها أنا في ميناء صنعاء، أتلقت في كل الوجوه علني أصطادها، وجبروتها  
ينز من كلماتها القديمة:

أنا ابنة حضارة موعلة في الزمن أما أنت فجدورك رخوة.

لماذا ترصد لمئات السنين فجأة.. ترصد للعروق بينما الأوراق متبسة جافة..  
ها أنا في عمق الحضارة التي تحدثت عنها لاحقاً حينئذ قديماً وأهرب منه  
فيه..

وها هي سلوى الحاضرة الغائبة تبحث عن مكان تنحرف فيه مللمها، اسمها  
الشاعري يعوضها عن تلك الدمامة التي أشعرتنا أننا ما زلنا نبحث عن أنثى  
تطري هذا الجفاف الذي يقتالنا في مدينة الجمال، أجل شيء أن تشاهدها من  
الخلف فمؤخرتها المتوترة وشعرها المظفر على هيئة حية يجلد فحولتك ويدفعك  
لأن تحسن هندامك وتختار الكلمات التي لم تأت على لسان لتتحدث مع هذه  
المهرة المدبرة وستترجل - في الحال - عن صهوة الكلمات بمجرد رؤيتها  
وستشعر معها بألفة الرجال ولن تخشى على نفسك لو تركت أنت وهي في

مكان موحش قريباً استطاعت أن تتحمل عنك مشقة الخروج من كل الكوارث  
بذلك الوجه الفظ وكأنها استعارته لمثل هذه المهمات..

تنحى بعض المندوبين الإعلاميين للتشاور في خروجنا، كان ينتابهم إحراج  
من عدم تلبية طلبنا الأول، ولم نخفف من هذا الحرج بل صعدنا طلبنا بتصميم  
تردد على مسامع الكثير منهم، وبسبب ذلك التصميم اجتمعوا وتناقشوا وقرروا  
تلبية رغباتنا الأولى...

وتوقفوا لاسترضاء فاروق ليصاحبنا في نزهتنا الليلية، جلس على مقعده  
في بهو الفندق كتتمساح هرم يتشمس من ماء آسن بلبل حراشفه وترك له جلدأ  
رطباً، بدت ملامحه ناضجة لم يصيبها التأكد رغم أنه غمر بستين عاماً أو أكثر،  
تمنع في مقعده متحدثاً عن خشيتي من فورة الاختطافات التي يشهدها اليمن  
وحمل الأفغان العرب مسؤولية تلك الاختطافات لفرض وجودهم كقوة مؤثرة  
من خلال اختطاف الأوروبيين ليخلق لهم ثقلاً سياسياً.. هذا التعليل كان  
مقدمة، اعتذاراً من فاروق بانعدام الرغبة بالخروج مع المجموعة، لزوجة  
سلوى وحرصها على مرافقته ضخمت نفوري منها حيث دلقت جملة إطرأ  
طويلة له كأستاذ تعلمت على يديه فنون الصحافة، لزوجتها اتضحت من ترديد  
سؤالها الذي لم يتبه لاعتذاره وحذره من مغامرة تعيده للماء الآسن:

- أستاذ فاروق ستكون نزهتنا لا قيمة لها لو لم تكن معنا.

- يا ماما لدي حفيذة جميلة أريد أن أشاهد عرسها.

تدخل عادل (صحافي أردني أنهى مهمته الصحفية مع أول يوم للمهرجان  
وعاد لعمان تلبية لمهافئة تحبيرة بضرورة اللحاق بروح أمه قبل أن تصعد إلى  
السماء) تدخل عادل في الحديث:

- وما علاقة عرس حفيدتك والخروج؟

مسح على ذراعه اليمنى وعلق إبتسامته في وجوه المحيطين به:

- ألم تسمع بالاختطافات الحادة؟

عقب عمر:

- هي فرصة للخروج بضربة صحفية.

ساعتها لن تفكر في صحيفتك ستفكر في أطفالك وأحبائك الذين يذوبون أمام شاشات التلفاز لرؤيتك سليماً.  
تحولت مرافقة فاروق في نزھتنا إلى مهمة تبرع الجميع لثنيه عن تمنعه الثقيل....

- أستاذ فاروق لا تضخم الأمور.

- أنا هكذا.

- الخاطفون لا يستهدفون العرب بأي حال من الأحوال.

- ربما سحتني تجربهم بأني أرمني.. أو ألماني ساعتها لن تجدي لغتي في إثبات هويتي!

قفزت سلوى من مكانها: أستاذ فاروق أخفنتي على نفسي فسحتني تدل على أني أوروبية.

تطلع إليها عمر بنصف ابتسامة، شعرت بعدوانية مبكرة معها، خذلني لساني بإخراج ما يموج في داخلي:

- سحتك لا تدل على أنك من أي مدينة على الأرض!!

- ماذا تقصد؟

كدت أفجر خصاماً لا داعي له، فاستدركت على الفور:

- أنت خليط من أجناس متعددة، ولن يلحم أحد أنك من هنا أو هنا ربما شعرك فقط يدل على أنك امرأة!

- هل هذه شتيمة؟

- لا، أبداً.

تدخل عمر ليدفعنا جميعاً: السيارة تنتظرنا.

نحركنا ويد فاروق ما زالت تمسح جلده الرطب، وقد استقر على طاولته فنجان قهوة تركية من دون سكر، وبقيت عين سلوى تنزعه من مقعده برجاء أخير.

[٣٦]

صعدنا إلى الحافلة واستقر كل منا في مكانه وحرص بعضنا أن يكون مقعده مطلقاً على الشارع، وقف مندوب الإعلام حائراً: أين تودون الذهاب؟  
- إلى أي مكان نشاهد فيه صنعاء.

ربما اشتركتنا جميعاً في التلفظ بالجملة السابقة، تشاور مندوب الإعلام مع سائق الحافلة واتفقا على الذهاب إلى جبل عصرية.  
أحاديث متداخلة بين الوفود وحكايات تعارف تكشف حجم البالونات التي نحملها في داخلنا عن هذه الذات.

كان مجاورني أنور، صحافي يعمل بجريدة إماراتية غادر سوريا منذ خمسة عشر عاماً أو أكثر. انشالت الحكايات بيننا وتوثقت معرفة الأسماء وتفاصيل مبعثرة من حياة كل منا.

من خلال منعطفات عديدة وقفنا فوق جبل عصرية وصنعاء من تحتنا تغطي بردائها نصف جذعها وتنهياً للنوم.. ها هي صنعاء التي انتظرتنا زمناً طويلاً كي أركض في أوردتها ها هي تنام مبكراً غير مكترثة بهذا العاشق الذي جاء ينقذ في فساتينها عن عقب العشاق ويرتق في ذاكرته كل حكايات التاريخ التي ازدهت في مخيلته، وها هي بلقيس تغادر عرشها من غير أن تلثفت لمن انحنى أمام عرشها.. ها هي تتصرف كالمملك تفضي دون اعتذار وتترك في بلاطها كل العشاق يتلون قصائد هوى أحرقت الحشايا، تتركهم منتائرين كالمستجدين يمدون أيديهم والستهم من غير أن يجودوا عطاء لكل تسولهم.

لا بد من صنعاء وإن طال السفر

ها هي قرية بعيدة، باردة نائمة..



عياش يحب عدن أكثر من صنعاء، يرى صنعاء مدينة صخرية ولدت قلوباً جافة كصخورها التي تناولت بسيقانها وفروعها حتى غدت ثمرة ناضجة تمتع الإمام بلذتها الطازجة وأبقاها سنوات طويلة بين نواجذها وعندما أسقطه السلال من هذه المتعة كانت تلك الثمرة نصف ثمرة تخشى من أن تصل الفطريات لقضم ما تبقى منها.

السائق يبدو حذراً فقد تركنا نقف على جبل عصرية بينما أخذ يمرر عباراته المتخوفة:

- نحن في مكان يمكن الحافظين من جرّنا كالأغنام ..

مغامرة شيقة .. كنت أمّتي النفس بحدوث مثل هذا، ماذا لو خطفنا سوف تتناقل وسائل الإعلام خبر اختطافنا وستعرف أنني جئت أبحث عنها فوقعت في شرك الحافظين، هذا الشعور اللذيذ استشوك للإعلام العربي لا يذكر أسماء الحافظين وليس هناك إعلامي ميداني يمرّ على الذهاب إلى معسكر الحافظين وأخذ صور حية للمختطفين وبهذا تكون مغامرة حمقاء لو حدثت ..

مقولة السائق حركت الرعب في قلوب بعض الإعلاميين ونشطت فكرة العودة سالمين قبل حدوث ما لا يمكن تداركه ..

إبراهيم المؤذن هل أجده هنا، هل سيكون برفقته ياسين، خلال السنوات الماضية كانت تأتي سيرتهما عبر تناقل أخبارهم من بعض العائدين من أفغانستان، أخبار عديدة آخرها أن إبراهيم المؤذن توجه لليمن بعد أن حاولت باكستان تسليمه للسعودية، فهرب متخفياً لليمن وأهله يجزمون أنه في السودان، فهل تحول إلى خاطف؟

وياسين هل انقلب على الأمريكان الذين حملوه من حي بائس ليكون ربيباً لهم فإذا به ينكص من هناك بحثاً عن شعر أشقر ليصبه طعناً .. اختلف زمن الطعن فحين كنا تتعلق بفروع الشجر مطلين على السفارة الأمريكية، كان ياسين يبحث عن جسد لدن يطعمه للمتعة أما الآن فهو زمن الطعن المستوحش!

لا، لا، المسألة ليست كما أفكر فيها مستسلماً لتلوث الإعلامي الذي نقرأه كل يوم...

ربما يكونان هنا، يبحثان عن حياة تبعدهما عن الزنازين .. ياسين تزوج بامرأة أفغانية وخلف ابناً يبحث عن جنسية أي دولة يمكن أن تقبل بضم نسل الأفغان العرب لمواطنيها ..

عادت سيرة إبراهيم المؤذن وياسين على السنن أهل الحي مع تفجرات الخبر، قيل إنهما ضالعان في العملية، وأن أجهزة الأمن تترصدهما بعد أن فرا إلى اليمن أو السودان، وحين كان العم جابر يقتاد حفيده بحثاً عن منزل ينزل به حفيده وزوجة ابنه كانت خشية أهل الحي أكبر من مجاملته، فخرج على عثمان الوردي الذي منحهما نزلاً بسيطاً في عمارته الأيلة للسقوط.

أعاد السائق جملة لتعميق الخشية في قلوبنا:

- بصدق أخبركم أننا في منطقة تسهل مهمة الحافظين من جرنا كالأغنام.

صرخت سلوى بصوت ثاقب:

- عودوا بنا للفندق فانا أخشى على نفسي.

قلل أنور من جزعها مفترضاً أننا في مهمة صحفية في أرض معركة بلا جنود...

فصرت كآلة حديد صدئة: عودوا بنا للفندق.

وجد المندوب الإعلامي في صراخها فرصة سانحة لثني رغباتنا من أن تمتد لأطراف أخرى من صنعاء:

- السيدة سلوى على حق علينا أن نعود للفندق.

أعطى إشارة للسائق بالتحرك، فعادت السيارة تتمايل هابطة من ذلك المرتفع بينما ظل الحديث فتياً عن جمال هذه المدينة النائمة التي تتقلب متبرجة من غير أن يمسهما بشر.

كانت الحافلة تنهادى في نزولها ومع عتمة المكان الملح أشباح الأفغان العرب مزروعين في أماكن متفرقة من ذلك الجبل، المنحهم يهلون كأسراب الجراد، يعترضون سيارتنا .. وقف ياسين بين أهداي معتمراً بعصابة حمراء حاملاً رشاشاً متمتماً بأدعية لا تسمع .. لمحتة يسوقنا أمامه كالأغنام السائبة.

- لا شك أنك سمعتم . تصوروا توجد فرقة غنائية .

بدا على أنور ومحمود أنهما ليسا مغرمين بالبحث عن مكان لقضاء الليل فيه ، وبرهن مصطفى على عدم رغبته بالنهوض معتذراً وهاماً بالمغادرة لغرفته مظهراً عدم رغبة في المكوث داخل الملاهي الليلية فانطلقت كمية كلمات غبية من فمي :

- نحن نعرف أن المغرب نساء وخر .

جهلي استثارت ملاحظه الوقورة ليستخدمل الطلقات نفسها :

- أنتم الخليجيون الباحثون عن المتعة الساقطة لا تعرفون من المغرب إلا هذا الوجه بينما الآخرون يعرفون حضارة المغرب ، يعرفونها جيداً .

- أعتذر ، يبدو أني أغضبتك .

- لا عليك .

تقبل اعتذاري بطيبة متناهية ومضى هازأ رأسه وملوحاً بيده :

- أقتنى لكم سهرة جميلة .

عرفت فيما بعد سبب زهده في النساء والمراقص ، وربطت بيننا حكايات مسائية في بقية الليالي ، علمت اتساع البهجة لديه حينما يكون بجوار أسرته الصغيرة ، غدت أسرته الصغيرة الدنيا مجتمعة كتكفير عن أيام الشباب التي قضاهاملاً حقيقة سفره بيسارته فانصأ المتعة في الملاهي والأسواق والنفادق وأينما وجد فريسته نام بجوارها ينش جسدها وعينه تترى بفرسة أخرى ، ووصل به الأمر أن أباه قضى نحيبه وهو في مطاردة لفتاة من طنجة أضرمت فحولته وأنسته تلبية نداءات أبيه ورجاء أمه ، ويعد أن مل من رؤية نهديا الجليلين ، وقف على عزاء متأخر لرحيل أبيه بسبب لثري دم كان من الممكن أن يقدمهما له ويؤخر رحيله بعض الشيء .

عنياني تحاولان إغراء أنور بالمكوث وقضاء ليلة عابثة ، استقبلني وجهه من غير أن يبين غزونه ، تحملك تضاريس وجهه الجبلية إلى أيام البوأسل الذين رحلوا مع سيرة الزير سالم وعنترة بن شداد ما زال يمسك دروع النخوة والفروسية مجتمعة ويخرج الكلمات الحجرية كما هي من غير أن يحلو له

وصلنا إلى ردة فندق تاج سبأ وانسل الكثيرون إلى غرفهم ، بقيت مع عمر أنور ومحمود فاعتدنا مقاعد مجاورة لرجل الاستقبال (رجل هندي في كامل قيافته يبدو أن مهمته الأساسية أن تظل شفتاه منفرجتين مبيتين ودأ زائفاً يرسله في اتجاهنا كلما تلاقت عيوننا) تلتفت عمر كثيراً في زوايا اللوبي مبدياً ضجراً زائداً :

- لم أكن أتوقع أن تستقبل صنعاء ليلها بهذا البرود .

محمود كائن حكائي يعشق الحديث ليثر عليه ملح روحه الحلوة :  
لنجلس نتحدث قليلاً ويصعد كل منا إلى غرفته متى ما مل من الحديث أو نازعته رغبة النوم .

صحت بضيق يقترب من ضيق عمر :

- حديث . . كل حياتنا أحداث فماذا حصدنا منها إلى الآن ؟

هذا عمر صلصلة ضيقي محدثاً المجموعة : سأتيكم بخبر فانتظروا .

تحرك عمر باتجاه رجل الاستقبال متودداً ، تفللقاه بابتسامته الزائفة مرحباً ومبدياً استعداداه للخدمة :

- أنا وزملائي يجافينا النوم . . ألا يوجد مكان نقضي فيه هذا الليل ؟

- هناك صالة في الدور الأرضي توجد فيها فرقة فيليبينية تؤدي وصلات غنائية .

- وصلات غنائية ولماذا لم يجبرنا أحد بهذه النعمة !!

أطلق عامل الاستقبال ابتسامته هازأ رأسه ومبدياً احتراماً فائقاً لتلك الجملة التي أطلقها عمر بلهجة السودانية من غير أن يفهم معناها ، تمايل عمر أمامنا كسفينة مثقلة الحمولة :



تشذيبها كما يليق برجل وصل إلى القرن العشرين متأخراً، خرج من العصور الجاهلية يمسك بنسب عربي صرف لم يقم فيه أعرافاً أعجمية وظل يفاخر بهذا النسب حيال كل دعوة للمهادنة ويستكف أن يتحول إلى باحث عن المتع من أجساد مضغتها العيون وترى عليها أفواه في لحظة شبق مدفوع الشمن..

وربما كانت تقف في خيلته مدينة حماء سابعة في دمه ولاعنة نظاماً استباح عورتها وترك أجساد أبنائها مجندين في شوارعها يبحثون عن قليل من الثرى يوقف بشاعة اللحم المقروم والدم الجاري، حين روى لي كيف حمل إخوته هارباً من تلك المجزرة فاضت دموعه فتحجر كتمثال لم يشأ أن تشوه ملامحه بهذا الماء المنسكب من صنم قد من حجارة صلدة، توقف عن رواية مجزرة حماء مراراً، وفي كل جلسة أستعيد سرده فيمنحتني قليلاً منها ويتوقف كي لا تشوه الدموع قامته الصخرية.. ربما ما زال يحمل جثمان أبيه ليسرقه من دمائه المسفوحه في شارع لم يعد يعرف ساكنيه، سرقه قبل أن يدهك بالمجنزرات ولم يقدر على مواراته فقذف به في إحدى البيارات وتسلس بأسرته الصغيرة ليستقر بالإمارات، بقيت جثة أبيه تطفو من خيلته تنز بروات البيارات القذرة فلا يجد من فعل يفعل له سوى إطلاق شتائم تصل إلى أشرف وأرذل الزعماء العرب، وما زال يحلم بخيل أصيل يحوم به في أرضية المعركة التي لم تحدد بعد..

أنا وعمر جئنا عطشى نحن لرؤية امرأة لا تشبه النساء، مغرمين بسفك مشاعرنا في الطرقات بابتذال مسلطين ضوء عيوننا على كل خطوة لأنتى تعبر حاجرتنا.. لم يستقبل فرحة عمر بالملمى الليلي إلا أنا، ومع عزوف محمود وتضجر أنور لغياب الناس صائحاً في كل حين:

- جئت لألتقي باليمن ورجاله وليس الجلوس وسماع الغناء.

- هل يعلم بأي بعث كل شيء من أجل امرأة؟

لولا أن علاقتنا لا تزال طرية لربما سألته: أنور ألم تحب؟

تحرك عمر غير مكتوث بما سال من فمي الاثنتين فصاحت به:

- خذني معك.

## [٣٨]

كان الملمى - هذا التعبير ليس دقيقاً لسببين أولهما أن لفظة ملمى كلمة مشبوهة ويزدريها اليمنيون كراهية لمضمونها، وثانيهما أن المكان لا تنطبق عليه موصفات الملمى الليلي كما يعرفه رواد الملاهي الليلية ويمكن توسط المسألة والقول إن المكان عبارة عن صالة أراد لها القائمون على الخدمات أن تكون متنفساً لنزلاء الفندق - كان الملمى عبارة عن صالة صغيرة استقر العازفون في مواجهة الجمهور الضئيل بترديد أغنيات غربية وعربية وفق مزاجية المستقبلين لهذه الأغنيات، تكونت الفرقة من ثلاثة عازفين أحدهما على الأورغ وآخر على الدرامز وثالث على آلة لا أعرفها بينما ترك لفتاتين حق الغناء وبقي العازفون من الخلف ككورال مهمته ترديد أجزاء من المقاطع التي تنطلق من حنجرتي تلك الفتاتين وفي أحيان مشاركتها في أداء الأغنية بتقاطع يحدث جماليات للأداء..

فتاتان فيليبينيتان صوتهما ناعم ووجهاهما مألوفان يذكراك بالمستخدمات أو المرضعات اللاتي تضح بهما مستشفيات القطاع الخاص والحكومي بمدينة جدة، الفرق أن هاتين الغنيتين تخليا عن كثير من ملبوساتهما وتركتا نديهما نبياً للعيون المحلقة عن شيء يتم مضغه قبل أن يفقد المرء جواره، تتقافزان يميناً وشمالاً كدمى سينما الصنع في رقص عشوائي زاد من عشوائيته التهام الموسيقى الصاخبة لصوتيهما وتغنييه في معظم الأحيان، الأضواء البراقة الخافتة تبعد الصورة الحقيقية للمغنيين، تشعر بتكسر غنائهما للفتنة الرثة، ليس هناك من نساء لتلبية شبق الحضور سواهما ويبدو أن عليهما إمتاع ذلك الحضور المتواضع من خلال الغناء وفي أحيان الاقتراب من الاستعراض بالجسد الكاشف عن

أنوثة متواضعة، فملبوساتها ارتديت بنية تحريك المياه الراكدة في قلوب الحاضرين، ومثل هذه الملابس يمكن للعارضات ارتداؤها غير محتشبات لظهور المفان العميقة.

شعرت بالملل ومطيت على كرسي دائرياً مكن رقبتي من التجول بين الحضور علني أقتنص فتاة تليق بصرف ضوء العين بإسراف، لم يكن هناك سوى عيون تقترب من حالة الشبق وتمارس هتك الملابس القليلة المعلقة على الجسدين الناحلين لتتمتع بالعري الكامل وتطبق غيلتها على ذلك العري من غير أن تنهض كلمة لوم عابرة.

أحصيت من هم داخل الملهى: ست نساء، وثلاثون رجلاً وخمسة يمثلون الفرقة الغنائية، وأربعة عمال مهمتهم تلبية وإرضاء هذا العدد من الباحثين عن متعة ليلية حتى لو كانت بهذا البؤس.

سحنات الحضور تحمل تضاريس متباينة، كل الأعراق تواجدوا من خلال ذلك العدد الضئيل: الأصفر والأسود والأبيض، كل هذه الأعراق تجمعهم مهمة الجنس المقدس..

نحن كائنات أمينة مع فطرتها، نسعى لأداء هذه المهمة بغريزة طبيعية إلا أننا نتبادل الحجل كلما وقف أحداً على هذه النية الثيلة، نية مواصلة زرع أجنة في رحم الأرض لكي نفتخر أننا كنا هنا.. صبيبنا مائناً وأنجزنا مهماتنا على أكمل وجه.

استقرت عيناى على فتاة مثقبة تجلس مع رجلين في زاوية الملهى - من الجهة الخلفية لمقعدي-، ها هي وفاء تقف من خلال عيني هذه المرأة المستترة بنقابها والضوء الشاحب المنعكس على وجهي مرفقيها، لم تكن تلتفت صوب أحد تحتسي البيرا بعد أن تدس الزجاجة أسفل نقابها وترشف منها ما استطاعت وتعيدها لموقعها منصتة لهمس طويل سكب أحدهما في أذنيها، كنت أحتاج إلى الالتفات الكامل لرؤيتها، هل هي الفتاة نفسها التي رأيتها البارحة ودست جسدها الحيزراني بين المنقيات الإعلامية، لو كانت هي لما تمكنت من السهر في هذا المكان المشبوه ربما تكون امرأة أخرى فأننا مسكون بوفاء، مسكون بها

كاللعة، بحثي عنها في كل النساء جعلني رث العواطف أسكب لوعتي على وجه كل أنثى.

انتصبت أذناى عالياً متلصصتين بما يمكن أن يصدر من فمها، وكلما أصغيت نهضت الموسيقى الصاخبة لتعكر ذلك الإصغاء.

بين الحين والآخر ألتفت في محاولة للتدقيق في وجهها فأصدم بوجه أحد مرافقيها، كانت نظراته وقحة مزوجة بتهمك طاعن، فأتراجع عن مهمتي وأتأشغل بالنظر للراقصتين الفيليبينيتين.

عمر غارق في احتساء مشروبه ومبادلة الغنيتين الغناء والغمز المكشوف، تركني أقلب بصري وارثشف من زجاجة البيرة ما يجعلني أخسر نصف تركيزي.

ألتفت كان مقعدها فارغاً، لمحتها تتقدم الرجلين صوب المصعد، فنهضت في أثرها خطواتي المتباطئة مكنت آخر قدم أن تصعد، وقفت أنظر في أي دور يقف المصعد، بينما كان النادل اليمني منهمكاً بتنظيف منافض السجائر المجاورة للمصعد كدت أسأله لولا تذكري إجابته السابقة:

- لو كنت قوادماً لما كان هذا حالي.

عدت إلى موقعي محاولاً نفخ الهواجرس التي انتابنتي لرؤية تلك المرأة، وإن كانت ثمة رغبة تراودني بالبقاء أمام المصعد على أحد الثلاثة ينزل، استسختف تصرفي وهزأت من رعوتي:

- أظن أن نساء صنعاء كلهن وفاء.

تناست الوضع وأخذت لاحق تلك الفيليبينية بنظرات ظمأى وأحاول خلق وهم بهجة في ليلة بائسة ليس فيها سوى ملاحقة الأحداق للأحداق، تجرعت ثلاث كؤوس من البيرة وفي كل مرة أشعر بالغثيان يصعد إلى سقف حنجرتي فأجزم ألا أشرب ثانية وإذا عاد النادل بزجاجة جديدة لا أدفع يده التي تصبها كاملة في تلك الكأس المستقرة أمامي.

تمدد الغثيان في حنجرتي فقررت المضي إلى غرفتي، أشارت إحدى



المغنيين بيدها واتسع فيها عن ضحكة بحجم حبة العنب الناضج تسمرت في مكاني، وخالطني شعور بالمرح:  
- لتكن ليلة فيليبينية.

كنت راغباً في طرح هذا السؤال على عمر:

- هل يمكن أن تضاجع امرأة فيليبينية في صنعاء؟

أن تترك مقاييس الجمال العربية لتسفل خلاصة دمك في بئر ضيقة لا يدرك أهمية محافظة العرب على أعراقهم وتخير أماكن لتطفهم..

لم يكن عمر في حالة تسمح له بالدخول في حوارات عرقية (عرفت في ما بعد أموراً كثيرة عما يجب ويكره) ويبدو أن سيرة الأعراق تلهب حواسه وتقلل من انطلاقة، يحس بأنها أثقال تعيد لمعصيه أساور العبودية، يكره أن تصف أحداً باللون، مرد ذلك معرفته بأن لونه مسية صامته، لون منبوذ مكن الجلد الأبيض أن يستفزه ويصمه بالعبودية.. اتضح ذلك من جملة انفلتت من أحد الإعلاميين اليمينيين حين طلب عمر منه - في أول الليل - شراء قنينة خمر فاعتذر ذلك الإعلامي وقبل أن يتعد حدث زميله بصوت حاول إيصاله لأذن عمر:

- تصور هذا العبد يطلب مني شراء خمر!!

انسحب عمر واختلط مع الوفد وكأنه لم يسمع تلك الجملة التي تنبذ، في ما بعد كان عمر يصرح (بمناسبة وغير مناسبة) أن أسرته ذات جذر عربي صرف هجر الجزيرة العربية مع الفتوحات الإسلامية المخترعة لأدغال أفريقيا.

حاولت التغلب على الغثيان الذي تسرب إلى داخلي بمبادلة المغنية الفيليبينية النظرات والضحكات والغمز المستمر، هذه الحركات أنعشت داخلي وجعلت للسهر معنى في هذه الصالة المخنوقة بالدخان والضوضاء، كانت ترشقني بنظراتها بين الحين والآخر.

ما الذي يغريها بملاحقة عيني؟ هل تغريها غترتي بالتطلع كوني أمثل ملبساً يحمل ثقافة عن النساء تختلف جذرياً عن الموجودين.. ليكون ما يكون فهذا التراشق خير أداة لقتل لحظات الملل هذه.

انتهى الدخان، هل يعقل أني نسفت عليه كاملة خلال ساعتين؟ لن أستطيع البقاء من غير هذه الآفة.. هل أترك هذا التميز وأصعد إلى غرفتي لجلب علبة أخرى.. لا لن أنهض.. طلبت من النادل أن يزودني بعلبة دخان.. وصلات غنائية تتابع وفي كل أغنية أحاول أن ألتقط رسالة موجهة من هذه المغنية الحمقاء التي دقلت كل ذاتها من خلال تلك النظرات المتتالية حتى أنها منحنتني وجهها طوال الوقت وأوكلت لصديقتها مهمة استرضاء ما تبقى من الجهة الأخرى للمصالة.. بدأت أركز في الكلمات المغناة مجاهداً أن أصل إلى بعضها، فلغتي فقيرة منذ أن درست المراحل الثانوية حتى تخرجي من الجامعة وأنا أحل ذكرة حار أعيته تلك اللغة ولم أستطع إيجادها كما يجب (خشيت أن يتكرر موقف المضيفة مع هذه المغنية).. كانت مع كل أغنية تقلب دفترًا استقر على حامل أمامها.. أهملت أحاديث عمر التي انبثقت فجأة بفعل السكر وسمرت عيني عليها.. قمت بهذا التسممر نتيجة وصية أوصاني بها طارق بن عثمان الوردية فهو دونجوان استطاع بأساليبه أن يجمع حوله نساء عديدات كنا نسير في شارع قابل، خرجنا بغرض تكحيل عيوننا واصطبياد لحظة نشوة من عيون النساء المتسوقات، في عيشنا هذا غدوت طعماً لامرأة دميعة كانت تتابعني بصورة مزعجة، وعندما أبديت تذمري له أطلق وصيته التي غدت قاعدتي الأثيرة في تتبع النساء، فعل ذلك بحركة صبيانية مليئة بالشغب أمسك بأذني - داخل السوق- وقال جملة طويلة أظنها هي القاعدة الذهبية لكي تتزين بكل أشكال النساء:

- عليك ألا تشاغل الجميلة فهي مشاغلة من قبل الجميع، اختر امرأة أقل جمالاً في اصطبياد من هي أكثر جمالاً فحين تهمل الجميلة على حساب الدميعة فإن هذا الإهمال يوغر صدر الجميلة فتبدأ هي بمشاغلتك أما إذا شاغلتك امرأة ما فلا تهمل هذه المشاغلة لأنها تقود بقية النساء لمشاغلتك.

هذه الوصية أثبتت نجاعتها في أحيان كثيرة.

أطلقت سهمين تجاهي: غزمتها، وضحككتها.

وجهها البيضاوي له لمة فرح بكر، ومن عينيها الضيقتين تتناسل أرائب بريق مهمتها قرض الحياة بعجلة، نصفها السفلي يتأرجح بين نغمت صاخبة،

ارتدت تنورة مبني جوب فاقعة الاحرار بينما كانت بلوزتها سوداء مبالغ في فتحتها وقد أبانت تنورتها فخذها الطرين المستديرين ومكنت عجزها من النفور الحاد الذي اقتطع جزءاً من استواء تنورتها وفضحت مؤخرتها، كانت تحاول الإغواء بكل شيء في جسدها، فمع اتحنائها تبرز وركيها وتغمض عينيها تاركة لقمها سعة الانشراح وتبقى شعرها مسافراً على كتفيها يمرح لا ينتهي... تخليت عن لياقتي ورشقتها بقبيلات هوائية، كانت تغني غناء مشروخاً: (يا مصطفى أفرح دامت لك الفرحة.. شوف الأحبة شوف.. في قلوبهم فرحة).. هممت بالقفز إلى البيست ومراقصتها عن قرب.. هممت بذلك إلا أن خبرتي في مجال الرقص مربكة ومضحكة!

يقودني طارق إلى أماكن متعددة في أسواق جدة يعرفها تماماً، يذهب إليها كصياد ولا يعود إلا وفريسته ممسكة بمخيليه تنلذذ بكلماته الموعودة بعذاب عظيم، أوصاني أيضاً:

- عندما لا يكون هناك نساء جيلات تصبح القبيحات مجالاً لاكتشاف جمالهن الغائب.

هذه المغنية فيها شيء يغريك لمواصلة التحديق في جسدها اللباني المتغنج كإحدى العاهرات اللاتي اتمهن العهر من وقت مبكر وتعرفن على مكانهن جالهن وأصبح لديهن القدرة على الافتتان.

بعد أن تزوجت اكتشفت ما علق في سلوكي من مصاحبة طارق في أسواق جدة وفنادقها، فكلما اصطلحت زوجتي إلى أماكن عامة تنبهت أن عيني ليست في مكانهما:

- أنت بصباح!!

هذه الجملة تثار عليها حروب من الكلمات، وفي كل مرة أنفي هذه التهمة.. وفي كل مرة أجد عينيها أمسكتا بي متلبساً وقبل أن تقول جملتها الكزها:

- انظري هذه السيدة غير محترمة تبدي عورتها.

فتحرتن بغضب:

- وإذا كانت عورة لماذا تنظر إليها؟

فلا أجد جواباً سوى دفعها أمامي رافعاً صوتي بحزم:

- غطي وجهك جيداً.

نساء عديدات أهرب معهن في الذاكرة أو في مكالمات هاتفية طويلة وفي كل مرة أعود من هروبي متيقناً أن عينيها هما المكان الآمن ومع ذلك لا أمكنها من التمتع بهذا الشعور.

هل ملت، أو أن هذه القسوة جعلتها تفر إلى فراغ آخر؟..

الفراغ.. انتقال الروح من فراغ لفراغ لكي تثبت توهجها، هي اختارت لروحها فراغاً آخر قد يبدو ملائماً للحظتها..

وقبلها حلت في داخلي بدلا عن أمها جعدة، في أحيان تغدو كاللعب سينة الصنع... ويغدو انتقالنا من حيز لحيز خطوة غيبية نحشر ذواتنا في هذا الفراغ الذي يضيق عن استيعابها فتتهشم بسهولة كاللعب السينة الصنع!

اضطربت فجأة ها هي مغنيتي تقبل تجاهي، ستكتشف أنني كنت دعياً حينما كنت أتمايل طرباً مع غنائها حيث أفتح فمي متمتماً بما يقف على لساني من دذونات غير مدرك لما تقول، ستفصح لغتي المكسرة الهشة، ما زالت تانك العيتان الزرقاوان اللتان اقرستني بهما المضيضة تسببان خجلاً داخلياً كلما تذكرت موقفي معها، ترفع يدها اليمنى خصلات شعرها المنسكب على عينيها الغائرتين وتمسك بالميكروفون بيدها الأخرى وتقبل قفطرة انتظرها مسافر انقطعت به أسباب السفر، ما الذي يمكن أن أقوله لها الآن.. لقد علمتنا رحلاتنا السياحية أن تكون اللغة عارية من أي تهذيب، كل النساء اللاتي حولنا جئن لبيع أجسادهن فليس من حرج أن تتعري اللغة كما يتعري الجسد، في اللاهي الليلية تغدو الإشارة عربوناً لقضاء متعة مدفوعة الثمن يكفي أن تقف أمام الفتاة مردداً:

are you free?

وتنتهي المسألة باعتذار أن جسدها مرهون هذه الليلة مع وعد أن تحرره لك في الليلة المقبلة أو تهز رأسها بالموافقة وتدس يدها تحت إبطك، وتغمضي



ليلك تغالب عسر لغتك في إفهامها ما تحس به تجاهها، وفي الغالب لا تتفاهان إلا بلغة واحدة تجمعكما معاً على فراش واحد، وبعدها يدير كل منكما ظهره للآخر حسرة، هي لتأكلها من أجل حفنة من مال، أنت لتهريك لحظة حيوانية في غير محلها!

كانت تتحرك بسرعة وخفة، وعيون الحضور تتابع رشاقة جسدها بينما ظلت محافظة على إمسك الميكروفون بيدها اليسرى جامعة شعرها المتطاير بالأخرى.. انتابني خليط من الارتباك والرهو، ماذا يمكنني أن أقول لها؟ أه تعلمت أن من وسائل اكتساب الخطوة لدى المرأة أن تظهر لها احتراماً فائقاً، أول تلك القواعد أن تمش لمجيئها، أن تنهض وتقبل الهواء الذي حل رائحتها، خطواتها العجلة جعلتني أحب من مقعدي وفتحت فمي عن ابتسامة متأرجحة: ها هي تقف على الأهداب، عينها الصغيرتان تبدوان شهوانيتين تفضحان أعماقها بسهولة، تقترب كثيراً، مددت لها يدي.. عبرتني تاركة يدي معلقة في الهواء وفشل حاد يلمح ملاحمي، لمحتها تنهذى وترتمي في حضن رجل ملاحه تشي أنه من عرقها نفسه.. تنهت له كان يجلس خلفي مباشرة، سمعتهما يقضمان لغتهما كجرذان اختبأت داخل مغارة ضخمة.. أفاق عمر من سكرته وأطلق ضحكة عالية بينما رأيت شماتة تنحدر من مقل الحاضرين، انسحبت كما يليق بمنكسر، ضاغطاً على زر المصعد بعجلة فتحت بوابة غرفتي بارتباك ارتعيت على فراشي لاعتناً كل النساء، واشتقت لها حين أغرقها بصياحي فتظل أناملها تعبت بأي شيء يجاورها، فبين أحضانها أثق أنني بجوار قلب لا ينبذني البتة.. تخيلتها بين أحضاني وأنا أمس لها باعتذار منكسر:

- نعم أنا بصباح.. عودي الآن، عودي لنبدأ رحلة جديدة.

وأزداد انكساراً كلما تذكرت أنفتحي من متابعة النساء الفيلينيات اللاتي تضج بهن مستشفيات جدة، فما الذي حملني لهذه المغامرة السيئة والحمقاء في آن.

كان منظرها وهي قادمة يذكرني بالمرضات العاملات في المستشفيات الخاصة، وعبورها لي يذكرني بعبور شاحنة ضخمة دهست قطعاً بالنساء وقف في طريقها.

حاولت التخلص من انكساري:

- وفاء هي التي حملتني لكل هذا الشقاء..

هل ركضي المستمر خلف النساء بحثاً عنها أم اقتصاصاً لرجولتي في وأد مشاعر كل النساء، تعليقهن في علاقة أسقيها بالكلمات بينما داخلي يصب كل اللغات عليهن..

أخرجت تلك القصاصة التي سجلت بها رقم الهاتف الذي زودني به عيسى شرف ضاغطاً على الأرقام ومنتظراً أحداً يرد على ذلك الرنين المتواصل.

- ألا يوجد أحد يرد على هذا الرقم؟

لسعني خاطر رحيله، كيف لو أن تلك الدابة قررت الرحيل والعودة إلى كالكو، تبا لو فعلها.

أطفأت أنوار غرفتي وتبأت للنوم، وكلما أغمضت أعفاني هبت تلك الشاحنة مسرعة لتهرس عظامي وتتركني ملتصقاً بأرضية إسفلت لم تفرش جيداً.

أه أريد أن أنام.

للدواتنا من خلال الحلم نفيق على ما يجب أن تكون عليه في نظر الآخرين، على أقل تقدير في نظرك أيضاً كي تكون إنساناً سوياً أمام الآخرين.

جاءت متشحة بزى الإحرام، وجهها يطفح بالضحك والاستبشار تنفدم زوجها، مهللة، دخلا علي وأشارت لقبرين متجاورين نبثا داخل غرفتي، قالت:

- هنا ترقد وفاء.. وهنا ترقد لمياء، تنبه فلمياء ستنهض لترحب بك بعد لحظات!

وأخرجت من صدرها رسالة قديمة عرفتها رسالة من رسائل عشقي الأول، فتحتها على غير عهد، ومرت عينيها بين سطورها:

- هل أنت من وضع هذه الرسالة على قبر وفاء؟

أبوها رث الثياب، ذقنه استطلت مفتقرة للتهذيب، تناول الرسالة لتغيب زوجته فجأة، وتحل زوجتي في مكانها، أمسك الرسالة ودفع بها إليها، كانت زوجتي تقف حائرة كعادتها، لثنهض وفاء من قبرها بعينين صافيتين وكأنها أفاقت من نوم طويل كانت تدندن بأغنية «يا نسيم الصباح سلم على باهي الخد»، مترنمة ومفسحة لأبيها مكاناً داخل القبر فيتمدد بدلا عنها، تهيل عليه التراب ضاحكة وهي تعلق بصرها بوجهي:

- ألا تريد أن تساعدني؟

فجأة وجدت نفسي أقود سيارتي، والملح عيسى شرف يشير بيده لإيقافي، لمحته في آخر لحظة، فتوقفت ودرجرت السيارة للخلف سمعت صراخاً منبعثاً من الجهة الأخرى ووفاء تبكي بحرقة وتشير بفزع تجاه خلفية السيارة ومن خلال المرآة العاكسة لمحت أباهما ينهض من تحت عجلات العربة ودমে يشخب من جبهته، وصوت المتجمهرين يصيحون بي: لقد مات.

نزلت فزعاً، كان كل شيء - في تلك الأرضية - مغشى بالدم، وأبوها يردد في قبره مسربلاً بدمائه، دماء غزيرة تسيل من كل جزء في جسده، غدا قطعة دم لزجة لم ينح من هذا الغرق الدموي سوى شعرات ذقنه الطويلة التي ظلت محافظة على بياضها، ووجدت وفاء تضرني من الخلف وتصيح مولولة:

للفراغ: أشكال، أحجام، ومساحات، وروابط.

والانتقال من فراغ إلى فراغ هي اللعبة، لعبة خافية والنوم (الموت) شكل لم نستبينه بعد.

النوم أداة حادة تفتح مغاليق الزمن وتعبير بك خارج الزمان والمكان، تقلك إلى فراغ آخر.. هناك زمن خاص وحكايات متداخلة وحوادث لا معقولة.. في النوم تتواجد في كل نقاط الزمن ترى ما لا يرى وتقول ما لا يقال، حتى عذابك يغدو ممتعاً، يمكنك أن تفزع وتنهض ووجيب قلبك يصل إلى الحلقوم وعندما تكتشف أنك كنت صيداً لكابوس وخيم، تعود لتستلذ بذلك العذاب!!

النوم برهان ساطع على أننا ننقل من الفراغ إلى الفراغ، هذه الفراغات المتعددة تشكل حواسنا تصنع منا قوالب متغيرة تتقلب في فراغها المستحدث.

وهناك في فراغ لا زمان، وداخل حلم تعبى يحدث ما لا تعبى، أموات وأحياء وأزمنة وأمكنة مختلفة تجتمع في نسق معقول وفق فراغها المستحدث.. تتكون لحظات من حياة منطقية أثناء حلمك، وتتقاد معها التداخلات الحادة لا تعبها إلا عندما تنهض وتحاول ترتيب ما رايت أما في أثناء الحلم لكل الذي يحدث منطقياً.. هذه المنطقية هي تركيبة حقيقية لأعماقنا التي نحاول تنسيقها وفق المعطى الثقيفي الذي نكتسبه خلال مراحل تنقلاتنا من فراغ إلى فراغ، ذلك الواقع المفترض الذي نرى عليه بينما نحن ككائنات لا نرتين لهذه المنطقية الحرفية، نكتشف هذا حين نمارس جنون أحلام اليقظة، فالنفس توافة لأن تظل متحررة من الوصايا التي تثقب آذاننا من وقت مبكر.. وحين نعود



أنت تقتلني في كل حين، وعندما اقتربت منها ركضت مسرعة، ركضت خلفها، وقفنا بجوار بيتنا القديم، عادت طفلة وأنا اضفر جديلتها، وهي تبكي لأنني خطفت من بين يديها علبة الدخان ولكي أسترضيها ناولتها رسائل عشقي الأولى فأمسكت بها وحولتها إلى طائرات ورقية وضحكت وهي تمد لي بخصلة من شعرها. . تتغير الأماكن والوجوه وتحل زوجتي مكانها، فأهجرها وأبحث عن وفاء التي بدأت معي لعبة الاستغماية وقبل أن أكتشف موقعها يكون أبوها خارج قبره، ويده تمسك بجلد غزال فاخر ليسألني:

- ألم تسلم هذه الرسالة لوفاء؟

تظهر لمياء باكية، وهي ترف على ظهر حمار أشهب بينما كانت صويحباتها يفرسن أصابعهن في دمعتهما ويعبرنهما بزوجها الذي انعطف ظهره وأرسخ رداءه على وجهه خلته للوهلة الأولى زوج سمية، كان يسير ويده سيف مسلول من غمده وحين انحرف في سيره لمحت طرفاً من ذقن طويل له شعيرات بيضاء، غمزني بطرف عينه غمزة ترشوني بمهادنة قادمة، فيما كانت وفاء ترفع جرساً وترن به فوق رأسي.

- أنت تقتلني في كل حين. . .

لتقفز زوجتي إلى مقدمة المشهد وتحطف من وفاء ذلك الجرس وتقرعه بكل ما أوتيت من قوة صائحة:

- أنت تقتلني في كل حين. . طلقني.

[٤٠]

استيقظت من النوم متأخراً، وبكاء وفاء ما زال يضح في خدعي وما زال يغرني بتتبعه في ذلك الفراغ، حاولت العودة إليها بعد أن أصفي هذا التشوش، وأستنهض فرحتها بالنكات، كنت راغباً في رؤيتها ضاحكة راغباً في رؤيتها وهي تحلم بيت يجمع أولادنا الذين اتفقنا على تسميتهم من وقت مبكر (فالولد رمزي والبنت هناء)، كنت راغباً في الانفراد بها لأسترق لثم خديها. .

رنين الهاتف يصل متقطعاً. . تنبهت تماماً حين كان صوت المرافق الإعلامي ييدي تدمراً هادئاً:

- اجتمعنا جميعاً ولم يبق من الوفد سواك.

- حسناً سأكون جاهزاً خلال لحظات.

رفعت سماعة الهاتف ضاغطاً على مفاتيحه منتقلاً بين الأرقام لذلك الرقم الذي غدت حافظاً له، جاءت نغمة متقطعة:

- أوه الخط مشغول إنه متواجد لن أبحر حتى أحده.

أعدت الاتصال مراراً وفي كل مرة يمنحني إشارة الانشغال، أعدت السماعة إلى موضعها.

- قبحه الله مشغولاً أو غير موجود!

رنين الهاتف يرتفع في فضاء الغرفة، أرفع السماعة فأحس بالتضجر الطافح في صوته:

- أخبرتك بأنه لم يبق من الوفد سواك هل تأتي معنا أم تعترض؟

- لا، لا، سأكون معكم. . لحظات فقط.

- أرجو أن تكون كذلك .

على عجل ارتديت ملابسني ونازعنتي نفسي لإجراء آخر اتصال، وبسرعة فافقة اتصلت لتأتي نفس الإشارة المتقطعة القصيرة، لعنت الجحش في سري ونزلت راضياً، كان الأوتوبيس المهياً لنقل الوفود الإعلامية العربية واقفاً على بوابة الفندق، بادلت عمر وأثور تحية الصباح وابتعدت عن مكانهما خشية من أن يكون عمر قد أسر لأنور بما حدث ليلة البارحة، حاولت تبديد ابتسامات عمر الملاحقة لي بالحديث عن إمكانية الالتقاء برفيس الوزراء الدكتور عبدالكريم الارياي . . وجه المرافق الإعلامي نشط رغم سحابة من ضجر استقرت بين حاجبيه حاول تشتيت عبوسها بالاعتذار المتكرر للنوم المتقطع الذي تلقاه ليلة البارحة بسبب جلسة قات دامت لفترة طويلة:

- سنحاول تدبير لقاءات صحفية مع معالي الدكتور الإرياني للجميع فقط عندما يسمح وقته بذلك .

عند صعودي رمقني عمر بابتسامته التي تحمل آثار البارحة ودعاني لأن أجاوره فأظهرت له رغبة الجلوس في مؤخرة الحافلة حيث كان فاروق مسنداً رأسه على مقدمة الكرسي المقابل له يغالب نعاساً ثقيلاً وكان موقعي مجاوراً لسلوى، سلوى تذكرك بالرجال الذين لا ترغب في الحديث معهم حتى وإن جمع بينكما مصير واحد، كان يكون مكتباً أو مدرسة أو مركباً يقلكما في رحلة لا تنتهي، لم تأخذ من النساء سوى اسم الجنس الذي سجل في الأوراق الرسمية وما عدا ذلك فهي شحيحة من كل صفات النساء، كنت أشعر أنها لزجة أكثر من اللازم، ودميمة أكثر من اللازم، وثقيلة أكثر من اللازم، كان فخذي يمتك بفخذها فأشعر بألم حادة تنقب ركبتي فأبعدتها عنها . ومع تمايل الحافلة في المنحنيات أو المرتفعات أمسك بفخذي كي لا يحدث ذلك الارتطام الذي يذكرني باصطكاك أكتي حديد صدتنا وافقرتنا لزيت يطري احتكاكاً يصير صريراً مزعجاً، وعندما نجحت في انتشال جسدي من الاحتكاك بها لم أنجح في الهروب من أسئلتها المتلاحقة:

- هل أنت من البحرين؟

- لا .

- لا بد وأن تكون من الكويت؟

- لا .

- إذاً من السعودية؟

- نعم .

- لولا ملبسك لقلت إنك من اليمن أصلاً .

- وربما لو لبست البدلة لقلتي هندياً أو بنقلاديشياً .

- هل أنت مدعو لهذا المؤتمر؟

- نعم .

- ولكن هذا المؤتمر للديمقراطيات الناشئة وأنتم لا توجد لديكم ديمقراطية لا ناشئة ولا كهلة .

- ما هي الديمقراطية؟ أنا لا أفهمها .

- ألا تقول بأنك صحفي؟ كيف لا تعرف الديمقراطية؟

رفع فاروق رأسه المثقل بنعاسه وهو يتشاءم:

- أعذريه فلم تمر ببلادهم سيرة الديمقراطية عبر مسيرة التاريخ فكيف يعرفها؟

غطت يياره فمها بيدها، وهي تضحك:

- هم لا يعرفون إلا الإبل والنفط!

شاركها فاروق الابتسام:

- وكذلك النساء والخمر في بلاد الله الواسعة .

شعرت بحق وأنا محاصر بين هذين التابنين فقررت أن أكون شوكة تعيق مواصلتهما المضغ:

- يا سيد فاروق أرجو أن تواصل نومك، فأنت على ما يبدو تغط في النوم منذ الثورة العربية .

- هل غضبت؟ كنا نقرر حالة بلد؟

- لا لم أغضب . . سأغضب لو أنكم أفضل منا بديمقراطيتكم ولكنكم

أرداً منا بكثير .

نفض غبار النعاس العالق بعينه ورفع صوته:



- نحن بلد الحضارة والثورات المتعاقبة تقارنتا ببراميل النفط يبدو أنك جاهل بالتاريخ والسياسة.

- وأنت جاهل بتاريخكم وواقعكم...

حاول أن يبدو هادئاً بينما كنت أغلي من نابي سلوى اللذين انكشفت عورتها وهي تستمع لفاروق بانشرح وتأييد مطلق:

- من غير انفعال أخبرني كيف تنظر للأمور؟

- أولاً أنا أفضل بين النظام والشعب، فالشعب على عيني ورأسي...

السياسة لا يحكمها الشعوب، فماذا تود أن تقول عن النظام؟

- أنتم يحكمكم العسكر، والرئيس لديكم هو الحاكم حتى الموت كما أن الأحزاب صورية ولا يوجد إلا حزب الرئيس.

- لا.. لا هذا خطأ في فهم آليات الديمقراطية.

- حسناً.. ألم تسمع الغناء الذي تردده في الآونة الأخيرة بمبايعة رئيسكم لولاية ثانية أو رابعة.. والمبايعة نعط ملكي وليس رئاسياً ديمقراطياً.

- هذا مردود عليه.. فكل جهاز إعلام يقدم الصور الرديئة، والغناء الذي يتحدث عنه أطلقه بعض المستفيدين من النظام.

- نحن واضعون ملكيون بينما أنتم مدلسون فالشعار نظام ديمقراطي والواقع نظام ملكي وليس ملكياً فحسب بل وعسكري أيضاً.

- .. كيف تقول هذا في بلد كمصر.. مصر التي فضلها على كل العالم العربي.

قلت لك أنا أتحدث عن نظام، ومع ذلك لتترك مصر، وإيتي لي بمثال ناصع في كل جمهورياتك العربية.. كلنا في الهم شرق، بل بالعكس فالعسكر

أدخلونا في دمار شامل كما فعلها صدام حسين..

صرت قطعة الحديد الصلبة التي تجاورني:

- أشعر بالأسف لكون شخص مثقف يدعي مثل هذا القول ويدافع عن الرجعية..

- أي رجعية وأي هباب أعطيني مثلاً واحداً من نماذج التقدمية التي

تحدثين عنها يعيش مواطنها بصورة لائقة بإنسانيته في الحدود الدنيا.. وفي المقابل أنظر للملكيات العربية فمهما كان الشخص فقيراً فإنه أفضل من أي شخص في الدول الرئاسية. مشكلتكم أن أصابعكم ما زالت تشير إلى صدوركم بينما العالم تحرك من حولكم.. تغيرت المراكز وأنتم ما زلت تظنون أنكم الشعب العربي الوحيد الصانع لكل القرارات..

- لأنكم جليتم الأمريكان ليلدكم تريد أن تقول إنكم صانعون للقرارات العربية.

- أنا ضد تواجد أي قوة أجنبية في أي بلد ولا أدافع عن هذا، وإذا أردت الحقيقة فأنتم من سمح للأمريكان بالدخول حين فتحت قناة السويس، بل أنتم الذين سمحتم لأمريكا بأن تنفرد بكل دولة بعد كامب دايفد، أصبحت

مصر ليست مصر، اخترقنا بسبيكم.

قفزت قطعة الحديد وقد تطاير رذاذها:

- أنور السادات خير من ألف من ملوكك.

نفض فاروق يده:

- دعي فهذا ملكي متعفن لا فائدة منه.

انزلق لساني في حديث غاضب لم أستطع السيطرة عليه:

- ويبدو أن أهلك متعنفون حين سموك فاروقاً أليس هذا اسماً ملكياً؟

- أتخبرني على شتم أهلي يا متعفن؟

- وأنت زبالة!!

- أنا زبالة يا حقير يا حثالة المجتمعات!

- شوف يا زبالة: المرء يعرف قرناه.. فوصمك لي بالمتعفن دليل على معرفتك لنوعيتك!

احتدت أصواتنا والتف حولنا الركاب مهدين الوضع:

- يجب ألا يصل الحوار بينكم لهذه الألفاظ السوقية.

قفزت الأفعى التي تجاورني:

- لا يمكن أن أجلس بجوار هذا المتخلف.

- تصدقيني لو قلت لك إن راثحتك كانت تخفني وكنت سأرجوك أن تجلسي في مكان آخر.

استعت مجازها، وبرز ناب فوق شفتها السفلى وهي تصيح:  
- يا متخلف!!

- ..... وربما اقترحت عليك أن أنتدب نفسي لتغطية المؤتمر وأرسل لك بكل التفاصيل مقابل أن ترحلي.. فرائحتك تصلني لغرفتي.. ولبلة البارحة خرجت معدتي مراراً بسبب وصول راثحتك ولم أستطع النوم إلا بعد أن وضعت المخلدة فوق أنفي وكذت أموت اختناقاً.

- البارفان الذي أضعه لا تعرفه سلاتك يا سوقي، فالسوق والمتخلفون من أمثالك لا يمكن الارتهان لما يقولون.

- والله لو وضعتي كل عطور الدنيا لا يمكن أن تذهب برائحة صدا الحديد المقززة التي تفور منك وتلوثين به هواء صنعاء الذي تغنى به العشاق والمغنون..

- انظر إلى شكلك الشبيه بقرد خرج للتو من الغابة وألبسوه ثوباً وكوفية.. ألا تشعر بالخزي من هذا الشكل؟

- وأنت أشبه بالدودة التي تعيش في باطن الأرض وتلتصق بجوار النباتات، رؤيتها مقززة ورائحتها مؤذية وملمسها كال مخاط الجالب للتقيؤ.

- أنا دودة، يا حقير.

وطفرت من عينيها الدموع وصاحت بسائق الحافلة وهي تبحث في حقيبتها عن منديل يوقف تدفق دموعها:

- أنزلي هنا.. أريد سفير بلادي هذا المتخلف يشتم بلدي.

كنت أسمع فاروقاً يبربر بشتائم عدة وقد اكتفيت بأن أقول له مراراً وتكراراً:

- يا زبالة!!

ليشاط غضباً ويشارك صاحبه (نعم لا يمكن لهذه المرأة إلا أن تكون صاحباً وصاحباً لا يركن إليه أيضاً) المطالبة بالنزول فتدخل المندوب الإعلامي معتذراً لهما، وعيناها غمزاني في محاولة لاسترضائي فانشغلت بالتطلع إلى خارج الحافلة

بينما كان أنور وعمر غارقين في الضحك، وتلك الدودة تقتعل غضباً زائداً ويدها تحاول تثبيت شعرها الذي انتكش وغدا كمسلات حادة الرؤوس، فجلس المندوب الإعلامي يسترضيها بكلمات متلاحقة ويضغط على كتف فاروق مبنياً أن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية، ففر فاروق مبتدأ معيداً تهمة:

- هؤلاء الصحراويون بدو هج ضد تطور الحياة، وضد كل أشكال الحضارة، يريدون أن يطبقوا تخلفهم على الجميع.. نعم هم متخلفون في كل شيء وآخر ابتكاراتهم ديناً بدوياً صحراوياً صدره للعالم وغيروا دين الله السمح، وأرادوا أن يتحولوا إلى دولة عظمى بتزويد الحرب السوفييتية الأفغانية يقول متخلفة، كل المشاكل في العالم لكم دخل بها حتى هؤلاء الخاطفون في اليمن هم من نتاج سياستكم في تصدير الدين الصحراوي.

- كما قلت لك يبدو أنك نائم منذ زمن بعيد، من صدر هذه العقول أنتم، خرجوا كلهم من مدرسة الأخوان المسلمين وتشكلوا في بقية البقاع كما يحلو لهم، لكن المصدر أنتم.

- أنتم عملاء للأمريكان!  
- كلنا عملاء للأمريكان، وأنتم أول الناس أنسيت أنكم قبضتم ثمن حرب الأمريكان ضد العراق؟  
تشققت حنجرتي:

- اسكت يا متخلف فبلدكم سبب كل البلاء الذي نعيشه كأمة.

- اشهدوا عليه فهو يشتم بلدي وأنا أريد سفير بلادي ليقص لي من هذه الشائعات.

أطلق ضحكة جافة متهمكاً:

- سفيرك، منذ متى كان سفراؤكم يلبون دعوات مواطنيهم هم يعلمون تماماً أن من يستغيث منكم إما مخموراً أو أضاع أمواله في إحدى الحانات، أو قبض عليه وألقي به في أحد المخافر بسبب مجموعة عاهرات.. أنتم لا تبحثون إلا عن الخمر والموسمات.

- أضيفوا إلى شهادتكم أنه يتهمنا بشرب الخمر والزنا.. يتهم شعباً كاملاً.



- نعم أقولها مرة أخرى أنتم لا تبحثون إلا عن الخمر والعاهرات واللواط أيضاً.

ارتبك المندوب الإعلامي ولم يعد يعرف كيف يتصرف، بينما كانت الأصوات الأخرى تحاول تهدئة الوضع، وكانت اللائمة منصبة عليّ بصورة مضمرة، وارتفع صوت أنور:

- لماذا نختصم من أجل حكومات تتشابه في كل صورها سواء كانت ملكية أو جمهورية.. نحن جئنا من أجل عمل فلا ندخل خلافتنا في مجال العمل وليؤمن كل منا بما شاء.

ونفض صوت مصطفي:

- سبب انحدار الأمة كوننا نحن المثقفين نوجد المبررات لحكوماتنا في تخلفها ولا أقصد حكومة بعينها بل بكل صورها ولو نحن صدقنا مع أنفسنا لما كان هناك مثل هذا الحوار المنشج.

انتفض فاروق:

- هذا ليس حواراً، فهم لا يعرفون هذا المصطلح، ومصر فضلها على الجميع ولن نرضى بمتخلف مثل هذا يشتم تاريخنا وحضارتنا وسوف أصعد الموقف، سأصعده حتى ولو لزم الأمر إيصاله لأكبر المسؤولين.

اشتط من برودي وسخريتي معاً:

- لا.. لا أرجوك يا فخامة الرئيس بلاش.

كز على أسنانه:

- أنت حشرة.

- كيف عرفت؟، ألم أقل لك أنك تعرف أنواع فضيلتك جيداً؟

- لا يمكن أن يجمعني مكان مع هذا الذكرة الأحمق... من أي البالوعات

جاء؟

جذبني أنور من يدي، وسقط في مكاني ليتناولني عمر ويجلسني بجواره بينما كان صوت سلوى وفاروق صاخباً لاعتاً هذه الرحلة والحظ الذي جمعهما بواحد مثلي.

عبرنا عدة بوابات مخترقين أرتالاً من العسكر، ومع كل معبر تقف على جنبات الشارع مجموعات كثيفة من العسكر رصوا في خطين متوازيين حاملين رشاشات وينادق مختلفة الأحجام والأنواع، وعند كل بوابة - من بوابات القصر - يقلل السائق من سرعته ويكتفي حراس تلك البوابات بالنظر إلى الياقة المعلقة في مقدمة السيارة (ضيوف المؤتمر) فتعبر بيسر.

كان عدد الجنود المنتشرين في الشوارع وداخل القصر الرئاسي أعداداً مهولة، وربما لو أحصيت عددهم منذ أن غادرنا الفندق إلى الآن لعجزت عن إتمام هذه المهمة لكثافتهم وتداخلهم، أسررت لعمر:

- ولم كل هذا الجيش العرمرم من العسكر؟

- إنهم يخشون من أن تقع حادثة اختطاف أو هجوم مباغت على سيارات الوفود!!

(أه ياسين يهبط لهذا الوادي حاملاً رشاشاً، ويتمتم بأدعية لا تسمع، وأبوه يقود ولده في حينا بحثاً له عن مسكن، لمحته يسقط إلى وادٍ كما سقط من أعلى الشجرة، وذلك الأميركي يركض تجاهه، ضماطات وورود، ولغة إنكليزية، ها هو يهبط الوادي حاملاً رشاشاً تعتمر رأسه رباطة حمراء أو سوداء.. ياسين).

ضحك خليل ضحكة قصيرة مستكراً جملة عمر:

- ومن نحن حتى يضعون كل هذا العسكر في طريقنا!

كان صوتنا قد بلغ خيري:

- هذه الحراسة المشددة ليست من أجلنا أنسيت أن هناك ٢٢ زعيماً؟

- صحيح فالعالم الثالث لا يكثر إلا بالزعماء.

قال عمر بنصف ضحكة:

- لم ينته شجارك بعد، أتريد شن هجوم آخر؟

- اطمئن لا يوجد من العالم الثالث مثلاً له سوى نحن العرب وإذا اختصنا فهذا أمر ليس بجديد.

التفتُ للخلف، كانت سلوى تنفث الدخان في مؤخرة السيارة بعصبية بينما لا تزال عيناها نديتين ببقايا دموع طازجة، وقد عاد فاروق للنعاس مهتماً مع حركة السيارة كيفما اتفق، أغمض عيني بهدوء غبطته عليه فمن كان يغلي قبل لحظات لا يمكن أن تبرد أطرافه بهذه الهيئة، غمزت لأنور فلم يستجب لغمزاتي وأشاح بوجهه من خلال تلك الستائر التي كانت تحجب عنه منظر الشارع والتي طالب فاروق بإسداها لينعم بنعاسه الثقيل.

تنهت لعيني اللتين تحترقان وجهي بتأمل فاحص، كانت ملاعحه باردة لا تظهر ما تجوش به أعماقه، شعره خفيف، أنيق الهندام حنكة السنوات تطفح من جماعيد نمت على حنجرتيه وتدفقت نحو صدره الذي ظهرت منه شعيرات أغدق عليها الزمن ماؤه فاستطالت لتشي أن ما بعدها غابة استوائية من الشجر الكثيف، عندما التقت أعيننا انسحب بعيني على عجل..

ربما خشي أن يطاله لساني، فقد بدت فظاً بين مجموعة تسعى لإحلال الوقار على تصرفاتها، ربما كنت أصغر الوفود الإعلامية العربية سنًا، أسير بنزق يكبل الآخرين عن إيداء الامتناع مما تجوس به أفعالي أو لساني، تنهت لتحفظ الجميع من الانخراط معي في حديث طائش، لكزت عمر، مشيراً باتجاه ذلك الشخص، كانت إشارتي واضحة له حتى انه قلب وجهه في اتجاه معاكس:

- من هذا؟

- هذا ممثل جريدة سورية.

انتظرت أن يسترد وجهه من الاتجاه المعاكس فلم يفعل، كنت راغباً في أن أحييه.

أصبحت الحافلة بحالة من الصمت الحذر بينما كان الوفد الإعلامي زائغ البصر وقد زاد عبوسه وهو يسترق النظر لوجه سلوى التي افتعلت حديثاً مع أنور رافعة نبرة صوتها - بين الحين والآخر - مضافية على نفسها أهمية مبالغ فيها، معددة مواقعها المهمة على خارطة الصحافة المصرية.. وترسل سهامها حين تشعر بأنها قادرة على ذلك:

- هناك صحفيون مغمورون لا يعرفهم أحد ولا أعرف كيف يتم انتدابهم في مهمات صعبة كما نحن فيه.

عبرنا البوابة الأخيرة لنجد أنفسنا داخل القصر الرئاسي، قصر شاسع المساحات تفتتشر أرضيته فلل مختلفة الأحجام، تحيط به الأشجار السامقة المتناثرة والورود التي تشكل جنبات زاهية على الأطراف. تراحنا على مدخل قاعة المؤتمرات، كانت الحشود أكبر مما كنت أتوقع، وزاد من تكدس الأجساد على تلك البوابة خضوعنا لتفتيش دقيق، انبرى العسكر لتنفيذ مهمتهم على أكمل وجه، حيث كانت أيادهم مدبرة تصل إلى الأماكن العميقة من غير أن تشعر بتسللها، وبعد انتهاء مهمة التفتيش الشخصي أخذت منا أجهزة التسجيل وكاميرات التصوير، احتج أنور بانفعال:

- ماذا نعمل داخل المؤتمر من غير آلة تسجيل أو كاميرا؟

التفتُ إليه العسكري بتهذيب:

- هذه أوامر، وأنا أنفذها.

أرادت سلوى أن تبدي عظمة زائدة حينما رفعت صوتها:

- سوف أبلغ الدكتور عبدالكريم الارياني عن مثل هذه التصرفات الرعناء.

رد عليها العسكري بلطف:

- يمكنك فعل ذلك سيدتي فقط دعينا نكمل مهمتنا الآن.

وسحب منها آلة التسجيل، فتركت ابتسامتي مشرعة، وخاطبت رامى (صحافي لبناني):

- الصحافي الشاطر يغزل برجل حمار..



كان مقرراً لنا الجلوس في الجهة اليمنى من قاعة المؤتمرات، فاستقرنا في أماكننا، وكانت القاعة في حالة فوضى، من هناك بدأت أستكشف الوجوه والشخصيات المشاركة، فلم تسعفني تلك الوجوه بتذكرها، في الصف الأمامي جلس الوزراء اليمنيون، همست للمندوب الإعلامي:

- بعد الحفل أرغب في رؤية الدكتور عبدالعزيز المقالح.

أشار إلى الصف الأول: ألا تراه؟

كان يجلس في صف الوزراء، لم يكن كذلك الصورة التي أعرفها له من خلال الجرائد فقد بدا كهلاً.

انحنيت عليه ضاغطاً على كتفه ومعرفاً بنفسي:

- أرغب في رؤيتك يا دكتور بعد انتهاء افتتاح المؤتمر.

هَبْ من مقعده حاضناً وسائلاً:

-كيف الأصدقاء في السعودية؟

- جيدون.

- ضروري أن نجلس معاً.

- ضروري.

عدت إلى مكاني حين لمحت عينيها تحرقاني، ونابها القافز على شفثيها يزداد حدة، استعدت انشغالي بتقليب تلك الملامح المتعددة.

فجأة هبَّت القاعة واقفة مع دخول الرئيس اليمني علي عبدالله صالح.. وبدأ المؤتمر.

## [٤٢]

ثمانية أيام مضت عرفتُ خلالها صنعاء. لم أكن أترك فرصة إلا وخرجت أذرع شوارعها.. شارع حدة يفاخر ببعض المتاجر المتواضعة التي ما زالت تعرض توابلها وفضياتها وأقمشتها وفواكهها..

هناك سال القلب، في باب اليمن رأيت وجوهاً مغبرة، تائهة في الزحام، تتعلق بأسلحتها كالهياكل التي أنهت مهمة الحياة بعجلة وبقيت محترمة بالموت من غير أن تقبر أو تبحث لها عن مهمة أخرى غير الحياة!

الجوع آفة تقتاد الرجال، وهؤلاء المقدوفون عند هذه البوابة يتذكرون كل سبب الزعماء الذين سحقوهم ومضوا.. أورثهم الإمام جنبيه على الحاصرة وقائاً محشوراً بين الأصدقاء، خرجوا من ليله الطويل بعد أن قسمت الدنيا أرزاقها.. شيء ما يتساقط من هذه الهياكل المنزوية هنا يتركها ضامرة يعود أراك تبيس في قم لا يعمل من تحريكه صعوداً وهبوطاً!

وفي شارع جمال ترى الحكايات مغمومة كما هي، هنا ترقد الأميرة النائمة تنتظر فارساً يقتحم أسوار الموت ليجد لها قبتها بقبلة الحياة..

القبلة هي سر الكون، سر الجمال والقبح.. قبلة تعيد الحياة لأميرة عقد السحر حياتها في شكل جليدي فتأتي القبلة لتوقظها من رقدة سرمدية، وقبلة تحرر الأمير المسحور من دمامته، تعيد فنتته تمتك السحر ليغدو القبح أكذوبة نخدعنا حواسنا به.

ليس هناك قبيح أو جميل.. نحن الذين نحيل القبح إلى جمال.. أسطورة قبلة الحياة نقضت غباراً كثيفاً ران على هذه الحقيقة، مقاييس الجمال تتصدع كل

حين: إن ارتضاء العاشقة لهذا الوحش والهيام به حدث في شكله القبيح وليس الفاتن، قبلت قبحه كجمال فعاد جيلاً.. هي هكذا النظرة السليمة.

القبلة روح تخرج منا لتمنح الآخرين حياتنا.. من تخرجاً ووصف الروح بالدمامة؟

جارتنا سمية فائنة قيدت لعبد آبق، هرب بجذره من الرق متنسباً لقبيلة كبيرة تناثرت في أودية شبه الجزيرة العربية، وامتهن قطف الرؤوس في ساحات الإعدام.. أسبوعياً يأتيها ملطخاً بدمه، ويومياً يوسوس بقطف جمجمة استقرت على جذع ينتظر سيفه في إحدى الزنازن.. هذا الكائن المستوحش تحول في قلب سمية إلى معزوفة جميلة تضع سيفه في غرفة الضيوف وتباهي بأنها امرأة لكائن ليس له شبه.. كل رجالات الحارة يبدون أسفاً لجمالها الذي يعرك، ويدهك يوماً تحت ذلك الكائن الخرافي.. وكلما استدار بطنها تهلل وجهها لرؤية بذور ستسد بهم فجوات الزمن وهم يحملون سيوفهم ويتامون باسترخاء في حلم يستعجلونه لقطف جمجمة تهتز كل حين!

في شارع جمال أميرات نائمات، خرجن لنزهة قصيرة على وعد أن يعدن إلى أسرهن في انتظار قبلة الحياة..

- أتكون وفاء بين هؤلاء الأميرات النافرات في مجرى الشارع؟

(منذ خروجك وأنا ميت يا وفاء، ميت يجوب الدنيا حاملاً جثة تبحث عن قبلك لتعيد لها الحياة، الآن تنبتهت أنك لم تمنحيني الحياة بلشمك لشماتي، كنت تعرفين أنني سأغدو جثة تتورم وتضمهر في شوارع المدن، تضمهر حتى تغدو عوداً قاسياً، فكلما حاولت الإطباق على شفتيك نفرت، واكتفيت بتمرير قبلك على جذع عنقي.. ها هي الجثة تبحث عنك لتعيدني لها الحياة!).

تتقارب المتاجر، فتدس الفتيات أجسادهن في غلات الملابس النسائية، كنت أسير هائماً خلف أي طيف يشابهك، كل النساء لسن لك شبيهاً، كنت راغباً في جمع كل النساء العابرات لشارع جمال وتشكيلك، إعادة خلقك من هذه القدود، والأعطاف، والأعناق، والزنود، والعيون، والأفواه.. كنت راغباً في إعادة خلقك.. يشتت من البحث عنك، فلماذا لا أعيدك كما

تخطفين في الأغاني اليمنية، وكما تخطفين في الكون، وكما تخطفين في هذا القلب.. هل أتبع نصيحة محمد مرشد ناجي:

إن كان عادك غريب ما تعرف البندر إذا دخلت المدينة قل بسم الله

وإن شفت في طريقك شيء وأعجبك شله.

تتسق هذه الأغنية مع مزاجي الآن.. فمن أين أبداً بجمع أشلائك من هؤلاء النساء الجارحات؟! جاء صوت اختي عبر الهاتف:

- أبوك غاضب.

- لماذا؟

- هل صحيح أنك تنازلت لزوجتك عن أبنائك؟

- عندما أعود سأصلح كل شيء.

- حتى أبنائك، ألم تقنع؟

- ألمها فقط وأعود.

- هون على نفسك لا أحد يستحق منا كل هذا الركض.

- ربما تكون هذه هي السفرة الأخيرة.

- النساء كالطير يهطل ويغيب في التراب.

- حسناً، أتريدين شيئاً من صنعاء؟

- لا أريد إلا أن تنتبه لنفسك وتعود بالسلامة.

- ألم توحني بالعنب الرازقي؟

أفرغت ضحككتها مججلة:

- أما زلت تذكر؟ أحضر لي عنباً رازقياً علني أفعله مرة أخرى.

كم هي الأغنيات التي تغنت بهذا العقود الفاتن (يا عنب رازقي)، ها هو العنب الذي أضنى الناس عبر التاريخ يتأرجح ويعود كهديّة من العائدين، ومطلب للبعيد، وهنا، في أرضية صنعاء بهرس وبياع بأبخس الأثمان.. لماذا تغدو أسماء الأشياء أجمل من وجودها، ينادي عليه الباعة: (يا عنب



رازقي) فتتخلق مناداتهم لموسيقى فاتنة تفوق بمتعتها العنب المعروض أمامي،  
ورنة ترديده في الأغاني اليمنية أعمق وأشهى.. عنب اليمن، مشتهى المسافرين  
عبر التاريخ ويغدو مثلاً لمن أخفق في بحثه (لا طلت بلح الشام ولا عنب  
اليمن).

ها هو عنب اليمن يهرس بالأقدام أمام ناظري، وهي هنا في مكان قريب  
ربما تهرأ بعاشق غر علق حياته بجناح طائر لا يمل من التحليق.  
في رسالة قديمة كتبت لها:

أجذك كالمدى كلما اقتربت منه سحب أطرافه، فإلى متى غارسين هذا  
الصدود، افعل ما تشائين سأظل أبحث عن لحظة رضا حتى لو سرت إلى  
أقصى بقعة في الأرض لكي أحصل على ابتسامة واحدة.. سأفعل.  
وها أنا أجوب الدنيا من أجل أن ألمحها.. ألمحها فقط أبين لها أنني ما  
زلت باقياً على العهد.. عندما كتبت لها جلتي السابقة، هل كنت أكتب  
مستقبلي... غدوت مؤمناً أننا نكتب مستقبلنا بأيدينا!!

وأنا ننتقل من فراغ إلى فراغ، السؤال: هل نعرف تشكيلنا في الفراغ  
القادم وننتبه له قبل فوات الأوان؟

[٤٣]

مثقفو العالم العربي كتيبة تنتظر الموت، هذا الوهم الذي خلقوه وتمتروا  
بدخله يجعلهم فئة تبحث عن التميز من خلال بطولات زائفة.  
المثقفون هنا مشغولون بموت السقاف..

يقولون إنه مات مية مديرة  
فكرة المؤامرة، مزدهرة هنا مثلها مثل بقية عالمتنا العربي، لا يحدث شيء  
بالصدفة أو وفق مجريات القدر، لا يحدث شيء وفق الانتقال من فراغ إلى  
فراغ، كل حدث يحدث هناك تقف جهة ما خلف حدوثه، فما يحدث في  
الداخل تدبره الحكومة، وما يحدث ضد اليمن تدبره قوى الرجعية والتخلف،  
وغالباً ما تنشط ذهنية المعارضين السياسيين في لباس السعودية رداء كل ما  
يلحق باليمن من ترديات سياسية أو اقتصادية..

يقين صارم يعتمر به المثقفون: إن مية السقاف لا يمكن أن تكون قدراً..  
ها هم المارة يتخاطفون الشوارع كالذباب ولا يحدث لهم شيء.. خرج من  
القرن، ليجد تلك السيارة تختاره من بين جميع البشر.. هكذا يتم إسكات  
المعارضين، فالخات المروي وسيلة الدول النامية لدنس الأصوات النشاز..  
الموت وسيلة للتسلي حين لا يعود هناك جدوى من الكلام.

والرازحي ينتظر الموت، يحده يتربص به بين الحروف، وقنية الخمر،  
والشوارع المنغلقة والمفتوحة، في قصيدته (نشوان ونكة الراعية) يلبس رداء  
الموت وينتظر، ليس ثمة مصالحة بينه وبين الواقع، كل الأشياء تتساقط أمامه  
وتتحول الحياة إلى نوع من الموت فلا ضرر إذاً من مجيء الموت الأكبر، ومن  
أجل هذه السوداوية أسس حزب التراب، وأخذ يبحث عن أعضاء ليتنموا إلى

هذا الحزب، يصفه بأنه الحزب الوحيد والفعل الذي يحقق المساواة، فحين نستلقي ويغمنا التراب ستكون القامات متساوية، ولن يجرو أحد على مد رقبة عالياً.

رفض طلباً تقدمت به للانضمام إلى هذا الحزب، ولم يصرح بحيثيات الرفض أكتفي بتريده:

- لا يمكن لك أن تكون من حزب التراب.

حينما عبرنا مقبرة خزيمة تلك المقبرة المخصصة لذوي الجاه، سخر الرازيحي من موتاهما:

- هؤلاء يظنون أنهم سيتسبدون حزب التراب أيضاً، لكنهم في الحقيقة سيكونون أقل رتبة. في حزبنا نخلصنا للتو من ضجيج باب اليمن حيث تجلس تلك الأجساد المكدودة خلف بضائعها مرسلة أصواتها المنغمة والمتغنية بمواصفات تلك البضائع الهشة لجذب المشترين، محلات البز، والحداة، والعطارة والفضيات والصرافة والخزفيات، والملابس القديمة..

ضجيج واحتفال بالحياة، فرحة تفور من وجوه خابية تستلهم يومها بالحركة، غير مكترثة بالغد، ينظرون إلى يومهم شرراً ويطأونه باللامبالاة..

صبي صغير يحمل ثياباً مستعملة ويركض خلفنا، كان يتودد إلينا لشراء ثوب أو ثوبين، وجهه الطفولي تلبسه حنكة الباعة المهرة: باستطاعتك إرجاعه لو لم يناسبك؟

- أنا لا ألبس ثياباً مستعملة..

- أنت سعودي؟

- نعم.

- لم أعرض بضاعتي لك، فأنا أعلم أن جيوبكم المملوءة لا تشترى المستعمل.

- حسناً سأشتره منك.

- لا لم أعرض بضاعتي عليك، عرضتها على صاحبك.

تأفف الرازيحي: قلنا لا نريد.. وزجره عبدالله بعيداً، كنت راغباً في الحديث معه..

- ما الذي حلك للبيع في هذه السن؟

وكمن يرغب في عرض حالته، وإظهار قسوة الأيام امتدت أنامله لحك رقبته، وانفطر محدثني عن تركه للمدرسة لينهض بأسرته بدلاً عن أبيه الذي ينام في سجون إب لاختطافه أحد الأوروبيين وذبحه.. قال: أحلم بالسفر لأي مكان يبعدني من هنا..

نقدته ثمن ثوبين، ومضيت فلحقتني بالثوبين:

- خذ بضاعتك التي اشتريتها.

- لا أحتاج إليهما!

فمد يده بالنقد التي أعطيته: وأنا لا أحتاج إلى نقودك.

ومضى صائحاً بين تلك الجموع المتحركة.

باب اليمن لم يعد يغلق في تمام الساعة السادسة والنصف ولم يعد يذهب الخدم حاملين مفتاح الباب ليد الإمام كي يسترخي مطمئناً أن صنعاء تنام في حضنة ولن يدخل أحد إلى مخدعها أو يخرج أحد من حداثها.

بقي الباب مفتوحاً تلج من خلاله كل الرغبات وتخروج منه كل الأحلام..

ملابس مهترئة ووجوه مغبرة تستعيز عن كلائحتها بطيبة تفيض من خلال تلك الأفواه المتكورة بالقات والصبر الطويل على فاقة سحقتهم فبقوا يجاورون أحلامهم ويتنظرون ما تأتي به الأيام القادمة.

زرت باب اليمن مرة أخرى، هذه المرة ضمن الوفد الرسمي، رأيت رجال الشرطة يتهرون تلك الأجساد المهلهلة ويعدونهم ويصيحون بآلة الزبيب والخضرارات لرفع بضائعهم المترامية على أرضية السوق، كان مقرراً للوفد أن يقوم بزيارة لباب اليمن، زيارة تبعد الروح عن الروح، تسير محاطاً بالعسكر، فكيف يمكن للوفود أن تسير في هذا الطوفان البشري، أبدى كثير من العسكر فظاظة مع السائرين والقابعين على أرضية السوق، أحد الباعة استعجل زملاءه بالتهوض وحمل بضائعهم بعيداً نائراً سخرته اللاذعة:

- الخلف الأطلنطي سيزورنا.. اتركوا كل شيء واستقبلوه بالابتسامات فرمنا يمنحوننا قرضاً بلا فوائد.



وواصل بعضهم استهزائه بتعداد ما سيقدمه لهم الغربيون من جنة غائية ..  
سارت سيارة الشرطة غير مكترثة بأولئك الذين لم يتحركوا من أماكنهم،  
فهرع الجالسون بالنهاوض، متذمرين وأطلق بعضهم شتائم في الهواء:

- حتى الحيوانات تنتبه لها.

صرخ به أحد العسكر عذراً:

- صه ..

- تريد أن تدهسوننا وتأمرونا بالصمت!

- هؤلاء ضيوف الرئيس!!

- على عيني ورأسي، بس نحن شعبه.

تجمهر الناس حول الحافلة التي تقلنا، واختلقت تعبيراتهم، وكلما تحققتنا

خارجين من داخل السوق سمعنا سخريات مخلوطة بكتكات وشتائم حارقة ..

كانت سيارتنا قد ابتعدت عن تلك الشتائم بقدر لا يمكننا من سماع بقيتها.

[٤٤]

رأيت كنتماس مل جلده الارتماء في الماء فخرج ليشمس، جلس في مقعد  
يمكنه من التقاط وجوه العابرين في الشارع المقابل للفندق، وقد رفع نظارته  
فوق رأسه وبقيت يده تهمز أطرافه بحنو يقترب من حنو الأمهات اللاتي رزقن  
بمولود وحيد، وقفت على رأسه:

- أعذر يا عم فاروق.

أشاح بوجهه صوب الشارع المكتظ بالمارة واستنهض ملاحه لتظفر  
باشمئزازها وعدم رغبتها في الحديث.

- لا ينكر فضل مصر على الأمة العربية إلا جاهل ..

.....

- عم فاروق أقرأ لك منذ وقت مبكر وتعلمت على يدك ويد الكتاب  
المصريين، تعلمت من كتاباتك القومية وحب جمال عبدالناصر وكيف نحب  
الوطن الكبير... العزة العربية خرجت مع الثورات المصرية، ثورات الطلبة  
والرجال الشرفاء ..

التفت نحوي وهو يمصص شفتي وتفحص قامتي بشيء من التأفف:

- إذا ظللت صامتاً سأعرف أن كتاباتك لم تكن سوى تسويد صفحات.

انفجر كجبل داهته حم من غير توقيت:

- حتى اعتذارك بليد، أنا ما زلت مصرّاً أن بلدكم سبب تخلف هذه

الأمة!!

- عم فاروق لتترك بلدنا وبلدك وتحدث أنا وأنت.

- نتحدث في ماذا بعد كل تلك الشتائم التي كلفتها لي ولمصر...

- كنت مضطراً لإيذاء سلوى فدخلت في الخط.

- الإيذاء، أتؤدي امرأة، ألم أقل لك إنكم شعب لا يعرف كيف يعيش حياته.

- ها أنا أتورط في اختيار اللفظة، لقد بدأت بالاستخفاف ببليدي فلم أقدر على التسامح، ولو أن الذي ناديتكم به نجح لاستطعنا أن نفاخر بكل دولة عربية...

- ها أنت تتهم مشروعتنا الثقافي بالفشل من غير دراية..

- أي دراية يا عم فاروق منذ عصر التنوير إلى الآن ولم تفلح دولة عربية في إرساء مشروع نهضوي قائم على حرية التعبير..

- اسمح لي أن أقول لك إنك جاهل تنقصك المعلومة وقبلها فرزها وتحليلها!

واتسعت رغبته للحديث، جذبني للمقعد المجاور له:

- اسمع يا ابني...

لمحت قرينتها يتهاذى من بعد ويدس جسده داخل المصعد، نهضت على عجل تاركاً فاروق يتحسر على اتساع رغبته، وركضت باتجاه المصعد سمعته يفرط بقولته الأخيرة متأففاً:

- ألم أقل لك إنكم شعب نساء وخمر!!

[٤٥]

أريد أن أنام.

يأبى جفناي أن يغمضاً فكلما أغريتهما برؤيتهما في المنام فارت الأحلام التي نسجناها معاً.

أي نوم يمكن أن يأتي وأنا أتنفس الهواء الذي تنفسه الآن، أقطن في مكان يقرب منها كثيراً، فربما تكون إحدى نوافذ الفندق تطل على بيتها.

وربما يجول أخوها الصغير في بهو الفندق أو في شارع عبدالمغني.

اسم أخيها رمزي سمته بنفسها، حين جاء للعالم كنت قد أفصحت لها عن حبي بطريقة ساذجة صبيانية، أظن أن عمرها لم يتجاوز الثانية عشرة في ذلك الوقت، ثقلت كلمة (أحيك) بضحكة واسعة وركضت في الشارع متلفتة نحوي مغطية ضحكتها بيديها الصغيرتين شيء ما كان يطير من عينها ويحمل جسدها الناحل لأن يغرد في بقية الشوارع، هذه الكلمة ربطتنا منذ ذلك العهد، تبحث عن وسيلة لتصل إلى بيتنا، وأبحث عن أي وسيلة لأدخل بينهم، حين ولد رمزي مكثت الليل مرافقاً لأمي وهي تطيب أمها، كنت أجلس في غرفة الاستقبال وهي تزودني بكل أنواع العصير والمأكولات، تتخير لحظة انشغال أبيها وأختها وتطل بوجهها من خلال الباب المنفرج:

- أعجبك الممول الذي قدمته لك؟

وتغيب لحظات وتعود لتلقي جملة أخرى:

- أعجبك صحن المعكرونة؟ أمي علمتني الطبخ، تقول: لا بد أن تكوني

طاهية ممتازة كي ترضي عريسك.



كانت جملة طويلة كلّفَتْها توبيخاً وزجراً نارين، ففي ذهابها وإيابها لمحها أبوها واقفة أمام الباب مباشرة تحاول إنهاء جملة الطويلة تلك، فصرخ فيها غاضباً:

- ماذا تفعلين هنا؟ .. سأعرف كيف أجعل قدميك لا تستطيعان حملك .. ادخلي للدخل يا كلبية!

في الليلة التالية تقاعست أمي، ولم تذهب لرؤية أمها النفساء، فبرعت للاعتذار لأمي، طرقت الباب برباطة جأش ففتحت الباب، وغطت فمها بيدها:

- ماذا جاء بك؟

- جئت أحل رسالة لأمك ..

وقف أبوها على رأسها لتعلمت كثيراً: أمي تبلغكم اعتذارها لعدم مقدرتها على المجيء ..

عبس في وجهي: بلغها شكركنا وامتناننا.

وعاد لغرفة زوجته موصياً وفاء بتحميلي قارورة عسل كهديّة، فجذبني بحذر، وأدخلتني غرفة الاستقبال:

- أبي خرج من الباب الخلفي، انتظري قليلاً حتى أتأكد من ذهابها!

غابت للحظات وعادت متشّبة:

- لقد ذهب يمكنك البقاء لبعض الوقت.

مكثت ملتصقةً بجسدها، كنا أصغر من خبث الطبيعة الباحثة عن التكاثر من أي لحظات التقاء، كنا طفلين، تمجأورنا كشجرتين لا تعرفان كيف تنجزان عملية تلقيح آن أواننا فقيتا مستسلمتين لهبوب الريح تتلاقى أوراقيهما وتفترقان بنشوة عاشقين جمعتهما رحلة سفر واحدة، اكتفينا بالالتصاق الخدر، والبحث عن وشوشة تدنينا كثيراً:

- سوف أسمي أخي الصغير رمزي.

- ألم تنفق أن يكون هذا الاسم خاصاً بابنتنا الأكبر؟

أبدت دلالاً فائراً: ابنك سيكون سمي أخي .. ألا يرضيك هذا؟  
صوت أمها المجهد يصل إلينا خافتاً:  
- وفاء .. وفاء ..

دفعتني إلى خارج الغرفة وناولتني قارورة العسل بعد أن دست إصبعها داخلها وأخرجتها لألعقها:

- أنت كهذا العسل في داخلي.

عدت مخموراً بريقها، لم أسلم أمي تلك الهدية، أبقيتها في مكان آمن العلق منها كلما استعصت الظروف ومنعتني من رؤيتها .. ومع رحيلها غدا حلقي مجرى لعسل الدنيا وكلما تجرعت أمعت في غيابها.

لو رأيت رمزي الآن هل سأعرفه أو أعرفني، هل سيتذكر أن شخصاً كان يدس في جيب ثوبه رسائل عشق لأخته، هل سيتذكر تلك الأشرطة التي أزودها بها ليوصلها إليها بعد أن أفسدت ضميره بريال وضعته بين يديه، لا شك أنه الآن شاب يحرق فتوته بين عيني الفتيات الفاتنات هنا، لو سألت عنه هل سيذكر مجاورتي له أم استغلالي لطفولته، ربما يتذكر سفالتي التي ركبته براسته ولن يتردد من سل جنيتيه المثبتة على خاصرته ليوقف هذا النبض ويثأر لطفولة ممتنة.

هل بقي في اليمن أم فر كالكثيرين إلى داخل السعودية متسللاً عبر الحدود التسعة، بحثاً عن سراب أو طفولة نمت في أزقة جدة.

جمال أبو ناب ولد في مستشفى باب شريف وحين انفجرت أزمة الخليج كان يقف بعمره العشرين مودعاً أزقة وشوارع لم تمل من طفولته الشقية، خرج بحثاً عن جذوره وعندما وصل إلى اليمن اكتشف أنه جز جذوره من شوارع جدة فعاد إليها سيراً على الأقدام، يقسم إنه حين رأى بحر جدة لم يتمالك نفسه وقذف بجسده سابحاً .. غاص للأعماق كمن يرغب في العودة إلى رحم يحميه من صلاة الواقع، جالسته علّني أعرف طريقاً إليها، فروى لي كيف قطع الطريق سيراً على قدميه حتى وصل إلى جدة، كان برفقه شابين خرجوا معاً من حرض وتسللوا عبر قرية المجنة، ومن هناك ساروا باتجاه جدة، كان مسيرهم

ليلاً، وفي النهار يمتعون بالجبال أو الأشجار حتى إذا هل الليل نشطت  
أرواحهم وأمعنوا في السير .

في تلك الرحلة لم يصل إلى جدة سواه، فقد لُدغ أحدهم ولم يستطيعوا  
إسعافه فظل يقاوم السم الذي عكر دمه حتى لفظ أنفاسه بالقرب من مدينة  
القنفذة، فواراً جسده في حفرة لم يكملها حفرها جيداً، ومضياً من غير أن  
يلتفتا إليه، أما رفيقه الثاني فقد أكل الجوع أمعاءه فقرر أن يدخل مدينة الليث  
لجلب الغذاء والماء بالاستجداء أو العمل لساعتين أو ثلاث مقابل وجبتين، ولم  
يعد فقد مد يده لرجل شرطة بملايس مدنية ليقوده معه كأول متخلف يقبض  
عليه في دورته المسائية محتسباً هذا العمل إنجازاً يحسب له قبل ارتداء برزته  
العسكرية والبدء في دوامه اليومي، وتم ترحيل ذلك التعميس بعد أن قطع أكثر  
من ستمائة كيلومتر سيراً على الأقدام.

عندما وصل جمال أبو ناب وجد أن جدة لم تعد جدة، فقد بات يسير  
متخفياً وترعبه سيارة الشرطة، ويذعن لكل من رفع صوته في وجهه . هذا  
الذي كان لا يرضى أن يدوس له كائن من كان على طرف بدا ضعيفاً مسالماً  
يبحث عن عمل فلا يجد فأصبح ثقيلاً على أصدقاء طفولته يومياً يقترض ما  
يسد به حاجته، يسهر في الليل مفكراً في أولئك الذين ينتظرون أن يزودهم  
بما يقيم أود فاقتهم في تلك الخيام التي أقيمت للمغتربين العائدين من  
السعودية.

كنت أخرج من محادثة أبو ناب حين الملح ندى عينيه، ونظّل نتبادل  
ذكريات هذا الحي حين كانت تجري فيه الحياة.

في أحيان كثيرة أشعر بآلم حين الملح وطأة النعاس الثقيل تداهم فيترنح  
رأسه بين كتفيه، لم تعد العزبة ترحب بمقدمه بعد خشيتهم من مداومة فجائية  
تستهدف المتخلفين، استشعر بذلك فتعمد السهر في الشوارع الضيقة وسرعة  
نوم خاطف يفيق بقية النهار بحثاً عن عمل يقربه من حلم طار منذ تلك الليلة  
التي قرر فيها العودة لليمن.

كيف يمكن أن أستجلب النوم وهذه الذكريات المرة تسيل من هذه الذاكرة  
المسودة بوجوه تؤسس لخرايه تليق بغربان حطت بين أنقاضها؟

هل عاد رمزي لرحم جدة وأزقتها أو أنه ما زال يجوب صنعاء متذكراً  
طفولة أفسدها ريال دس في جيبه؟

ربما لو خرجت الآن وسألت عنه أجده في مكان ما من صنعاء عدله  
يوصلني لرؤيتها أو يوقف بجنبتيه هذا النبض المتسارع .

تنازعني هذه الأمنية، فالبح جمال أبو ناب كالمهاجرين القدماء يحمل زوادته  
في طرف عصاه النائمة على كتفه ويحب القفار بقدمين شققهما الشوك والحجارة  
الصلدة وأغنية تزهري على شفثتي وتشوف لعينين أحرقهما الشوق وحين يصل  
يقف بين يدي حبيبته مهزوماً مهدوداً.



تشوقت لرؤية قاع اليهود.

هافت عبدالله الدليمي وأبدت له رغبتني، جاءني صوته منشراحاً:

- لماذا اليهود تحديداً؟

(حقاً لماذا اليهود ألا يزال ذلك الظن الذي أسسه أبي قابعاً في داخلي؟).

- ألو.. ألو.

- نعم.

- لماذا اليهود تحديداً؟

- لم أر في حياتي يهودياً.. أعرفهم من خلال التاريخ، ومن على منابر الجمع، في كل صلاة جمعة أحضرها في الجامع الكبير أسمع الخطيب يصفهم بأنهم قوم سحت، وملعونون، وأنهم مسخو إلى قردة وخنازير، أتخيلهم كعراس البحر، نصف كائن حيواني والنصف الآخر بشري.

- يبدو أنك تعشق الأساطير، هم أناس مثلنا، الاختلاف بيننا اختلاف ديني.

- أعرف كل ما سوف تقوله لكنني راغب في زيارة قاع اليهود.. هل تصحبني إلى هناك؟

وضعت سماعة الهاتف، بعد أن تحدثت الثانية ظهراً للقائنا.

لم أر خنزيراً على الطبيعة في حياتي، كان أبي يصف أباهما بالخنزير حين يشتد بينهما الخصام لأي احتكاك تحدته تفاصيل الحياة اليومية، يظللان جارين ودودين إلى أن يحين موسم الأمطار واندفاع مياهها نحو منزلنا المنخفض يتم

ذلك بسبب تصريف موسى الفيل للمياه الراكدة أمام بيته وتصريفها نحونا مباشرة لتجد تلك المياه المندفعة شئنا أمي منتظرة موسى الفيل ومتوعداً إياه بنحوه إلى غرس تكون أوحال الأمطار مغذية لجذوره إن لم يكف عن تصريف المياه المنحدرة عن بيته، ومع انقضاء الأمطار يتشاجران في مركز الحي لأي أمر تافه، كانا يقفان كخطين متوازيين ألفا تباعدهما وإذا اقتربا يوماً تذكرنا طبيعتهما فيعودان للافتراق، مع هذا الافتراق كانا يجنان لبعضهما لو أن أحدهما توعد أو سافر ويظل كل منهما يسأل عن خطه الموازي حتى إذا عاد جلس كل منهما في خطه المقابل.

نعم، لم أر في حياتي خنزيراً على الطبيعة وكلما سمعت خطيب الجمعة يأتي على سيرة القرد والخنزير يتنصب وجه أبيهما أمامي بدائريته واحمرار وجتيته وغلاظة مقدرات وجهه.. في العطل الصيفية تتحرك أسرنا مجمعة صوب مرتفعات الطائف ونقضي أياماً بين مرتفعات الشفا والهدا، هناك تركض القرد في كل مكان فأظلل أبحث بين مجموعاتها عن الخنزير الذي ارتبطت سيرته بالقرد وفي زمن ظننت أن الخنازير نوع من أنواع القردة، وتنبهت أن القردة هي الكائن الوحيد الذي لا يغطي مؤخرته، كان أبي حين يلمح أحد إخوتي عارياً يصيح به:

- يا قرد..

فتسارع أُمي لتغطية تلك العورة.

وبقيت لزمن أيضاً أترىص بمؤخرة موسى الفيل علني أراه عارياً كقرد لا يستر مؤخرته.

الساعة لا تزال واقفة عند الحادية عشرة وثمان دقائق.. هو وقت مناسب لإجراء اتصال، راودني شك في الرقم الذي أحفظه عن ظهر قلب، فأخرجت القصاصات للتأكد، وأخذت أضغط على أرقام الهاتف رقماً رقماً، رن الجرس في مكان ما من صنماء، فأخذت أنتظر متحفزاً، رنين متواصل وقبل أن أفكر في إرخاء السماعة سمعت صوتاً حاداً يقب أذني:

- ألو.

- مرحباً لو سمحت أريد محادثة الجحش.  
رد ضاحكاً:

- وهل تظن أنني في زريبة حتى أوصلك بالجحوش؟

- عفواً هو مشهور ببزته أنا مرسول إليه من عيسى شرف.

- من أنت؟

- ضيف من السعودية.

- كنت أمازحك هل تقصد غلام؟

- نعم غلام.

- غلام في عدن نادراً ما يأتي إلى صنعاء.

- وكيف الوصول إليه؟

- تسافر إليه أو تترك رقم هاتفك لكي يتصل بك.

تركت اسمي ورقم غرفتي وحينما أحببت الاستزادة منه، أغلق السماعه تاركاً وجعاً وضيقاً يعتركان في داخلي.

تذكرت أنني أحمل رقم تلفون الشاعر صابر عبدالودود، جاء إلى السعودية مفتوناً بقصيدته الحديثة، لكنه لم يكن على وفاق مع ذاته، يستنكف من كل الأقاويل التي تدور حول اليمن والسعودية، كان معذبا يوسواس ينخر داخله يوماً يستشعر أن المثقفين يتخافتون في داخلهم: هذا جاسوس، ويستشعر أن بلاده تعدده من المرتزقة، غالباً يكون صوته نشاراً بين المثقفين السعوديين الذين يرون في مطالبة اليمن بأجزاء من الحدود الجنوبية ورقة سياسية مهترقة، فيصمت على مضض خشية انزلاق لسانه فيجد نفسه رجلاً غير مرغوب فيه على الأراضي السعودية، يسرب استنكاره عما يحدث من خلال عينيه المتسعيتين، ولا يستطيع مبادلة من حوله السخرية على السعودية كما يفعل أقرانه من المثقفين السعوديين، في جلسات كثيرة يستلهم قصيدة البردوني (في وجه الأزمة الثالثة) يلقي مقدمتها ويستكمل ما تبقى منها بينه وبين نفسه.

علمت أنه أصبح مدير تحرير لإحدى الصحف المحلية، فتشت في جيبه عن رقمه فلم أعره عليه، فتحت حقيبتي، فتذكرت أنني تركت مجموعة من

الأرقام على سطح مكتبي ولم أحملها، شعرت بالضيق، اتصلت بالاستقبال لكي يوصلني بإحدى الجرائد المحلية علني أعره عليه أو على هاتفه، جاء الصوت لرجل تميل لكنته للهندية، فبدت اللغة الإنكليزية على فمه كقراصة لا تجيد الرقص، وكانت لغتي أكثر بؤساً منه، ظلت أنلعم وأنا أحاول تذكر بعض المفردات الإنكليزية التي يمكن لها أن تسعني في إظهار مقصدي، اعتذر رجل الاستقبال الهندي كونه لم يفهم تحديداً مطلبتي.

كنت أجلس تلميذاً على يد ياسين ليعلمني بعض الجمل السريعة المقتضية، فيعد أن دخل للسفارة الأمريكية لم يعد يتحدث إلا بالإنكليزية متفخراً على أبنائه المحي جميعاً وفي مقدمتهم حسين داود، وفي كل مرة ألتقط منه كلمة أو جملة وأستخدمها في مكان غير مناسب، قال ضاحكاً:

- لن تتعلم حتى تختلط بالناس وخاصة النساء.

ووعدي أن يجدي لي مكاناً داخل السفارة، وكنت أتابع هذا الوعد بتلهف وهو يستمهلي حتى جاء نبأ سفره إلى ولاية فرجينيا من غير مقدمات فقد تبناه أحد الأمريكيين واستطاع إقناع العم جابر أن مستقبل ياسين سيكون مشرقاً لو أنه سافر لأمريكا وغاب هناك زمناً طويلاً حتى رأته في بيت الشيخ منور.. حين مددت يدي إليه كان بارداً، فمه يتمتم بأدعية منخفضة، كنت راغباً في أن أمازحه:

- ألم تجد لي مكاناً في السفارة الأمريكية إلى الآن يا ياسين؟

وعندما التقينا رمقني بنظرة حارة، وعاد لثمتامته، في ذلك اللقاء اكتشفت أن ياسين لم يعد هو ذلك الصديق الذي جمعتنا أيام من الشقاوات والطفولة البرية، قطع محاولة تذكيري إياه بطفولتنا بجواب قاصم:

- استغفر ربك على ما فات من ذلك الزمن.

كنت أود أن أقول له:

لم نكن مكلفين في ذلك الزمن.. كنا صغاراً يا ياسين.



كنت أستحضرها في المواقف الصعبة وفي أحيان كثيرة أدعو الله ألا تراني في موقف غمز . .

إن أي إهانة مهما كانت هينة تقتلنا معنوياً أمام من نحب .

تهاديت صوب رجل الاستقبال وحجل عظيم يفتت داخلي كلما تخيلت أن أحداً لمحيي وأنا معلق بين يدي أولئك النور ذوات الأنياب المهشمة .

ناولني رجل الاستقبال رسالة طويت بعناية :

ربما لا تعرفني، لكنني أسمع عنك جثت أنا وصديق لرؤيتك، سوف نتصل بك لاحقاً .

وجدي الأهل

تذكرت على الفور، قصة جميلة بعنوان (البطلين) قرأتها في أخبار الأدب لوجدي الأهل . . من خلاله يمكن أن أتصل بالأدباء الشباب في اليمن .

اخترت كرسياً مواجهاً لمندوبات الإعلام، وأخذت أفتش بينهن عن تانك العينين أو أن تنهض إحداهن بمشيئها، كلهن منقبات لا تظهر من وجوههن سوى عيون ترسل وميضاً خاطفاً وتحتج مرة أخرى .

رأيت عبدالله يقف على مدخل الفندق، ملوحاً بيديه ومطلقاً ابتسامة سريعة وهو يتحدث مع أحد رجال الأمن بالفندق، عرفني على اسمه حال وصولي الى اليمن، كان مكلفاً باستقبالي، لهجته لم تكن يمانية صرفة كان يحاول تقريبها من تلك اللهجة الحبلية الصخرية ومع إيداء هذه الملاحظة أخبرني أنه من أبناء حيي السليمانية في مدينة الطائف ولد هناك ودرس بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة وعاد هو وأسرته إلى اليمن بعد وقوع أزمة الخليج .

- أشعر بفارق يا عبدالله؟

- لا أخفيك عندما عدنا كنا نشعر بأننا غرباء فقد استوطن والذي مدينته الطائف منذ عام ١٩٦٢، فمع بزوغ الثورة غادر أبي اليمن فقد كان محسوباً على الإمام ولم ندخل إلى السعودية كلاجئيين سياسيين، إنما كعشاق للملكية، كان أمام أبي أن يذهب إلى الأردن أو إلى المغرب أو إلى السعودية، وفضل أن يكون قريباً من بلاده، فاستوطن السعودية على أمل أن يعود البدر ملكاً على اليمن،

[٤٧]

الساعة تقترب من الواحدة والنصف، كنت أجد حرجاً في صدري، فكرت في النزول علني أرى قرينها، خطفت كوتي من على السرير مبدئياً رشاقة بهرولة قصيرة في الممر المؤدي للمصعد والنتهي بعطفه، في المنحنى تماماً اصطدمت بشخصية - تبدو أهميتها من خلال مرافقتها - حيث كانت تتقدم شخصيات ذات سحن أفريقية، لم أتبين ملامح تلك الشخصية في البداية حيث انشغلت بالاعتذار (باللغة المتداعية نفسها) وأنا معلق بين يدي اثنين من مرافقيه العتاة، مط شفتيه كغوريلا تتهيج وتهم بالبطش، وقبل أن تكمل فورانها هدأت، هدأت تماماً، يبدو أن منظري كان مضحكاً وأنا معلق بين تلك الشجرتين العملاقتين وهما يقلبانني في الهواء ذات اليمين والشمال، هذا النظر أدخل السرور إلى قلب ذلك الرجل الغوريلا فرمى كلمات صلدة لأسقط بين يدي مرافقيه كلمبة قديمة كان عليها أن تقذف بنفسها لأقرب مخرج لتبتعد عن نمور أحراش أفريقية مهمتها الانقضاض على أي كائن حتى ولو كان من ورق .

انسحبت من أمامه تاركاً المصعد ومتسرباً من بوابة الطوارئ .

أين رأيت هذه الملامح، فهي مألوفة، أليكون أحد الصحافيين اللامعين . . أو الرياضيين، أو الساسة، هذا هو الاحتمال الأقرب للصواب!

حدثت الله أنني لم ألتحول إلى لعبة تثير السخرية أمام الملائق فلو حدث هذا المشهد في مكان عام فربما تحولت إلى صيد لكاميرا صحافي أو قناة تبحث عن المشاهد المضحكة والزرية في آن .

كيف لو حدث هذا . . ستشاهدني وفاء على هذه الحالة، طوال عمري

واختار مدينة الطائف مقاماً لبرودتها وتقاربها مع مناخ صنعاء ومع ما حدث بسبب حرب الخليج عدنا، كان أبي خلالها قد وصل إلى قناعة بأن الملكية أسوأ نظام حكم يمكن أن تكون عليه البشرية، عاد من غربته يهتف لعلي عبدالله صالح. كانت أباينا الأولى معاناة حقيقية. . وكانت مشكلتنا كيف نتأقلم مع أوضاع حياتية فقيرة من كل شيء. .

أبي لم يستطع البقاء، ففي صبيحة اليوم السابع لمجيئه أيقظ أمي واخوتي وقرر العودة للطائف - كما ذكره للملكية هذه المرة - وبقيت أنا هنا، لأعمل في بلادي وأثبت جذوري هنا كي لا أجد أحداً يرى في انتمائي مسببة تستوجب التوبيخ!!

كره أن يكون مطروداً وفضل أن يستشفى من حبها في غربته داخل وطنه!!

حياتي عبدالله، واسترخى على الكرسي المجاور:

- أما زلت مصراً على الذهاب؟

- إذا لم يكن لديك مانع.

- نحن هنا في خدمتكم، اطلب فقط.

- حسناً متى تتحرك؟

- كما تشاء.

من على بعد لمحت خطوة قربتها التي أسلمت جسدها لأحد المنحنيات، كان عبدالله قد نهض مستعداً للتحرك، جذبته من يده:

- ما رأيك في كأس شاي قبل أن نتحرك؟

- لم أفطر بعد، لقد استيقظت متأخراً، وكنت مكلفاً بإنجاز بعض المهمات المتعلقة بالفود.

- إذا تناول وجبة الغذاء، بعد ذلك نذهب.

- كما تحب.

تنبه لعيني الشاردتين، فتشاغل بتقليب مجلة سياحية قذفت على صفحة الطاولة المجاورة:

- النساء اليمينات عصيات.

قالها وهو يقلب صفحات تلك المجلة:

- لم أفهم ما ترمي إليه.

- نحن هنا لسنا بكنية العواصم العربية السياحية، ما زالت حمية القبيلة تجري في عروقنا، ألا ترى أن معظمنا متسلحاً بسلح. . ليس سلاحاً واحداً، فنجوار الجنيبة يرقد مسدس في جهة من أجسادنا.

- لماذا تقول هذا؟

- لا لم أقصد. . فقط تذكرت وأنا أقرأ هذه المجلة السياحية، كيف كنت أنظر للسفر، فعندما كنت في الطائف كنت أتصور أنه بمجرد أن تغادر مطار الملك عبدالعزيز يمكنك أن تضاجع أي امرأة أمامك. . وعندما وصلت إلى صنعاء اكتشفت أن رغبة عابرة يمكن أن تقابلها روحك. . الرجال هنا يفكرون متأخراً خاصة إذا كان الأمر متعلقاً بالمرأة فهم يفرسون جنبائهم في أي جسد يحاول تمرير شرفهم. .

حاولت أن أبدي غضباً زائداً:

- أعرف هذا، ولم آت إلى هنا لمضاجعة النساء.

- أعتذر لم أكن أقصد. .

- حسناً. . هل أنت مستعد للذهاب؟

- ألم تقل إنك راغب في تناول وجبة الغذاء؟

- أفضل أن نذهب قبل أن يغرس أحدهم جنيته في خاصرتي.

أطلق ضحكة قصيرة وهو يربت على كتفي:

- ما دامت عيناك هما اللتان تجولان في محاولة لاخترق سماكة كل نقاب فلا تخشى شيئاً المهم ألا تنشط بقية حواسك الأخرى. . ساعتها ستحول أنظار الإعلام العالمي لالتقاط صور لدمك المسفوح في مكان ما من صنعاء.

كان السائق المكلف بنا يجلس في مقصورته مدندناً مع أغنية لمحمد سعد عبدالله صدحت من جهاز تسجيل السيارة:

يوم الأحد في طريقي بالصدف قابلت واحد



غضب عني سرت بعده سرت ما هيت واحد.

نشوة السائق لا تقدر بشمن، كان كطائر يحلق في فضاء متسع لا شيء يربكه في طيرانه، السعادة أن تمتلك هذه الروح، كانت تحيته لنا ابتسامة واسعة مبدئياً همة فائقة لإدارة سيارته لأي جهة تريد، فكه الأيمن يطحن قاتاً رطياً يزيد من تكوره بمد يده لربطة قات استقرت بجواره، خطف عبدالله منها غصنين ناولني أحدهما، وغرس الآخر في فمه:

- ألم تقل إنك لم تأكل بعد؟

- غدا القات وجعنا اليومي.. فلا ضير أن أمضغ هذا الغصن مصبراً نفسي إلى ما بعد هذه الزيارة.

- يبدو أن الوفود أشغلتكم كثيراً..

ساعات قليلة ننام ونهب لتلبية رغبات الوفود، بعض الوفود يوقعنا في حرج زائد بمشاجرات ومشاحنات لا طائل من ورائها...

كانه تنبه للخطأ الذي ارتكبه حين قاطعته:

- مثل ما فعلته مع سلوى وفاروق.

تلثم معتذراً:

- لا والله لم أقصد ذلك.

- لا عليك، ولو كنت متعباً نؤجل هذه الزيارة.

- لست متعباً وهذا عملنا، وقبلها سمعة بلادي نحن نخدكم بعيوننا.

يوم الأحد في طريقي بالصدف قابلت واحد

كنت أبحث عن مجرى يزبل ارتبأكه وبعيد له طبيعته، فذندنت:

غضب عني سرت بعده سرت ما هيت واحد

- الغناء الصنعاني جارح.. ومحمد سعد رجل الأغنية الرومانسية.

- محمد ليس صنعانياً هو من عدن كل مشاهير الغناء لدينا من الجنوب

وجميع من يستمع للغناء اليمني يظن أنهم من صنعاء..

- محمد سعد جنوبي؟

- نعم هو والمرشدي وطابور طويل من المشهورين.

تكورت وجنته اليسرى بصورة لافتة ومفاجئة: هل تعرف أن محمد سعد في جميع القصائد الغزلية التي كتبها لم يكن موجهها إلا لزوجته؟

- زوجته، من منا يقدر على مواصلة هذا الغزل المديد مع زوجته!

كانت الشوارع التي نسيرها بهية ترتقي بها فورة الحياة في جهة من أوصالها، اخترقنا شوارع عدة، توقف السائق في أحد الجوانب، بشارع أشبه بشارع سوق اليمنى بجدة حيث تراص الباعة في خطين متوازيين لبيع الخضراوات والفواكه، والماكولات، والقات، المشترون للقات يغطون المكان كسرب حمام ألف الضجيج فتقل من مكان لآخر بسكينة مفرطة، اخترقنا تلك التجمعات، ومحاولاً ألا تظهر الكاميرا كي لا تستفز أولئك التجمعيين، أشار عبدالله:

- هنا يقع حي القاع وهو حي اليهود من زمن طويل.

اخترقنا شوارع عدة ووقفنا بحي القاع.

مجموعة منازل منخفضة ومتداعية، ودكاكين صغيرة - حيث كان اليهود يمارسون مهنتهم الأزلية صك الذهب والفضة ويبيعهما - نجمة داود تتوسط زخرفة أحد البيوت، رفعت كاميراتي والتقطت صورة لتلك النجمة وأدرت وجهي إلى الجالسين بين تلك الأزقة الضيقة، نفر أحدهم من جلسته:

- نحن مسلمون لا نظنون يهوداً.

- ألا يوجد يهود هنا؟

- رحلوا من هنا.

- إلى أين؟

- بعضهم رحل إلى وادي أبو جبارة وبعضهم استقر في ألمح فهم لا يجيدون البقاء وسط المسلمين.

جلبني عبدالله من يدي مفرقاً مجموعة من الناس التفوا حولنا:

- مسألة اليهود حساسة هنا لا تسأل كثيراً، أنا سأخبرك بما تود معرفته.

انطلق صوته ثاقباً تحف جميعتي:

- إن العلاقة السعودية اليمنية علاقة حساسة، كل الأمور بينهما ذات حساسية مفرطة، والمراجع لهذه العلاقة سيلحظ تذبذباً عنيفاً بين البلدين... وستحدث حرب بين الدولتين لا محالة!!

بهذا الجزم قال عباس سرور جملة متشياً..

- بسبب الحدود؟

- بسببها أو بسبب آخر!

في صالونه الثقافي تخرج القمامات المخبأة أسفل السجادة، هناك تكتشف أن البيت في حاجة إلى إعادة ترتيب، مرتادو صالونه يرفعون السجاجيد مشيرين لمكانها وحين يغادرون يتأكدون أنهم لم يميظوا الأذى عن الطريق.. هذه هي عادتهم!

لم أدام على حضور الصالون الثقافي الأسبوعي، وفي الأوقات التي تحملني فيها قدمي إلى هناك، أجد زرقاء اليمامة تحلق في المدى وتصيح:

- الحرب قادمة، وسيتبعها الدمار.. كل شيء سينضب!

عباس سرور يرى أنها ستنفجر بين البلدين حرباً عاصفة حتى لو تمت تسوية الحدود، يقول رؤيته من غير أن يعززها بحشيات تجعل توقعه قابلاً للنقاش..

ومع كل رأي يكشف المخيا تلتفت العيون بحثاً عن شخص مدسوس بينهم، أنت محتاج إلى تعزيز ثقتهم بك بتزكية يتقدم بها أحد المرتادين القدامى.. هذه الفئة مكنة إضافية تطحن الكلمات وتلتها من غير تخمير أو تنور ينضج مقولاتهم ومع ذلك تجلس باسترخاء منظر أن تمضغ قرصاً شهياً!! هم لا يثيرون التوجس أو يحملونك لوضع يدك على المدس عندما تأتي سيرتهم.. هم يحوطون كلماتهم الطائرة من أن تحلق لتصل إلى أذن شخص مدسوس بينهم!!

ما زال عبدالله يجهني من يدي متضجراً من عنادي وحرصتي على البقاء (هل عبدالله رجل مدسوس علينا كعادة العالم العربي حين يتم تهينة المخبرين

ليكونوا مرافقين للوفود الزائرة غير المرغوب فيها وتكون مهمة هذا المخبر إبعاد الزوار عن الأماكن المخبأة أو الأمور الحساسة والتي لا تود الدولة أن يعرفها أحد من أفراد الوفود الفضوليين.. هذا الإحساس جعلني لا أتقيد برغبته وأهمل نصيحته تماماً).

- هل باع اليهود بيوتهم هذه؟

المواطن اليمني يتبرع بالإجابة وكأن هذا كرم إضافي يزجيه لك مقروناً بالترحيب والضيافة أيضاً..

- لا، اشتروها يهود أمريكا.

- هل يعقل هذا؟

- نعم اشتروها بأسماء يمنية وما زالت هذه البيوت ملكاً لليهود وربما اشتروا بقية اليمن بالطريقة نفسها!!

امتعض وجه عبدالله وابتعد عني صوب متجر صغير لبيع علب دخان. قاع اليهود من أحد الأماكن التي تفوح برائحة الماضي، الخشبية أن تأتي إسرائيل لتنتقب عن آثار لأسلافها، فهل شراء البيوت اليمنية تمهيداً لاستيطان إسرائيلي قادم؟

وميض الكاميرا يفعل الأعاجيب، جذب وميضها عدداً غير قليل من مدوا رقابهم لأخذ صورة من غير أن يتحسسوا أو يسألوا أين ستذهب صورهم الضاحكة وذات الحركات الصبائية في أحيان كثيرة، اقتربت من أحدهم متودداً:

- كان يجاورنا شخص في السعودية قال إن أهله يقطنون هنا، فهل تدلني

على منزلهم؟

- بيت من؟

- بيت موسى الفيل.

- لا أعرف أحداً بهذا الاسم يقطن هنا.

والفتت إلى بعض مجاوريه وهو يشد همة غيخته بتريد الاسم:

- هل تعرفون أحداً بهذا الاسم؟



كانت وجوههم الكالحة والرمهة في آن تبحث عن هذا الاسم في أرشيف  
ذاكرتهم مما حملني لمساعدتهم: عادوا إلى هنا منذ عشر سنوات.

.....

- هل تذكر أحدكم؟

وفي جملة جماعية أجابوا:

- لا، لا، نحن لا نعرف أحداً بهذا الاسم.

كان عبدالله يقف من على بعد يرمقني بعينين حاريتين، ها أنا أضيف إلى  
شجارتي مع سلوى وفاروق حركة لم يجدها مرافقي، فتحركت باتجاهه معتذراً  
عما سببه له من ضيق.

لا أدري لماذا تراودني فكرة أن وفاء سليلة عرق يهودي تم طمسها، ربما  
يكون السبب في ذلك جملة أبي التي دائماً ما كان يرددتها:

- رجل كالضبع يتبول واقفاً ولم أره محرمًا قط.

[٤٨]

- سنذهب إلى وادي ظهر.

منذ أن خرجنا من الفندق ونحن نلمح الجنود متناثرين في كل مكان،  
نمل من الجنود تفيض بهم الطرقات يترامون كحبات البرد في مساء عاصف،  
كان منظرهم مبهراً فكثافتهم أحالتهم إلى مشهد للسلوى، متراصين كأعمدة  
الإثارة ومتجاورين على مسافات متساوية وكأنهم جذور لأشجار قديمة ثبتت  
في هذه الأرض ونسي أصحابها أن يقطعوا ثمارها، مجموعات كبيرة تموجت  
مع تضاريس الأرض، تجدهم في أغوار الأودية، وفوق قمم الجبال وفي  
الأحراش، وعلى امتداد الشوارع مدججين بالأسلحة وينظراتهم البائسة المتابعة  
لتدقيق سيارات الوفود المتقاطرة كمدرعات حرية:

- هل ألبسوا كل أبناء اليمن البزة العسكرية؟

كان أبي يضحك كلما رأى الجند متناثرين في الشوارع لمرور موكب رسمي  
أو شخصية كبيرة، يضحك حتى تدمع عينه واصفاً العسكر بحمير السلطة وإذا  
توقف عن الضحك قبض على إحدى أذني بتقطعية سرعان ما يشبته على وجهه:

- إياك أن تكون حماراً كهؤلاء!!

مع تخرجي من الثانوية نازعتني رغبة الالتحاق بكلية الملك فهد الأمنية،  
حصلت على الاستمارة وقبل أن أكمل تعبئتها كانت يده تحطف أذني مزجراً:

- لن تفهم أبداً!!

.....

- الجندي كغطاء المرأة يغطي جمالها، والعسكرية تغطي المعدن الأصيل  
للرجل، تحوله إلى عبد عليه تلبية أوامر سيده والموت بدلاً عنه.. لقد وضعوا

الجندي لحماية الكراسي، الكلاب هي الكائنات الوحيدة التي يستعملها الإنسان للحراسة.

الجمال السابقة لم تكن في سياق واحد، نثرها على مسامعي في أوقات مختلفة ومع كل جملة شق وجهي صارخاً:

- فهمت أم لا؟

تغيرت في تصنيفه، لم أكن قادراً على استظهار نواياه أو على أي جهة يتكئ، الآن وبعد كل تلك السنوات أستطيع الحكم عليه، هو رجل تطرف في آرائه، ولم يكن تطرفه إلا نتاج طبيعي لكأثرية نظرية الكبير، فالكبير لا يخطئ رأيه دائماً صائب، هذا الكبير لا أحد يخالفه، من هنا نشأت وتوطدت فكرة الرأي الواحد ليتناسخ هذا الكبير إلى أعداد مهولة كونت المجتمع ذا النمطية الأحادية، أصبح مجتمعاً يتناقل خبراته وأحكامه وتسلط الرأي، أفرز عينات متطرفة في آرائها ومتصلبة لا تحيد عن خطأ الكبير لأن الاعتراف بهذا الخطأ سقوط لنظرية الكبير وبالتالي سقوط المجتمع برمته!

جئت من جبل أزهب بشتى صنوف العذاب، أزهب بالتعذيب الجسدي، والروحي، والنفسي، تعلقنا في جبال غليظة وعندما كبرنا كان علينا أن نعيد تجاربنا لأبنائنا لكننا وجدنا أن الجبال التي أوفقتنا جبالاً ذائبة وأن أيدي أطفالنا ليست قوية بما فيه الكفاية.

هبت القنوات الفضائية ريح عاصفة جندلت كثيراً من آراء الكبير، خلخلت ذلك المجتمع المتصلب جعلته يتنازل عن شيء من سطوته مقابل تغير يجد نفسه فيه قشة تتطوّر في الفراغ.. فأخذ الكبير يبحث عن فراغ آخر تبقى له فيه قيمة.. الانتقال من الفراغ إلى الفراغ وتشكيل فراغ آخر له مواصفاته التي تقبل بها وإلا رفض أحجامنا الجديدة.

اهتز صنم الكبير قليلاً، رأيت أبي يتراجع عن صلابته وجبروته حين جلس ابني الأصغر في مجلسه واتهمه بأنه لا يفهم شيئاً، فخطف أذنه بين يديه ليصبح به:

- أتوب يا أولاد الكلب.

تلفّ لأمي ضاحكاً:

- لو أنه قالها في ذلك الزمن لقطعت لسانه.

ضمه إلى صدره وأخذ يستمع إليه بشغف، وهو يروي له سيرة مائة مرقش ومرقش مشتركاً عليه أن يقوم بدور بنقر بدلاً عني، ولم يغادر مجلسه حتى وعده بإقامة مأدبة كبيرة يدعى إليها جميع الأقارب لكي يمكنه من تسمية كل واحد منهم باسم كلب من كلابه المرقشة.

اهتز صنم الكبير قليلاً، كان المرور على كلماته يعني المساس بهيئته يكفي أن يقول ليتحول قوله إلى فهم مطلق لكل حرف تفوه به حتى وإن لم تفهم كلماته التي تفوه بها.

كاد يثقل رأسي بمنفضة السجائر التي تجاوره حين شتمت جمال عبدالناصر، حدث هذا مع عبور أول سفينة إسرائيلية قناة السويس دخلت عليه بالشاي وكان منهمكاً في تعديد مساوئ أنور السادات (عل مسامح صديقه عثمان الوردى) واصفاً إياه بالشجرة التي تنمو في ظل الأشجار الكبيرة وحين تقص تبين أعشاباً طفولية سرعان ما تصفر ويذهب اخضرارها.

كنا يوماً قد قاطعنا حضور دروس مواد الكيمياء والفيزياء واللغة العربية لكون مدرسيها من مصر، كانت فكرة بدائية على أذهاننا لا نعرف عواقبها اقترحها زميلنا باسل اللبناني، فطبقتها على الفور هرباً من يوم دراسي ولم تكن نطقن تلك العواقب التي تطورت إلى محاولة الوكيل استدعاء المباحث وتوريطنا في قضية أكبر من أعمارنا لولا حنكة المدير الذي اكتفى بمنعنا من حضور المدرسة لمدة أسبوع كامل وقبل أن نخرج سمعت منه كلمات متطيرة أهمها أن جمال رجل دكتاتوري (ولا أتذكر السياق الذي جاءت فيه).

هذه المعرفة كادت أن تحرمني من رأسي، فحين دخلت على أبي بالشاي يبدو أنني كنت راغباً في إظهار معرفتي وأني شبيت عن الطوق فأعدت جملة مدير المدرسة واصفاً جمال بالدكتاتوري وهممت بمواصلة حديثي لكنني رأيت قذيفة منفضة السجائر تقترب من رأسي فتدائيت ضربته بالاختباء خلف الباب، لينهض كاسد أضناه البطش، جذبني من ثوبي بكل قوته ودفعني خارج البيت:

- لا تعد إلى هنا!



بعدها لم يطرأ على لساني ذكر أحد من الزعماء خشية أن يكون جميعهم مزروعين في داخله، ومنذ ذلك العهد لم أتبع خطى السياسيين، وكلما رأيت عسكرياً زاد احتقاري له ورهبتي منه في آن.

اهتز صنم الكبير، في جلسة أسرية تمنى ابني أن يصبح ضابطاً فقامت بحركة الكبير نفسها، خطفت أذنه وأعدت لسماعه كل ما تفوه به أبي عن العسكر لكن ذلك العجل الكبير نفر من بين يدي:

- مستقبلي وأنا حر فيه!!

هل كره أبي العسكر بسبب تلك الواقعة التي فوتت عليه رؤية زعيمه الأوحده.

الأوتوبيس يعبر بنا مناطق عدة وأولئك العسكر يمتدون مع سيره وكأنهم شخص واحد علققت بزته العسكرية في مقدمة الأوتوبيس وظل ملازماً له ولم يبتعد عن عيون الراكبين مطلقاً.

حولت اصطفااف العسكر إلى مراقبة ومتابعة، مضى على خروجنا من الفندق ما يقارب نصف الساعة، وما زالت أرتال العسكر تتمدد مع مسيرنا من غير انقطاع، التحديق في وجوههم يجعل المرء يشعر بالحنو عليهم، وجوه مغيرة وقامات متهاوية، وجنات بعضهم مستديرة تقنات القات وتهرب أنفاس الدخان بلي أعناقها ونفثه بعيداً عن عيون الوفد. منذ متى وهم مغروسون في مكانهم هذا؟

أكان لا يد من تواجد كل هذه الأعداد من الجنود، كان الطريق إلى وادي ظهر يعلو ويهبط من غير أن ترى أحداً من اليمينين متابعاً لهذه الوفود المحمية بكل هذا العسكر، هل تم تخيئة الناس في الشوارع الجانبية والأودية وسفوح الجبال...

هي مرة واحدة خرج فيها أبي وعاد لاعتنا كل العسكر روى لي هذا العشق عندما أعادني عثمان الوردلي للبيت متشفعاً لي عنده على زلة لم يكن من الأدب واحترام الكبير أن أقترفها، قبّلت يده وجلست أصغني لحديث عاشق بجمال عبدالناصر:

... في تلك الأيام كان جمال الزعيم الأوحده الذي غذى القلوب بحبه من خلال خطبه الرنانة، ولم تكن نجرؤ على الجهر بهذا الحب، كنا نتجمع في بيت أبي سنبل لنستمع لخطبه وحين قامت ثورة اليمن ووقف معها أصبح ذكر جمال كال تصريح بالكفر علانية وبعد سنوات من الحرب والعداء والحملات الإعلامية حدث الصلح وتناقل الناس زيارة جمال فخرجت جدة عن بكرة أبيها لاستقباله، كان قادماً عبر البحر، فاصطفقنا على طريق الميناء (لا أعرف كيف أصف لك جمهرة الناس، كنا بأعداد كبيرة ويشوق أكبر، خرجنا نحمل قلوبنا لنلقاه على صدر جمال) فإذا بنا نفاجاً بالعسكر يدفعوننا لداخل الأزقة الضيقة فنهرع إلى الشوارع الخلفية ونظفر في مكان آخر من شارع الميناء لنجد العسكر هناك ويعيدوننا لداخل تلك الأزقة للمرة الألف... لم نفهم هذا التصرف في حينه، فقد جرت العادة أن يُخرجوا تلاميذ المدارس ويحضون الناس للترحيب بأي زعيم يصل للبلاد، وبعد زمن طويل عرفت أن تغيبنا عن استقبال جمال كانت رسالة له تخبره أن ليس هناك من يحبه داخل المملكة كما كانت تشيع وسائل الإعلام العربية.

وربما أوجد الوادي ليكون مباداً بين الإمام وبقيّة الرعية ويبقى أهل اليمن ينظرون إليه كإله يمدّهم بقليل من رضاه.

هناك وفي تلك القمة الوحيدة وبين دهايز ذلك القصر كنت أبحث عن حفصة بطلّة رواية (الرهيئة)، عندما كنت أقرأ الرواية اغتظت كثيراً من زيد مطيع دماج، هل شاهد حبيتي وحلمها أوصاف حفصة، حفصة ابنة الإمام تلك البطلّة التي تغريك بحبها والبحث عنها في بقاع الأرض وتتمنى لو أن قدرك كان كمثّل ذلك الدوير الذي رأى ما لا يرى وسمع ما لا يسمع؟ ... تتمنى لو أن الإمام بقي مكانه ليأتي عليك الدور وتكون دويراً صغيراً ترى الجسد الملكي كيف يزهر، كيف تتساقط ورقات الوردة تنقف على التاج، ومن هناك من القبلّة الملكية تغدو ملكاً وأميراً وقائداً، ووسيماً، تغدو عاشقاً تحلم بقليل من زوايا عين حفصة وهي تتحمك بأنوثتها وتسيل رغبتها من أجفان مسدلة، كيف يمكن العثور عليها الآن؟

ليس شرطاً أن تكون حبيبائنا جيلات لحد الإجماع على هذا الجمال إنهن جيلات بما نقوله فيهن، بما ننفضه من أرواحنا فيهن، وحفصة جميلة الجميلات..

فهل ثمة علاقة بين حفصة ووفاء؟

تعتق جذر وفاء الأسري داخل أسوار مملكة أسرة حميد الدين، فيها شيء من بلاط الإمام، ورائحة النساء اللاتي ينمن داخل القصور ويحملن الأساطير إلى غيلة شاب مدقع يحلم بالأميرة النائمة.

أذكر أن أباهما في كل منافحاته عن نسبه، وعرقه الأصيل تعرج لسانه ليتذكر أياماً خوالي قضتها أسرته في قصور الإمام، كان دائم التفسير لسبب تسمية عائلته بمائلة الفيل وإن هذا الاسم يرتبط بقلب إمامي، هذا التفسير غدا رواية عملة وفجة كلما أعادها على مسامح أبي حين يطفح بينهما خلافهما المعتاد فما إن يسرد تفاصيل حكايته المعادة حتى يبدأ أبي بتحقيقه مستهزئاً ومقاطعاً حكايته بسخرية لاذعة:

- لو أنه كان عام الكلب لكان أفضل لك كثيراً.

[٤٩]

تحفُّ بنا جبال صنعاء من كل الجهات، عبرنا جبل أشم ارتقت عينا عبدالله بزهر:

- هذا جبل براش جبل ضخم يطل على صنعاء من جهة الشرق، وهناك جبل الشبيها الجنة التي أقسم أصحابها لنصرتها مصبحين وكان صاحبها يعطي ثمارها للمساكين فلما مات عزم أصحابه على أن لا يعطوا للمساكين شيئاً فانطلقوا يتخافتون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين وتسمى هذه البقعة وادي الضروان وهو وادٍ ملعون حجارتة تشبه أنياب الكلاب.

انزلق الأوتوبيس في وسط وادٍ كبير يكفي هذا المشهد لأن تتخيل تلك الجنة التي أصبحت كالصرير.

وصلنا إلى وادي ظهر.

على جبل شاهق استقر قصر الإمام ليطل على وادي شاسع تحفُّ الأشجار المتنوعة وتوازيه بيوت صنعاء الحجرية.

في ذلك القصر كان الإمام لا يزال يقطن كل رقعة فيه، كان يجلس في قصره وحيداً رغم كل تلك الأجساد التي تدافعت لدخول القصر وأخذ الصور التذكارية أو الصور التي ستكون مرافقة لاستطلاع صحفي عن هذا المكان.

يجلس الإمام في قصره وحيداً يطل على صنعاء يدهدها لتنام ويمضي الليل ساهراً يقطف وردة جمالها ويستنشق شذاها متوحداً بها.

أقام قصره على نصف جبل انشق عن سلسلة جبال فتفرد بقمته وعزل نفسه عن بقية الجبال، جبل له قمة مدببة ومن تحتها جرى الوادي مباداً بينه وبين بقية الجبال التي تواضعت قليلاً عن قمته ليبقى متفخراً بشموخه عنها،



وجدت روايته فضولاً في نفسي فسعيت خلف وفاء لتروي لي جذر نسبه، وقد أسندت لأبيها قوله: إن جده الثالث كان سائساً في بلاط الإمام جاء من جبال إب بعد أن اشتهر بمقدرته على ترويض الخيول المستوحشة، أوكل إليه الإمام سياسة خيوله النافرة، وساق له نفقة مجزية، فتألف سريعاً مع الخيل ليجد نفسه راعياً لخيول الإسطبل مجتمعه، فجرت عليه نفقات عدة بواقع حصّة لكل خيل يرعاه، وتعددت مناصبه داخل الإسطبل، وقفز لمقدمة حاشية القصر حين تلقى الإمام هدية سنّية من والي مصر، ولم يجد الإمام خيراً منه ليؤكل إليه برعاية تلك الهدية، ليجد نفسه ملازماً لكائن أكثر ألفه من تلك الخيول الجامحة، عندما تحرك لاستلام مهمته الجديدة وجد فيلاً جميلاً يقع في إسطبل منفرد، وتوصيات صارمة برعايته والسهرة عليه، فتفرغ لرعاية الفيل أكثر مما تفرغ لرعاية أبنائه، ولم تعد لديه من مهمة في الدنيا سوى علف الفيل والسير به في موكب الإمام، فسكنت الصحة جسده وجرى المال بين يديه. . . في هذه السنة رزق بمولود فأصر على تسميته بالفيل تيمناً بفيل الإمام، وفي أحيان يخلط في روايته، ويقول: إن سبب تسمية جده الثاني بالفيل نسبة للعالم الذي عرف بعام الفيل، وقصة عام الفيل هذه استبنت تفاصيلها مما رواه عبدالكريم الرازي:

(كان بين الإمام المتوكل على الله أحمد بن المنصور وبين والي مصر محمد علي باشا علاقة صداقة وكانا يتبادلان الرسائل والهدايا.

ومن الأشياء الطريفة التي يهمنها ذكرها هنا هو أن والي مصر أرسل إلى الإمام المتوكل هدايا بديعة من بينها أحد فيلة الباشا وهو فيل صغير وكان هذا الفيل يخرج مع الخيل في المناسبات والأعياد وفي الاستعراضات ويمر به في أسواق صنعاء فيتحلق الناس حوله ويتفرجون عليه وهم في حالة دهشة وتعجب واستغراب.

فقد كان أول فيل يدخل بلاد اليمن وأول مرة يشاهد اليمنيون فيلاً بعد أن كانوا يسمعون عن الفيلة كثيراً من الحكايات والأخبار.

وكان خروج الفيل ورؤية الناس له حدثاً مهماً ومناسبة عظيمة بل إن الناس أحبوا هذا الإمام وأحبوا الفيل الذي أحال أيامهم العادية إلى أيام

استثنائية وإلى أعياد ومسرات وكانوا سعداء بهذا الفيل الصغير الذي راح يكبر أمام عيونهم لكن السعادة لا تدوم إذ بعد أن مات الإمام المتوكل المشهور بالوجود والكرم جاء بعده ابنه المهدي عبدالله وكان إماماً بخيلاً ومكروها بين الناس الذين أحبوا الفيل أكثر منه.

وازداد كرهاً له بعد أن رأى مدى حب الناس له وتعلقهم به وكان أن عاد ذلك الفيل إلى محمد علي باشا حاكم مصر مصحوباً باعتذار يقول: إن أرض اليمن لا تستطيع إطعام فيل يحتاج إلى أكل كثير وقد شعر الناس بالأسى والحزن عندما عرفوا أن إمامهم البخيل أعاد الهدية وأرجع الفيل إلى حاكم مصر وقالوا معلقين إن بلاد اليمن لا تنسج لفيلين وأطلقوا على الإمام المهدي الإمام الفيل كونه يأكل ولا يشبع كما سموه العام الذي دخل فيه الفيل إلى اليمن عام الفيل<sup>(١)</sup>.

ومع عودة الفيل لمصر غادر جد حبيبتي وأسرته الإسطبل منافسين الإمام على لقب الفيل!!

(١) عبدالكريم الرازي، زاوية بيت العصدي، جريدة الوطن، العدد ٢٠٧، الثلاثاء ٣٠ محرم ١٤٢٢ / ٢٤ أبريل ٢٠٠١.

أبي ما زال نادماً لأنه لم يستطع رؤية أحب زعيمين إلى قلبه: جمال عبدالناصر، والملك فيصل.

وأصبح من عادته تغيير مساره لو رأى تكتلات العسكر في أي جهة من مدينة جدة، ينحرف بعربته مباشرة شاماً كل من خطر بباله!!  
قاطرة من الحافلات تجاورت خلف بعضها للهبوط داخل وادي ظهر، زادت معها كثافة الجند:

- هل خرج كل هؤلاء العسكر ليحجبوا صنعاء وأهلها من أن تخرج لرؤية زعماء الديمقراطية القادمة؟

سيارات الوفود تعاقبت هابطة لعرق الوادي وسط حشد غفير من العسكر والشخصيات المرموقة المهياة لاستقبال ضيوف الحفل - هؤلاء يأتون لمن الرحيق ويتركون لتلك الطوابير الطويلة من الجند وقفة متصلة وحلماً شحيحاً - ومن كل سيارة ترجلت أجساد متخممة بالعافية جاءوا جميعهم للمناداة بالديمقراطية والعدل والمساواة بينما وقف آلاف الجنود - من الصباح الباكر - بأجساد مهلهلة يتلقون أشعة الشمس الحارقة حاملين بطونهم الحاوية ورشاشاتهم الممتلئة لحراسة الديمقراطية.

قناني خمر متنوعة رصت على مناضد غطت أرضيتها بقطيف عودي وتوشت جوانبها بورود طبيعية ومن خلف المناضد اصطفت مجموعة عاملين ذوي سحنات هندية وفيليبينية تقفون في رسم ابتسامتهم الرشيقة وتفاؤوا في تلبية طلبات الضيوف وفق أهوائهم ومشارهم.

في الجانب الآخر كان اللحن اليمني يخرج صاخباً تتمايل عليه رقصات

بمنية شعبية تؤديها مجموعة من الفتيات والفتيان بملابس وطنية زاهية الألوان. أرتال من الأجساد المختلفة ذات الأعراق المتباينة والمتنافرة، وكان العالم صب ماء هنا لتشكل خمرة تلك الأجساد.

الزعماء والوزراء، الإعلاميون والعمال، الأسود والأصفر والأخضر وذوو الدماء الزرقاء، والبادية، كرنفال من العادات والقيم والأديان والسلوك، خليط من الروائح العطرية والخمرية وصنة الأباط، وسهك عمال، روائح ظلت تجوب المكان بحثاً عن أصحابها، إضافة إلى هذا البلاء لم تحفل وفود المؤتمر بنساء جميلات (أسر عمر بهذا قاتلاً: هذا مؤتمر لولد الجمال)، فبرغم كثرتهم إلا أنهم ابتعدن عن أنوثتهن كثيراً، قلة قليلة تمتنع بجمال أوروبي فاتن، وهؤلاء اصطحبتهن آياد أمنية لتبعدن عن تلك العيون الجائعة، أجملهن كانت مصابة بداء الصلع الذي غزا شعرها الحريري من المقدمة أبان فروة رأسها شديدة البياض لتكون على مقارنته بياض يدها المرقعة بإبعاد النظرات عن مواطن ضعفها.

تسابق الجميع لدخول قصر الإمام ذلك القصر الذي بني على جرف سحيق، قال أنور:

- كيف بني هذا القصر؟

- السخرة يا صاحبي قلو مات كل الشعب لبناء الإمام من عظامهم.

- كل ملوكك وزعمائك يفتنون في بناء قصورهم ولا نراها وحين يغيبهم الموت نكتشف أنهم صنعوا جنة على الأرض حتى إذا دخلوا جهنم كانوا قد استمتعوا بكل جنات الدنيا.

- انظر هناك، كل هؤلاء الرؤساء محاطون بالحماية هنا وفي بلادهم كيف يعيشون في هذا الجو الحاقق.

ضحك أنور:

- حرس مدجج لحماية الديمقراطية من الناس لو أن هؤلاء الناس مؤمنون بهذه الديمقراطيات لسار زعماءهم بينهم كالملائكة.

الوفود الأفريقية تقترب من البله، وجلهم يتمتع بعدم اللياقة حيث



تفصيحهم تصرفاتهم التي تقترب من التصرفات المشينة يتبادلون الحديث بلكنة وعرة حتى أن ضحكاتهم تزيد من وعورتها، نساؤهم أقرب للجاليات الخطب لإحماء الطبول في ليلة رقص بدائي وتغدو أزياءهم ذات الألوان الصارخة مفجرة شهية الرفض لمجمل المشهد.

صعدت إلى داخل القصر، كنت أبحث عن حفصة أو وفاء علني أجد إحداها تجول بفنتتها بين هذه الغرف المظلة على الجنة. مجموعات كبيرة تجول داخل القصر، ولا أثر لحفصة، لا أثر لوفاء..

- أين تكون الآن وسط كل هذه الأنواع؟

اصطدمت عيناى بتلك الغوريلا البشرية وهو يسير متهادياً ومن خلفه تانك الشجرتان اللتان أقيتاني معلقاً بين فرعيها، تنهت لهما الآن، هما جتان تجزم أنهما استجلبا من غابة استوائية ليكونا في إمرة رجل لا يعرفان إلا لغته، كانا أكثر فظاعة من سيدهما.

ظلمت أرقب تلك الغوريلا البشرية، تنه لي وحرك أصابعه في اتجاهي بتحية قصيرة لم أستطع الرد عليها فقد لمحت ثوريه يتحركان في اتجاهي، فدنست جسدي بين الأجساد لألح ضحكته تسع كثيراً.

[٥١]

مضخة الكلمات اندلقت في الجلسة الختامية للمؤتمر.

كان موقع الإعلاميين العرب يأتي في الصف الثاني بعد الوزراء اليمنيين وكبار رجال الدولة وفي الجهة اليمنى القصية من تلك المائدة المستديرة التي جلس عليها رؤساء الوفود وجلست الوفود الإعلامية الأجنبية في أماكن تتوسط المشهد بقرب رئيس الجلسة فخامة الرئيس علي عبدالله صالح.

لو وجد جهاز إلكتروني لإحصاء الكلمات التي دلقت في تلك الجلسة الختامية لما تمكن من ملاحقة كل تلك الكلمات التي قيلت ولربما اختار تسويد سمعة الشركة المصنعة له على مواصلة إحصاء ذلك الطوفان المنهمر من الألفاظ المكررة واليئة.

ساعة ساعتان والساعة الثالثة تزحف وفي كل مرة يصعد زعيم من دول العالم الثالث ليشرح أذنانا بمفردات الديمقراطية وربما بمفردات كتبها المستشار الخاص لهذا الزعيم أو ذاك والناطق بها لا يعرف منها شيئاً سوى حروفها، مللنا وضجرنا الزائدين لم يمنعا أولئك السادة المتحدثين من إيقاف صنبور الكلمات المتدفق: العدل، المساواة، حرية التفكير، التسامح، الحوار، التنمية، الإصلاح، المرأة ودورها السياسي.

كانت شاشات القاعة تلتقط لنا مشاهد لوجوه الزعماء المتحلقين حول تلك المائدة المستديرة، وجوه في غاية الإرهاق والملل، وجوه قائمة، غائمة، ناعسة، ومتصنعة، وواجة، ومعظمها مشغولة بالأحاديث الجانبية، اشتركوا جميعاً في التصنع فكلما ظهرت صورة أحدهم على تلك الشاشات وهو في وضع غير لائق قطع تصرفه وتصنع الإصغاء لما يقال باهتمام مبالغ فيه.

لم يكن أماناً من منفذ للخروج سوى الإصغاء والتلمل في جلستنا ووضع سماعات الترجمة لفهم بعض اللغات التي جلبت من بقاع الأرض وكأنها استعيرت لمثل هذا المحفل وبعدها تموت.

مال عمر بانهاهي:

- أليست هذه ديكتاتورية أن نصغي رغماً عنا؟ كان عليهم أن يناقشوا هذا في البدء قبل رفع شعار مهرجان الديمقراطية الناشئة.

- أليست ناشئة، من حقها أن تتعلم الخروج من مشكلاتها وأول تلك المشكلات الثروة.

- ميزة مؤتمرات دول العالم الثالث الرغي من غير نتائج.

- انظر إلى وجوههم... تشبه وجوه زعمائنا الأفذاذ ممتلئة ودسمة بينما وجوه مواطنيهم ناشئة ومرهقة.

- كل وجوهنا مغفورة، وجوه ممتلئة بالباهاء الراكدة تغطيها الأشواك!

- نحن سجناء تلك البرك الآسنة.

تسمرت في مقعدي حين هاجمني وجه الغوريلا البشري كان يجلس حول الطاولة المستديرة المخصصة لزعماء الدول واستقرت أمامه لوحة أنيقة وعلم بلاده، أجهدت نفسي لمعرفة اسم بلاده إلا أن اللوحة التي تحمل اسم بلده انحرفت ولم تمكنني من التهام حروفها كاملة، بقي العلم القصير منكساً ومسترخياً لثقله: لأي دولة يكون..

لكزت عمر:

- علم أي دولة هذا؟

لم تكن يدي دقيقة فظل عمر يؤشر على أي منها، وتراجع تمامنا حين أشار لنا أحد الوزراء بالصمت.. ظلت عيناى محاولان اقتناص اسم البلد بين الحين والآخر بينما ظل وجه ذلك الغوريلا جامداً كفضائل مفردات المحفل..

وجه الرئيس البمني تمتعض وحين التقطته الشاشة الداخلية تنبه للأمر وتصنع الإصغاء.

- حتى رئيس الجلسة تمتعض.

جاء صوت أحد الوزراء المتقدمين على صفنا خافتاً:

- هو الذي فتحها على نفسه، لو كان ديكتاتورياً لأبى الجلسة من زمن

طويل!

عقب شخص من جهة ما - لم أتبين موقعه -:

- كل الديكتاتوريين يعشقون أمثالهم!



مضت نصف ساعة ورئيس مالي ما زال يلقي خطابه وكلما حسنا أكفنا للتصفيق تشعبت كلمته في طرق الديمقراطية التي يرغب فيها، تذكرت كاسترو ذلك الزعيم المحب للثروة، هل يصرف الدكتاتوريون كلمات ليغطوا على استبدادهم.

الحياة لعبة قديمة لم يعرف قوانينها من جلس على كرسي الحكم، فتن بلعبة قدرة وكان عليه أن يكون أكثر قدرة منها هكذا هو الحكم: نسيان وقدرة.

وهؤلاء المجتمعون يمارسون لعبة النسيان والقدرة في آن واحد.

صورة الزعيم الكونغولي تملأ الشاشة فيما بدت أسنانه البراقة تلمع في تسريب ضحكة لسيدة تجاوره، أوه لو كتب لتشي غيفارا أن يصطاد هذه الابتسامة الآن حتماً سيتذكر مغامرته في الأرض الكونغولية وسيروي مرة أخرى عن مغامرته هناك سيروي أن الثورة الكونغولية كانت بالية وقذرة حين كان الثوار يهتمون باحتساء الشراب وملاحقة النساء: هم كذلك ثوار العالم الثالث باحثون عن السلطة والنساء.

إن الكبت والفقر يولدان زعماء من ورق أو من حطب.

اختطف رئيس مالي الربع المتبقي من الساعة، أي قم يحمله هذا الرجل ليضخ كل هذه الكلمات المعطوية؟

مال وزير الثقافة اليميني على رفيقه وزير الكهرباء:

- لو تأمر أحد موظفيك بقطع التيار لأرحتنا من كل هذه الطلقات!

رد بضحكة مكتومة:

- وسيريجني زعيمك من منصبي.

تبادلا ضحكة مشتركة ليتنبها لتصفيق حار انتشت به صالة المؤتمر، أخيراً منحنا أكفنا فرحة التصفيق للرئيس المالي بانتهاء كلمته، لتظهر هيلاري كلنتون عبر شريط مسجل متحدث للوفود وجهها يحمل آثار مونيكيا، كان حضورها مستفزاً لتقدم كلمتها على كلمتي رئيسي دولتين آسيوية وأفريقية، أي بروتوكول يميز لها تقدمها على رئيسين، هي مشاركة من خلال الإدارة الأمريكية وعديمة الصبغة السياسية هل يمنحها الاقتراع برئيس الولايات المتحدة تقدماً يكسر البروتوكولات الرئاسية، اعترك في داخلي هذا الإشكال البروتوكولي فأسررت به لعمر الذي ضحك:

- أليس وجهها خيراً ممن سبقها؟

كانت ابتسامته لا تزال ناضجة وهو يكمل جملة:

- لو أن زعماء العالم نساء لاستمعنا إليهن حتى لو تحدثن طوال اليوم.

وصمت للحظات وفرد ضحكته:

- أليس جليلاً أن تصغي لمل هذا الوجه بدلاً من هذه الوجوه الكالحة والتي تشعرك بالامتعاض كلما تحدثت؟... أتصور أنها ستصبح الرئيسة القادمة للولايات المتحدة الأمريكية!

يبدو أن هامسنا أثار حفيظة أحد الوزراء الذي رمقنا بنظرة حادة وكأنه يجلرنا من التخافت.

شفتاها الرقيقتان تسريان خطط البيت الأبيض وكأنها تملي السياسة الأمريكية القادمة، في كلماتها شيء مريب، بدأت بشكر المرأة التي قدمتها وتثني إعجاباً بما قالت.

كيف لها أن تعرف أن امرأة قدمتها وكيف علمت فحوى التقديم وهي لا تتحدث عبر الأقمار الصناعية وإنما من خلال شريط قديم؟

إذا هي طيخة قدمت لدول تحبو على عتبات الديمقراطية الأمريكية، طيخة على هؤلاء الأطفال تلمظها كما تلمظون نواة التمر.

كانت كلمتها مركزة وحملت فروحتها باندماج المرأة العربية في المجال

السياسي، وقبل أن تغيب عن الشاشة تمت للنساء العربيات الخروج من  
الدهاليز الاجتماعية التي حاصرتها عبر قرون من التخلف.  
- هذا بلد متخلف ..

هذه جملة وفاء كلما خرجت ووجدت الغطاء يحول بينها وبين قطع الشارع  
العام .. كانت تبحث عن وسيلة لخلع حجابها، وفي كل مناسبة تتمنى هذه  
الأمنية ..

- لو أن بلدكم بها قليل من الحرية.

نساؤنا لا يعرفن من الديمقراطية إلا أنها خلعت الحجاب وقذف العباءة!!  
في أي مكان هي الآن .. أظنها الآن تحرق قلوب من يتطلع لعينها لو أنها  
خلعت الحجاب، فعيناها كفتيلتان بإحراق الكون وإشعال فتيل الفحولة في كل  
مكان تعبده!

[٥٣]

خشيت ألا يتصل الشخص الذي سيوصلني بالجحش.

أول مرة أعرف أن الجحش توجه لليمن من حديث عيسى شرف، تنهت  
لغايه في ليلة وداع وفاء، في تلك الليلة التي قضيت فيها أغالب نعاساً ثقيلاً  
تحت نافذتها، تطلعت إلى مقعده الذي يقتعده ليلاً ليحمي لقاءنا من العيون  
والأقدام العابرة، كان مقعده شاغراً ولأول مرة تمثنت وجوده كنت أبحت عن  
يسارني ويخفف من جزعي على رحيلها.

وبعد رحيل وفاء نسيت تماماً، ففي تلك الفترة كنا نستيقظ على أناس  
رحلوا وننم على وداع أناس يتهياؤون للرحيل، كان الرحيل نزيفاً يومياً حتى  
خشي البعض أن تسقط البلد فجأة، أن تغوص في قمامتها أو تموت جوعاً  
لغياب العمالة الراحلة والخائفة من نبوءة بقاء عاصفة الصحراء تجلجل في كل  
بقعة من بقاع البلد .. نسيت الجحش تماماً حتى جاء ذكره على لسان عيسى  
شرف، حيكت تهكماً في داخلي من قدرية هذا الجحش في حياتي:

- إذا سيكون هو نفسه من سيوصلني إليها.

خرج من مشاجرة بينه وبين السهدي بهذه النبوءة، وظلت ملازمة له من  
غير أن تشفع له وسامته التخلص منها.

هكذا نحن أبناء الأحياء المنسية نقوم بارتداد معاكس لنسيان الحياة لنا،  
فنسينا أسماءنا، واستبدلناها بالنبز، هذا فعل بدائي قديم، كانوا يهربون من  
الموت بتغيير الأسماء، ونحن لكي نعاندهم نتمسك بالنبز ونلغي  
أسماءنا.



لا أحد منا يستطيع ذكر اسم صاحبه كاملاً نكتفي جميعاً بتلك النبذة التي تلازمنا من غير أن نستكشف منها.

الاسم الأول للجحش غلام أما بقية اسمه فلا أعرفه، قَدِمَ جده لأبيه من كلوكوتا حاجباً وبقي في مكة لسنوات طوال تزوج وأنجب أباً غلام وانتقل إلى مدينة جدة وعاش بها، كان الجحش يفاخر بأن جده جاء إلى مكة قبل مقدم الملك عبدالعزيز للطائف ورفض التجنس تعالياً على الجنسية السعودية وقبل أن يموت حفيث قدماء للحصول عليها ولم يياس ابنه وأحفاده من مواصلة ركضهم عليهم يحصلون على التجنس بشهادة الشهود أو تدبير أمرهم بالرشى إلا أن الطريق الأخير كان مكلفاً لا يقدرّون عليه ولو قبضوا أجورهم لمائة سنة قادمة، فظل غلام يبحث عنها هارداً ويحوم في الأزقة ليلاً حتى سئم وغادر السعودية قبل تحرير الكويت بأيام ولم يعرف أحد من أبناء الحي إلى أين اتجه وإن كنا جميعاً نظن أنه عاد إلى كلوكوتا.

مرات عدة تهرأ على وفاء، تخبرني بأفعاله متأخراً، تلك الليلة لم تشأ أن تؤخر شكواها:

على غير موعدهك سمعت طرقة خفيفاً على النافذة المطلة على الشارع، ضمرت لك شيمية تبتيك متهدج الأوداج لأسبوعين كاملين، فقد خشيت أن ينتبه أبي لذلك الطرق فلم يكن موعداً قد حان استغليته وجود وطوية خانقة داخل الغرفة وادعيت بأنني في حاجة إلى تجديد هوائها، وعندما فتحتها كان يقف مرتبكاً، وعذوبة وجهه ترجوني الإصغاء لكلمتين قالها: كلمتان فقط، صحت به:

- هل جننت أيها الأبلة؟

ويبدو أنه كان مرتباً ما سوف يقوله:

- أنا أحق بك منه، فقط عديني وسوف أحول حياتي تماماً.

لا أعرف لماذا تهاسرُ وبصقتُ في وجهه، فانفعل صارخاً:

- أستطيع أن أكشف سركما لأبيك الآن.

خشيت أن يرتكب حماقة فأسرعت بالاعتذار منه، مسح بصفتي براحة كفه وأخذ يلحق بصاقي وهتف بصوت رقيق:

- أحبك، وستكونين لي تذكري هذا.

حينما سردت عليّ هذه الواقعة جرى الدم في عروقي وأخذت أجوب شوارع الحارة بحثاً عنه لكنه اختفى كحلُم برق ولم يكتمل.

وجدته بعد ثلاثة أيام يتريص بي وأنا أفرغ نافذتها فعدوت خلفه فركض عارولاً الإفلات مني وقبل أن أضاعف من ركضي توقف فجأة، فأمسكت بياقة ثوبه:

- أيها الخسيس ماذا فعلت؟

كان أكثر بروداً عما مضى:

- أنا أحق بها منك، فكلانا غريب عنكم.

صغته فلم يستجب وجهه لرد فعل محدد، كان ضوء باها المنفرج ينير عتمة الشارع وهي تمد قامتها لرؤيتي، فلم يزد على قوله:

- لقد ظهرت لك هذه المرة من الباب اذهب إليها واتسّ كل ما قلت لك.

هل نَفَذَ وعده ولحق بها إلى هنا ليتزوجها؟

لو فعلها لن أجرؤ على قتله هنا لكنني لن أعدم الحيلة من تدبير كيف يمكن بث بطنه المتخمد برذائل الكون.

نعم سأسحق عظامه إن فعل!!

ويشتط غاضباً من صديقه كلما هَوّن من حماسه، فيعيد جلته بعناد مبالغ فيه:

- أقول لك لو بقيا حيّين لما حدثت كل هذه الكوارث.  
يتذكرهما في كل حادثة عربية، تذكرهما في كامب ديفيد، وفي اجتياح بيروت، وفي غزو العراق للكويت

وعندما ظهرت قناة الجزيرة جلس أمام مذيعيها أياماً طويلة بعدها أنزل صورتي: جمال عبدالناصر والملك فيصل من غرفته وقذف بهما في غزن لا يفتح أبداً، وجلب عاملاً ليعيد صباغة غرفته بسبب لونين فاقعين لبقيعتين ظلتا بارزتين مخالفتين للون الغرفة، كان أثراً لصورة الزعيمين اللذين اختفيا من غرفته تماماً.

كنت أتابع برنامج شاهد على العصر وكان الشاذلي يفتق تاريخاً متماسكاً في ذاكرتنا، قاطعه المذيع بتحريك حاجبيه منهياً الحلقة ليحل مكان التاريخ الفاضح فاصل إعلاني، هتفت متضجراً:

- العالم العربي ليس بحاجة إلى كل هذه الصراخا، اتركوا لنا قليلاً من الأصنام!

[٥٤]

ليل بطيء، والأيام تركض مسرعة، لا شيء يجاورني سوى استعجال ظهور النهار.

ولا شيء يحرك هذا الركود سوى سيل أخبار قناة الجزيرة، هذه النافذة التي انفتحت في بيت مظلم، لنكتشف نحن العرب أن بيتنا خرابه تسكنها خفافيش ليلية لا تعرف التحليق إلا في الليالي تخرج لتمتص دماءنا في غفلة منا وتتعلق في قلوبنا بقية النهار.

قناة فتحت علينا صنوبر المياه الآسنة دفعة واحدة، وفي كل بيت كان زعيم عربي يخلع ملابسه الداخلية، ويقف عارياً، وضحكته القديمة تنكسر في مسامعنا وعلى شرفات أبناسنا.

ظل أبي أسيراً لجمال عبدالناصر، يقول إنه لم يمت موتاً طبيعياً فالوساد قتله وأوعزت لأمريكا بثبیت عميلها أنور السادات.

كنت صغيراً حينما كان أبي ييصق في اتجاه التلفاز وعندما أرادت أمي تهدئته طردها من أمامه لتغيب عن بيتنا لأسبوعين متتاليين وحين تورط في رعايتنا كان يشتم اسماً محدداً.

هذه المعرفة لم أنحصن بها حين شتمت أمامه جمال عبدالناصر ولولا شفاعة صديقه الوردي لتركتني أهيم في الطرقات من غير أن يسأل عني.

في غرفة نومه وضع صورتين: صورة جمال عبدالناصر وصورة الملك فيصل، بعد حادثة الطرد غدوت أسترق السمع إليه وهو يتعارك مع صديقه عثمان الوردي حول الأخبار التي يسمعاها:

- لو بقي هذان الزعيمان حيّين لما حدثت كل هذه الكوارث.



أظهر أبي غضباً زائداً من رفيق مجلسه عثمان الوردى الذي أبدى استياءه من السماح للأمريكان بتواجد في المنطقة.

عثمان أمضى حياته هاوياً لجمع أنواع الراديوات على مر عمره الطويل، فتجده في الأسواق وفي الكراجات يتتبع ويجمع كل الأنواع ذات الاستقبال الجيد، وفي كل جولته تلك حصده عشرات الراديوات التي يضعها في غرفته المخصصة لجلسة انشراحه ويقوم بفتح كل راديو على محطة من المحطات التي يستقي منها الأخبار الطازجة - كما يقول - فقد ثبت كل مؤشر راديو على هنا: (هنا لندن، صوت أمريكا، صوت ألمانيا، صوت كندا، صوت العرب، وإذاعة إسرائيل) حتى غدا رجلاً تراب من قواه العقلية من كثرة ما سمع من أخبار وتحليلات على مدى ثلاثين عاماً، ويمكن اختصار القول بأنه يمثل نموذجاً للتلوث الإعلامي، يحمل من كل توجه إعلامي قضية ما، فهو معني بالخمير الحمر، وبالأسباب الرئيسة لسقوط الاتحاد السوفيتي، وبسبب تفجر الإرهاب في مصر، واستعصاء حل القضية الفلسطينية، وأسباب بقاء كاسترو، وأسباب تردي اقتصاد نمور آسيا.

جاء إلى أبي حاملاً مذياعاً، فمآزحه أبي:

- هل جئت لتحرر الكويت بهذا المذياع؟

فلم يستلطف مزاحه وتكرر وجهه، راداً بصلف كما هي عادته:

- أنتم لا تعرفون شيئاً، الذي تعرفونه إجادتكم للمنافحة، المنافحة فقط.

تلقى أبي رده بضحكة مجلجلة:

- ولأنك فقدت هذه النعمة فأنت تحاول إشغال أم العيال بمتابعة الأخبار لتنسيها واجبك الأساسي.

فتضاحك حتى اهتز كرشه البارز:

- قبح الله ردك.

استوى في جلسته مبدئياً أهمية لما سيقوله:

- سمعت اليوم تقريراً خطيراً.

ولم يترك أبي يستثيره فواصل:

- يقول التقرير إن مقدم الأمريكان للخليج سيؤدي إلى استوطانهم للمنطقة واستغلال خيراتها ليس هذا فحسب بل بقائهم فيها إلى أبد الأبد.

- مقدم الأمريكان خير من أن نرى شرفنا يهتك على يد جنود صدام.

- ها أنت تقول جنود صدام وليس صدام نفسه.

- الجنود على شاكلة زعمائهم وهم ينفذون سياسة زعيمهم.

- كلامك هذا ليس صحيحاً وكل ما يثار من أقاويل مجرد إشاعات إعلامية.

- وما تسمعه أنت مجرد إشاعات إعلامية.

- لا يجري في عروقك الدم العربي، يكفي صدام أنه أطلق صواريخه على إسرائيل.

- صواريخه أية... هذه لعب يا عثمان.

فاشتاط غيظاً وصاح به:

- ستظل لا تعرف من هذه الدنيا سوى تسمير ثوبك في كل مساء وأنت تنافح زوجتك.

بعد أن جالس أبي قناة الجزيرة أصبح يصدق كل مقولة تفوّه بها صديقه عثمان الوردى في ما سبق من أيام، واستعمار صيحات زرقاء اليمامة منذراً

جلساه من رؤيته لأمريكا تقف خلف الأبواب لتلتهم كل العالم العربي.

أشفقت أمني عليه من تبييه المستمر ومجاهرته بكرة كل الزعماء العرب من

غير أن يخشى أن يقاد لزنزانة تبعده عن تلك القناة!

حين نفقد الغناء تغدو أصواتنا شبيهة بأصوات الحمير إلى حد بعيد  
عمر الطيب

بقامته الطويلة مال هامساً:

- لا تذهب، استطعت الحصول على قنينة شيفاز سنصعد إلى غرفتك أو  
غرفتي.

خرجت أن أخبره أني لا أشرب، وتضاعف هذا الخجل حينما تذكرت  
أنني كنت دائم السؤال عن الشراب، ومبدئياً امتعاضاً لعدم توافره، أنهى حديثه  
مع أنور سريعاً، وصعد لغرفته بعد أن غمز لي للحاق به.

لا يمل من مطاردة النساء، يلتقط الصور لكل امرأة تعبره، يحمل كاميراه  
كيندية صياد محترف يظل متربصاً بفرسته يمنحها الفرصة لتأخذ سكينتها كيفما  
تشاء وحين تسترخي مفاصلها تماماً ينزع روحها بالضغط على فلاش كاميراه،  
يصوب لطقاته في ثنايا فريسته، ويعود متشياً، مترنماً بترنيمة صياد حاذق.

تبعته، فوجدته قد هيا جلسة صغيرة وكاسين وقليلاً من المزة، أقسمت  
عليه بأن أقوم بتجهيز الكاسين وافق تاركاً لي أداء هذه المهمة المقدسة - كما  
وصفها - فملأت كأسه ومخلوطاً بمشروب غازي، وعكرت ماء كاسي  
بالمشروب الغازي، مدت إليه بكأسه فتناوله ضاحكاً:

- أليس هذا أفضل من أن نجلس الساعات الطوال نقتات عشبة القات  
كنعاج عليها أن ترعى في الظهيرة...

- لو تعرف متعة القات لما أقدمت على الشراب.

- لا أريد أن أدرك متعة أخرى غير متعة الشراب.

بعد الكأس الثالثة ظهر الخدر عليه، انتشى كعصفور النعري الذي ثقب  
حبة العنب وجاءها بعد أن تخمرت وغدت شراباً سائغاً يبعث على الغناء  
ويطري صدأ حنجرة تراكم من جريان ماء أسن، غمايل طرباً مع أغنية تسلفت  
بصوت هادئ من جهاز المسجل المجاور لنا:

يا ترى يا وحشني يفكر في مين

عامل إيه الشوق معاك

عامل إيه معاك الخنين

بادرني سائلاً:

- ألم تحب؟

لم ينتظر إجابتي فأردف:

- هناك امرأة واحدة تحرقنا ونحلمنا نجوب الأرض بحثاً عنها.

- صدقت، امرأة واحدة فقط.

تناول كاميراه من جانبه وتنهذ بعمق:

- لو تعلم أن هذه الكاميرا هي مصدر شغائي، هذه الآلة الصماء خرج  
من عتمتها عشق مجنون، أنارت للحظات، قبضت على حورية يبدو أنها كانت  
تنزه على الأرض فاقنصتها، هذه الآلة ولدت أسطورة من الحب، أدخلتني في  
عنفها وأغلقت علي هناك، غدت مفتوناً بما تخرجه من عوالم مدهشة..

أمسك بكاميراه قلبها بين يديه:

- أحب هذه الكاميرا وأكرها، أكرها لأنها أوقعني في عشق ليس له  
من دواء، كنت أسخر من أخبار العشاق الأوائل الذين يقعون صرعى عشق  
امرأة عبرتهم ورمقتهم بلحظها وانسلت.. ألم يقل أحد شعرائنا: (رمتني بدائها  
وانسلت)..

استوى في جلسته وملاً كأسه الخامس وأبحر يجدف في أعماقه:

- زرت معظم بلدان العالم، وفي كل بلد أعود حاملاً عدة فرائس من



الصور، كنت حريصاً على تحنيط كل فراشي على جدران غرفتي، هناك مئات الصور لنساء لا أعرف من أين جلبتهن تحديداً، فكل واحدة تم افتراسها بلقطة خاطفة، تحولت غرفتي إلى متحف لنساء العالم، صور من كل جنس ولون، وفي أوقات الفراغ أجلس لتفحص تلك الوجوه، ثمة امرأة واحدة لا أعرف أين التقطت لها تلك الصورة، هذه المرأة حالت بيني وبين الحياة، كنت قد التقطت لها عدة صور وفي أوضاع مختلفة، في كل لقطة تبدو أكثر فتنة من سابقتها، حوت في تحديد البلد التي التقطت فيها هذه الصور، كل يوم أفرز صورها أمامي (لها عشر صور)، أتأمل كل حركاتها: جالسة، قائمة، منحنية، ضاحكة، عابسة، تمضغ أكلاً، ترفع شعرها عن وجهها، تشير بيدها....

يوماً أجالسها فأزداد افتتاناً بها، خرجت أبحث عنها في كل بقاع العالم، بحثت عنها في كل المواقع التي زرتها سابقاً، وما زال الأمل يدنيها مني... أقسمت ألا أتزوج إن لم أجدها، يكفي أن أعرف موقعها من هذا الكون...

توقف متلمظاً شرابه ونظر في وجهي بعينين بدأتاً تضيقان:

- ربما تشعر أنني أمتلك عبطاً، وربما تسأل كيف لي أن أحقق امرأة من خلال الصور؟

أنا لا أملك جواباً عديداً، أعلل نفسي بمقولة (وللناس فيما يعيشون مذاهب)... أظن أن حالتي نادرة، ولأول مرة تسجل، فقد وجدت نفسي منسجماً مع حالتي هذه ربما تضحك لو قلت لك إنني بين الحين والآخر أجلس على مكتبي وأكتب لها رسالة عشق طويلة، وفي الصباح أحمل هذه الرسالة وأسلمها لرجل البريد بعد أن أكتب عنواناً بريدياً لأي جهة من العالم الذي زرتة... هذه الطريقة استجاب لها بعض من وصلته رسائلي، كان بعضها رحيماً بحالتي ومعتزلاً بأنه أو أنها ليست المقصودة بهذه الشاعر النبيلة!... ما زلت أعشقها وأنتظر أن أجدها...

تعدت ملاحه بعض الشيء:

- ... أبي يريد قتل هذه الشاعر النبيلة من حيث لا يعلم، ولم يعد حزنه يمكنه من تحمّل عقوق آخر أبنائه فبعد أن فقد أخيه الأكبر والأوسط - في

وقت واحد ومن غير أن يحضر مراسم دفنها - غدا يرأسني لأن أوصل نسله بالزواج من ابنة عمي ولكنني لا أجد ميلاً إليها فقد تشبعت بنساء العالم، ونمت ذائقتي الجمالية ولم تعد أي امرأة تغريني وابنة عمي فقيرة في هذا الجانب فهي تحمل الجمال الأفريقي الذي أجد نفسي في أحيان كثيرة أتملص منه وأبحث عن مطهرات تزيل جلدي السوداء أبحث عن خلق سلالة يكون نسلها الثالث قد تتخلص من عبودية اللون.

آوه هذه كارثة أخرى أعيشها، بسبب هذا اللون ظللت منبوذاً في بلدي وبين العرب الحمقى الذين أعيش بينهم... ففي السودان ينذنا الأفارقة لكوننا نحمل جذراً عربياً صرفاً، وفي الدول العربية يتنبذوني لكوني أحمل جذراً أفريقياً...

أطلق ضحكة مججلة:

- لعنة الله على اللون... هذا اللون خلق السادة والعبيد... أعرف أن هناك عروفاً نبيلة استعبدت ولكنها تطهرت من هذا العار بمجرد إرساء حقوق الإنسان لكن لونا ظل يستعبدنا، يحولنا إلى منشفة تتلقى قاذورات كل أولئك القوادين.

صب كأساً أخرى وبعينين شبه مغمضتين قهقه:

- هل أزعجتك؟

- بالعكس فأنا منسجم مع حكايتك، أكمل.

- منسجم لأنني أخبرك بأنني بعبودية لوني...

وضع يده على فمي قبل أن أعتذر عن فهمه الخاطئ:

- لا عليك... ألم تسمع ذلك اليمني الذي وصفني بالعبد حين طلبت منه أن يحضر لي خمرأ، أنا أعرف النفسية العربية، كل طبقة تحاول أن تترفع على الطبقة الأدنى منها... كلهم يلتصقون بطبقات أعلى، بهذا النبذ المتبادل ولدت الدكتاتورية العربية، فكل فئة تحاول أن تنتمي لطبقة الحكام والوزراء وكبار الشخصيات فينمو التملق والتفاق ويتسابق الجميع للانتماء لهذه السلطة التي في النهاية تدوس الجميع بأحذيتها...

تناول حذاه المذوف بالقرب منه :

- أتمنى لو أسحق هؤلاء بهذا الحذاء .. لو سنحت الفرصة ربما أشتري حذاء مهترئاً لأقوم بهذه المهمة!

اندلق كأسه من بين شفثيه وهو يطلق قهقهة عالية استجابت لها مفاصل جسده المسترخي :

- نعم حذاء مهترئ .. سيكون منظرأ فريداً وأنا أقوم بهذه المهمة.

تفرغر برشفة من كأسه، وصمت حتى ظننت أنه لن يكمل حديثه، ضغط على كتفي يحنو :

- تعرف أي أحببتك!

- وأنا ...

- دعني أتحدث لا تقاطعني، أنت ما زلت صغيراً وأنا أصغر إخوتي، كان أبي رجلاً من رجال الصادق المهدي، وفي ٣٠ يونيو من عام ١٩٨٩ احتلت زمرة من الجنود مقر القيادة السودانية وكانت مسلحة بدبابتين وفي اليوم التالي خرج حسن البشير لإعلان نفسه رئيساً للسودان داعياً للثورة ضد الفساد وردد الناس معه :

- عاشت ثورة الإنقاذ الوطني.

الناس تردد مقولات المنتصر ولا يعניהها رفع قامة من يسقط من الحكومة السابقة، تعرف لماذا نحن هكذا؟

لم ينتظر جواباً كان يسابق نفسه للوصول إلى المعنى :

- ... لأن جميع زعمائنا يحكمونا بالقوة، ولأننا لم نتعود مجابهة الأقوياء، وبسبب جيروت وغلظة الزعماء لا نميل لحجهم، ونفرح لانكسارهم، ولأننا لا نجابه الأقوياء فنحن نهتف بحياتهم، ونلتصق بهم وننتمي لهم، ننتمي لهم بالولاء والطاعة والاستجابة، بسبب كثير من الحاصل الرديئة نحن مع المنتصرين، نحن نماري الأقوياء لكي نأمن قسوتهم القادمة، المهم خرج الناس يجارون :

- عاشت ثورة الإنقاذ الوطني ..

وخشي أبي من فورة الغضب التي اجتاحت الشارع السوداني على مؤيدي التميري فخرج يدفعنا أنا وإخوتي وأمي في عملية تسلل عبر الحدود المصرية، وفي مصر وجدنا أنفسنا محاطين بالجوع فأبي توهم أنه رجل مهم لكنه قوبل بفنور ولم تقبل به مصر كلاجئ سياسي فوجد نفسه معنياً بتدبير مصدر رزق يحول به أسرته، وتعب لأنه لا يجيد شيئاً سوى التطبيل للحاكم ولأن الصنم الذي كان يصفق له سقط فلم يعد هناك صنم يصفق له وتعذر عليه جلب قوت لأسرته، وأمام هذا الوضع تافرنأ أنا وإخوتي إلى ثلاث بلدان عربية أخي الأكبر (موسى) إلى اليمن، وأخي الأوسط (عثمان) إلى السعودية وأنا إلى الإمارات.

فجأة صمت وخرج إلى لعن كل زعماء السودان ونظر إليّ بعينين غائمتين :

- هل تعلم أن كل الذين مروا على السودان في متتالية سياسية، وتداولوا الحكم يتحولون بين عشية وضحاها إلى دكتاتوريين لم يشذ عنهم سوى سوار الذهب ... هؤلاء الدكتاتوريون يسIRON بخطوات متشابهة، فمع بزوغ نجمهم يقتعدون سماء البلد، ويعدون شعبهم بالبن والسلوى، وعندما تسترخي مؤخراتهم على الكراسي يسومون هذا الشعب سوء العذاب .. كل الحكام مجرمون كبار، معصومون من العقاب .. نعم هم مجرمون لا يطالهم القانون بينما أولئك المجرمون الحمقى الذين ينتمون لعامة الناس أي جريمة يقرتونها تطالهم يد القانون وتوصد عليهم السجون .. ما الفرق بين مجرم حقير ومجرم عظيم .. المجرم العظيم هو القادر على قتل الجميع .. وحكامنا (جميعهم) مجرمون من النوع الفاخر .. هم أشبه بالسيجار الكوبي، فتبغه تدعكه العذاري حتى يشم رائحة أجسادهن من خلال ذلك الدخان القادم من سيجار يوضع في زاوية الفم، وهم يتلذذون بعذريتنا التي نفصح بها حين نكون بعيدين عنهم، فنلعنهم جهراً عزقن عذريتنا خوفاً بالسنننا الطرية .. أشعر بنشوة لهذا التعبير .. أليس جليلاً أن تتصور بأننا نقاد لزعمائنا خشية افتضاض بكرة خوفاً! يبدو أنني سكرت، فحديشي يتشعب .. لا عليك، فالسكر لا ينال مني إلا مع مداومة ذلك الحزن اللعين، يدامني عندما أتطلع في صورها العشر، وأنا الآن بعيد عن تلك الحالة .. تذكرت: كنت أتحدث عن زعمائنا .. المهم



الانتقال للتدريس في السعودية وانتقل أخي الأوسط للتدريس - أيضاً - في اليمن والاتان اجتماعاً على الحدود، اجتماعاً في قريتين حدوديتين للبلدين، لا يفصل بين هاتين القريتين سوى خط وهمي، يبدو أنهما متقاربتان لدرجة أن تحدث تلك المقتلة الكوميدية والتي كلما رويتها للشخص انفجر ضاحكاً بالرغم من عمق مأساتها بالنسبة لي.

توقف عن حديثه ونظر إليّ باسماء:

- إذا أردت أن تضحك، فاضحك فهذا لا يغضبني أبداً... اسمع هذه السخرية القدرية:

تلقيت خطابين في الوقت نفسه، خطاباً من السعودية وخطاباً من اليمن وكل خطاب ينعي موت أحد إخوتي، فانتقلت إلى السعودية لدفن جثة أخي الأكبر موسى، أرعبنى مقتله كان صدمته مفتتاً بسبع وعشرين طلقة حتى أنني همت أن أعارض عملية الغسل لتعجل لتعجل لعدم اكتماله بخلط فئات قلب موسى برتبته في أشجع مشهد يمكن للمرء أن يقف لمشاهدته، كان مغسلاً غيباً يتلفت صوبي موصياً مساعده بتذكيري بأن لا أنساه بعد الدفن، وتعمدت نسيانه، تركتهم يضمنون أخي في قبره من غير أن أقوم بتلحيده أو وداعه أو الدعاء له، يكفي ما حدث له حتى يدخل الجنة من أوسع أبوابها، ومن هناك انتقلت للقريّة اليمنية لدفن الجثة الأخرى.

وعندما استمعت لمقتلهما كدت أضحك وأنا أقف أمام جثة أخي الأوسط، عثمان أمضى حياته فرحاً محباً للطرف والحكايات وحين وقفت على جثته بقي ذلك الوجه الذي لم يمل من النكات - مطلقاً - مبتسماً وكأنه سمع بكتة مقتله فلم يشأ أن يفوت على نفسه تسريب ضحكته قبل الموت.

قصة مقتل أخوتي بدأت بإقامة حفل عرس في القرية السعودية وصاحب طقوس الحفل طلق نار فانطلقت رصاصات قاطعة الحدود مستقرة بهامة أخي الأوسط عثمان مفتتة بهجمته بينما كان متكناً بمضغ قاتناً، وتجمهر سكان القرية اليمنية حول جثته متحسرين على فقدان مدرس قريتهم، وأقسموا ألا ينأوا حتى يقتصوا لأنفسهم - وليس لأخي - بحجة كيف يذهب أطفال القرية السعودية إلى مدرستهم ويتلقون دروسهم بينما أطفالهم يقبضون في بيوتهم من

حينما جاء البشير كان الطريق الذي سلكه النميري وعراً يقود إلى نفق مظلم ولم يعد الناس قادرين على تحمّل مشقة السير في ذلك الظلام الدامس بكذبة طويلة لم ينهها النميري جيداً، فظهر البشير ومع أيامه الأولى رافعاً شعاراً كان يرضي كل السودانيين، رفع شعار الحل الإسلامي، هذا شعار (المرفوع الآن من قبلة وقيل التراي) هو تحالف ضد قوى سياسية أخرى ولأن التراي جاء من معطف النميري حين أدخله للحكومة عام ١٩٨٥ ليخيل على القوى الاشتراكية فقد فطن وتعلم كيف يصل إلى الواجهة حتى وإن وجد البشير على رأس السلطة، التراي هو التراي يتكشف عن وجه إسلامي صريح في كل حين لذلك تنبه العسكريون (جبهة الإنقاذ) لقوة التيار الإسلامي فتحالفوا معهم لعلمهم بأن التيار الإسلامي يحتل كل مفاصل النظام السياسي.

رشف من كأسه وتناول قطعة جبن لأكها بين فكليه غير المنطقيين تماماً، ومص شفتيه ليلحق بقطرات شيفاز كادت أن تنزلق على شاربه من رشفة كبيرة:

- أكره الإسلاميين فهم لا يحملون أي مشروع سياسي، يحملون فقط أحكاماً مسبقة لكل شيء ولهذا سينحر السودان قريباً.

وعاود سكب ضحكاته المترنحة:

- يكفي شر الإسلاميين أنهم يمتنعون الشراب!

ثمائل قليلاً وعيناه ثقلت بما فيه الكفاية:

- يبدو أنني سكوت تماماً فقد قلبت الجلسة إلى أحداث سياسية غبية، هل تريد أن تضحك؟

لم يتحفظ حين أطلق جملة المفاجئة:

- أنا أكره بلديك، أكرهها كرهأ عظيماً، وأكره معها اليمن. هاتان الدولتان تتساويان في الكراهية بالنسبة لي... لا تغضب فهذه هي مشاعري تجاه هاتين الدولتين المتخلفتين، هما اللتان تسببتا في تحميلي مسؤولية أسرتي، هما اللتان كتبتا تعامسي الأبدية، كنت الأصغر والأبعد عن عيون أبي الذي ارتضى المكوث في حلايب قريباً من راحة السودان، ووجد أخي الأكبر فرصة

غير مدرس، وفي الحال نفذوا تهديدهم واخترقوا القرية السعودية وبحوثا عن  
مدرس تلك القرية (وكان مدرس تلك القرية أخي الأكبر موسى) وعندما  
وجدوه أردوه قتيلاً بتسع وعشرين طلقة من رشاش كلاشنكوف.  
- لماذا لم تضحك، أليست هذه الكارثة مضحكة؟

كنت أصغني له وهو يتهاوى وجسده يتمدد على مساحة تلك الغرفة بعد  
أن أفرغ قنينة الشيفاز بمفرده، غطيته تماماً وانسللت خارجاً في حين كان  
صوت أم كلثوم يقلب الجمرات الدفينة..

سهرت السهر في عيني

كل ليلة وكل يوم

اسهر لبكرة في انتظارك.. يا حبيبي

وبعد ما اطمئن عليك

ح يحبيني نوم

ح يحبيني نوم.

[٥٧]

عمر كان معنياً بدراسة الخلفيات السياسية لتحريك الديمقراطية في  
الدول النامية، فعلى حد زعمه أن مثل هذه التحركات ربما تفيد في تنبيه  
شعوب الدول المتقدمة بأن دولهم تغض الطرف عن ديكتاتوريات لا حصر  
لها.. فتحمل مهمة التنسيق لمناقشة أسباب إغفال هذه الديكتاتوريات من  
حسابات المظمين والداعمين لهذا المهرجان.. جمعنا في بهو الفندق، وشرح  
فكرته باقتضاب فلم يبد كثير من حضر حماسة لهذه الفكرة.

وجوبت فكرته بالظن من أفواه العديدين تلك المعارضة حملت خلاصة:  
إن أمريكا تعرف مواقع حمجارتها جيداً وليست في حاجة إلى لاعب مبتدئ  
يعلمها كيف تحرك تلك الأحجار المروصوة على رقعة العالم.

أجهضت فكرة عمر - في تلك الليلة - واقترح محمود استبدال فكرته  
بالتنكيك على الزعماء العرب واشترط أن لا يذكر زعيم الدولة والاكتفاء  
بالقول: في زعيم عربي.

كان هذا الاقتراح محاولة منه لإخادع النزعة الإقليمية لكل واحد منا،  
ووجد هذا المقترح استحساناً منقطع النظير، ولكي يحفزهم بدأ بنكته أولاً.

في أحد العروض العسكرية اصطف كبار الضباط للسلام على رئيس  
الجمهورية وبينما هو يتصفحهم كان بمعيته قائد كبير يقدم له كبار الضباط  
المستقبلين له بينما كان الرئيس مركّزاً نظراته على رتب الضباط ليصافح كل  
واحد وفق رتبته فكان القائد الذي بمعيته يقول له: قائد مشاة، قائد مظلات،  
قائد كتيبة، قائد طيران.

فجأة لمح الرئيس قائداً (أحول) معلقاً عدداً كبيراً من النياشين وكانت  
نياشينه تفوق جميع زملائه فاستفسر الرئيس بتعجب عن صاحب هذه النياشين:



- قائد أحول وكل هذه النياشين على إيه؟  
فأجابه القائد المصاحب له على الفور: إنه قائد التصويريات العشوائية سيدي.

#### نكتة محمود

يقال إن امرأة تقرأ البخت شاهدت زعيماً عربياً في شبابه وبينما كان ماراً استوقفته وقالت له: يقول نجمك إنك ستصبح ضابطاً في الجيش، فلم يكثر لنبوءها ومضى لحال سبيله ومع مرور الأيام أصبح ضابطاً في الجيش وتذكر نبوءة تلك المرأة فذهب إليها فرحاً وقال لها:  
- لقد أصبحت ضابطاً في الجيش كما تنبأت.  
فتطلعت إليه متفحصة وجهه وقالت له:

- ستصبح رئيس الدولة

فأبدى عجباً من نبوءتها وودعها ومضت الأيام وأصبح رئيساً للدولة فتذكر نبوءة تلك المرأة العجوز فأمر بإحضارها، فجاءت إليه وقالت له ألم أقل لك إنك ستصبح رئيساً للدولة فضحك لها وأجزل لها العطاء فأخذت تتطلع في وجهه وقالت له:

- أرى أنك ستصبح نبياً!

فضرب على جبهته مندهشاً: نبياً!

فقال له: نعم ستصبح نبياً.

مضت الأيام ونسي الرئيس هذه النبوءة وفي أحد المؤتمرات طال حديث المؤثرين وكان الرئيس محصوراً فأبدى امتعاضه من طول الجلسة فلم يتنبه أحد لتلونات وجهه ورغبته الملحة في التبول، فتركهم على عجل وفي أقرب شارع منزوي جلس ليبول، فإذا بشخص يقف على رأسه قائلاً: اقرأ.

فدهش الرئيس وتذكر نبوءة تلك العجوز وعلى الفور قال: ما أنا بقارئ.

فقال له الرجل: يا قواد، اقرأ اللوحة: ممنوع التبول في الشارع!!

#### نكتة عاطف

أحد زعمائكم يكذب دائماً وينسى أنه كاذب، وفي إحدى المرات عاد من رحلة أفريقية فجاء وزراؤه للترحيب به وسماع أخباره، فقال: ذهبت في رحلة

صيد وتوغلت داخل الغابة، فهاجمني أسد ضخم، وظللت أتعارك معه حتى تمكنت منه وقطعته إلى نصفين، وحملته، وضعت رجلاً على كتف والرجل الأخرى على الكتف الأخرى... عند هذه النقطة رن الهاتف فرد على المكالمة واسترسل فيها وعندما انتهى كان الوزراء متشوقين لسماع بقية الحكاية فقالوا له: ماذا حدث بعد ذلك؟

فرد: أين وصلت في الحكاية؟

فقال له: رجلٌ هنا ورجلٌ هنا.

فتابع على الفور: وهات يا نيك!!

#### نكتة عمر

زعيم عرف بمعاوية خصومه بالسجن الانفرادي مدى الحياة، هذا الزعيم أصابه وجع الضرس، وعندما حضر الدكتور قال له: اخلع كل أسناني، وبقي هذا الضرس لوحده زي الكلب!!

#### نكتة أنور

اجتمع رئيس دولة عربي بوزرائه لمناقشة الأوضاع الاقتصادية المتردية للدولة، وفاتحهم بالأزمة الطاحنة التي تمر بها البلاد لتداول الحلول الممكنة لتجاوز الأزمة الاقتصادية فقام أحد الوزراء مهوئاً من المسألة وقال لرئيس الدولة:

- الحل الأمثل أن نعلن الحرب على أمريكا فتقتصر علينا ونصبح من ولاياتها..

رد عليه الرئيس معتفاً: طيب ولو انتصرنا على أمريكا.. فمن أين نصرف عليها وعلى بلدنا!!

#### نكتة خليل

بعد كل هذا التنكيت كنت أتساءل: ألا يسمع الزعماء العرب هذه النكات؟

ما هي ردود فعلهم يا ترى؟ ولو علموا بهذا التعريض، هل سيستنون قوانين لمنع الضحك؟

هذه المرأة غدت حاتي، كانت تجاورنا في الشارع الخلقي، ولم يخطر في بالي يوماً أن ابنتها ستكون زوجتي.

زوجتي من اللاتي مضغن سيرة عشقي واهممتني بالتهمة السهلة التي تناولها الألسن في مثل هذه الحالات، لم يكن بيننا شيء سوى أن أمها الصديقة الأثيرة لأمي.

هذه الصديقة الأثيرة أحمل لها كره العالم.. هي أول امرأة أحفر لها اخدوداً أجمع فيه حطب الدنيا لكي أحرقها ذات يوم، لا أعرف ما الذي جمع أمي بها فهي تذكرني بالكائنات الزاحفة، تحديداً بالعقارب التي لا تشعر بلذة الحياة لو لم تغرس شوكتها في أي جسد رطيب.

أوهنت نفسي - على مر سنوات طويلة - وأنا أحاول الفصل بينها وبين زوجتي، وكلما صفت في داخلي جاءت أمها لتعكر ذلك الصفاء، هي تعرف ذلك جيداً.

لم تستطع أن تنسل من أمها، في أوقات كثيرة أهرب من كلماتها أتمنى أن تحسف بي الأرض قبل أن يفوح صدري بحطبه المخزن:

- ألم تفكر بي يوماً ما؟

كانت تقف في طفولتها بعيدة عن اهتمامي، ذكرتني بذلك في ليلة عرسنا حين انزلت من على جسدها كسمكة وجدت فرصة للعودة للماء.

- عيناك لم تكونا تستقران إلا على وفاء.

حيثما وافر بالصبايا، هذه الوفرة مكنت الشوارع أن تغني في شباننا، في كل شارع كانت هناك عين تسيل بعشقها، ولكل نافذة قلب يدب في الأرض.. أنا من الأغاني التي ذوت ميكراً، بعد رحيل وفاء كنت أشعر بأصابع الصبايا تغرس في ظهري شامة لأني نسيت أن أبني في صدري لإحداهن بيتاً إضافياً.

النساء كالمناجل القابعة في البيوت في زمن الجذب ولكي لا تصدأ تتحرك لحش زهرات العشق النامية من حولها.. أمي توبخني في كل حين، تدعي أنها تجد سيرتي ندية على ألسن النساء في كل مجالسهن:

في زمن ما كانت هوايتي جمع النكت، أجيئها ليلاً: وأفرط على مسامعها كل النكت التي جمعتها خلال ذلك اليوم.

فتشوق بضحكاتها.. توقظ الليل فيجري في مناكب الأرض أغنية لا تموت.

في ذلك الزمن لم تكن النكت بذئبة بهذا العري الذي استشرى في تخليق النكتة الآن.. ربما يكون الأمر متعلقاً بتقدم العمر، ففي تلك الأيام كنا نعيش رهافة الحس وما زالت الحياة رقراقة وطاهرة في أوردتنا، ويبدو أننا كلما أوغلنا في الزمن تلوثنا واقتربنا من المهر.. المهر في كل شيء.

أقنية الزمن المتقدمة أقنية تخثر فيها أرواحنا، تخثر بالدماء الفاسدة، لكل فراغ كتلة تنصر، هكذا يحدث الانتقال من فراغ لفراغ وكلما كان الانتقال من حالة أسنة إلى حالة طاهرة تأسنت المرحلة التي نحن فيها لأننا ننقل تلوثنا معنا.

الآتية التي لا تستطيع التخلص من فضلات السوائل العالقة بها هي آتية جالية للمرض، ونفوسنا لا تستطيع التخلص من فضلات مشاعرنا، كل أنواع المشاعر مرض، كلها تأكل جزءاً منك، تنمو فيك أخايد تنسج في كل تغلاتك، وتأسن بها، تحولك إلى قذارة تواربها خلف حيل سلوكية أو مطهرات صناعية..

هذه المشاعر هي السائل الذي يتخمر فينا ويقربنا من براميل النفايات!

أول امرأة كرهتها اسمها: جعدة.



- سأخير أباك بما أسمع .

صديقتها الأثيرة جعدة دست في أذنها نصيحة أضرمت النار في صدرها ،  
أيقظتني من نومي صارخة :

- هل صحيح ما سمعت ؟

حاولت أن أهرب في نومي من صراخها لكنها - هذه المرة - لم تعطيني  
فرصة ليستشري العفن في أوصالي كما كانت تتمنى دائماً ، هزنتي مراراً -  
بصراخ متواصل - :

- أتريد فضيحتنا ؟

لم تتركني أستوي في مرقدتي ، جذبتني من شعري :

- استيقظ وأخبرني .

.....

- هل دخلت بها ؟

كانت خشية وفاء أن تصل تلك الإشاعة لأبيها وأمها ، توسلت إلي أن  
أكف لسان أُمي وصديقتها جعدة عن توزيع تلك التهم .

من تلك الأيام كرهت أمها تماماً ، لم تتماس يدي بيدها ، أحس لو أُنِي  
مددت يدي ستغرس في راحتي شوكتها المسمومة ، أترك لها ابنتها وأفر من  
رائحتها ، أفر قبل أن أضرم ذلك الحطب المقدس منذ زمن البراءة . . . تنهادي  
نحوي ونصل سكين هرب من قبضتها ، شجعته جعدة على التمرد ، حملتها على  
الكره :

- ما دمت لا تحبني ، لماذا تزوجتني ؟

أجراس الإنذار ما زالت تحوم في مسامعنا ، والهلع يستنهض جيوشه  
لتدمر سكيتتنا ، والشوارع تسلم بعضها لبعض رهبة من شيء تحيكه السماء  
سراً ، وأنا قايع أسفل نافذة وفاء أنصوّر أن صاروخاً ينطلق من بغداد يعبر كل  
الدنيا وينفجر في هامتي ، يحولني إلى بقع دم على جدران بيت وفاء .

- ما دمت لا تحبني ، لماذا تزوجتني ؟

.....

- طلقني .

إذا همت سكين بتقطيع اللحم تكون قد خرجت عنوة لفعل ذلك ، ستجزه  
حتماً حتى ولو لم تبذره في تمزيق عادل ومتساوٍ ، والرصاصة لا تحتاج إلى  
وقت طويل كي تعبر طريقها صوب الكون ، هي لحظات ويكون الدم شاهداً  
على انفجار الطلقة لكنه ليس بالضرورة شاهداً على النية . . كما أن السكين  
ليس شاهداً على تمزيق عادل !

جعدة تتهمني في رجولتي وجروتها الصغيرة تبحث عن مكان لتسد  
طعناتها ، بحث عن منفذ يبعثني عن رائحتهما . . التصقت بصدري ، وعيون  
أبنائي ترتبص بنا بذعر . . أظن أن عويلاً شب في غرفتهما الصغيرة ولم يتحرك  
أحد لإطفاء بكائهم :

- طلقني .

الرصاصة لا تنتظر بعد الضغط على الزناد . . ومن المفترض أن لا يُسأل  
الرصاص لماذا خرجت :

- أنت طالق . . طالق .

الطائرة تحلق صوب صنعاء ، وشيء له رفيف الزمن الأول يخلق داخل  
صدري . . وآتسرب لفرغ طاهر عبرته لزمن رث ، وفاء تدنو كثيراً .

وافق نفر منا للذهاب مع عمر لملاقاة جون سميث مدير المعهد الديمقراطي.

لم ييأس عمر من استدرار بعضنا لدعم فكرته التي أجهضها محمود ليلة البارحة بنكات مخزية.

في المركز الإعلامي بفندق الشيراتون لحنا جون يسير بصحبة ثلثة من الشبان اليمينين العاملين في المعهد، أشار عبدالله باتجاهه بحذر وتخوف:

- هذا مدير المعهد المكلف بإنجاح هذا المؤتمر ..

- ماذا تقصد بإنجاح ..

- هذا المعهد مدعوم من الدول الأوروبية وفي مقدمتهم أمريكا ..

- وهل استفاقوا الآن ليطعمونا من حريتهم؟

سعى عمر للوصول إليه، ولم يشأ أن يكون بمفرده إزاء وجهه المتصحر من المشاعر الودية، كان وجهه قطعة كالحة تذكرك ساعة من دوام صارم أمام وجه عابس!

علق أنور على هذه الملامح:

- نجحوا في اختيار وجه يمثل ديمقراطية العالم الثالث، ويحفزها على

مواصلة العبوس!

حدد لنا موعداً لقائه، جلسنا داخل مكتب صغير نرقب ثلثة من العاملين المنهمكين في أداء عمل منضبط من غير أي التفات، نلمحهم من خلف الزجاج الشفاف الذي يفصلنا عنهم، يعملون همة بالرغم من الإرهاق الطافح من ملاحظهم.

- ما الذي يجعل المرء منضبطاً في عمله وغير منضبط في مكان آخر؟

ربما حفز هذا السؤال تخيلتي لأن يكون موضوعاً صحفياً أشارك به في الاجتماع الصباحي لجريدتنا .. ربما يوكل إلي - رئيس التحرير - مهمة إنجازه .. لو فعل، هل يقبل نشر الأسباب الحقيقية خلف تردي مستوى الموظف الحكومي؟ هل يقبل أن نغوص للقاع، نلمس جذور المشكلة، وأن نكتب عن: الفساد الإداري، عن تأخر آليات الإدارة، عن البيروقراطية، عن غياب قانون (من أين لك هذا)، عن غياب الرقابة، عن تدني الأجور، عن تكلفة الحياة، عن غياب جوهر النظام، عن المحسوبية، عن سرقة المال العام، عن الرشوة، عن إهمال نفسية الموظف، عن مركزية القرار، عن سرقة أفكار الموظفين الصغار، هل يقبل أن نقلب التربة السبخة .. حتما سيعلق بإبتمامته كعادته مردداً:

- أنت تحمل أفكاراً ولا تحيد تنفيذها.

أخرجني من سخرية رئيس التحرير صوت عمر:

- هل يذكر أحد منكم مطلع قصيدة: أمتي كم صنم مجدته.

وحين رأنا نلتهم وجهه منتظرين جوابه حاول تذكيرنا:

- هذا بيت قاله عمر أبو ريشة أمام رئيس الوزراء جيل مردم بيك.

ويبدو أنه لم يعد في حاجة إلى تذكّر القصيدة فقد واصل حديثه:

- ... وما زالت هذه الأمة تحلق أصنامها فما إن يتهشم أحدها أو يموت حتى تنبري وسائل الإعلام لتصيب عشرة أصنام بديلة. فعين تشظى صنم جمال عبدالناصر سمعت أنه فرخ ثلاثة أصنام هم: معمر القذافي،

وصدام حسين، والثالث نسيته ..

حاول خيري أن يدي تحفظاً على اندفاع عمر فرد عليه:

- زعماءك ليسوا سواسية فهناك نخلصون ظلوا على مبادئهم حتى الموت.

استاء عمر من رد خيري:

- أذكر مثلاً واحداً لم يكن يقامر في واشنطن أو موسكو أو لندن، كارثة هؤلاء أنهم نسوا أن الأوراق السرية التي يوقعونها تخرجها وزارات خارجية تلك الدول .. التاريخ لا يموت فهو يحيا مع كل حقيقة تظهر .. واللحن يصل إلى القبور المغلقة!



- يا عمر أنت متحامل كثيراً فليس هناك زعيم واحد أعلن عدم مسؤوليته عن القضية الفلسطينية على سبيل المثال.

ارتفع صوت عمر عالياً تخاطله ضحكة مستهجنة:

- أي قضية فلسطينية، وكل زعمائك عملاء كلهم تاجروا بفلسطين، كانوا يحملونها كجواز سفر ليعبروا إلى مشاعر الناس، وهؤلاء الحكام لا يهتمون شعوبهم فكيف يتحدثون أمام هيئة الأمم عن هذه الشعوب.  
تدخل ياسر يهدوئه العتاد:

- لنهدأ فنحن لسنا خصوصاً، وإذا أردنا الحديث فليكن بالحجة وليس بإشغال فتيل المشاعر..

لم يكن هناك وقت للرد على مداخلته فقد لمحنا جون سميث يدلف من البوابة بصحبة مترجم يمني وقف بيننا مصافحاً ومرحباً بكلمات أطلقها - وربما أضاف إليها بما يتناسب بالتحية العربية - . قادنا إلى صالة صغيرة، اقتعدنا على كراسي تحفّ بمكتب مستطيل اتسع لعددها، اختار جون سميث مكاناً يجعله في مواجهةنا جميعاً وعن يمينه جلس المترجم يتتبع كلماته التي كان يصرفها بعجلة واختصار، أجلسنا أمام عينيه كتلاميذ يتلقون درساً حفظوه عن ظهر قلب لكنهم لا يستطيعون ترديده على الملأ بنفس الطريقة التي وصفها.

جون سميث يذكرك بتلك الشخصية التي غادرت مدن أمريكا الصاخبة المتلونة، غادرها لنجدة الهنود الحمر فكتب على قلب هندية حراء قصة حب رائعة، أما هذا العابس فقد جاء لطرد الطغاة الوافقين على صدورنا، وليخفر شعار الديمقراطية في اثنين وعشرين بلداً، وينسى مائة بلد أخرى تسبح بأسماء زعمائها خشية من أن يفور غضبهم فجأة!! وليس مهماً أن تحب امرأة عربية ما دام الهدف تحرير كل الشعوب النامية من التبعية الدائم!

كان كبيراً وصغيراً في الوقت نفسه فلامح وجهه تفيض بحياة نشطة وأجزاء من جلده تكوشت يفردا دائماً بإبتسامة عريضة تنبئ لعينيه أن تكسنا تلك التجاعيد من أسفل عتبة ذقنه، رغم أن هذه الإبتسامة جامدة على وجهه إلا أنها كانت تؤكد على عبوسه واشتمزازه مما هو فيه، كان يستخدم إبتسامته ليقص اعتداء الزمن على ملاحه الرقيقة ليس إلا.

- أنتم لا تجلسون أمام رؤسائكم أريد أن أسمع آراءكم في بلدانكم وزعمائكم.

قال جملة سجمة:

- إذا لم تفلح في التوجيه ربما تأتي بأنفسنا لإرساء مبدأ الديمقراطية!!  
أنور يشبه إلى حد بعيد صديق أبي عثمان الوردى وإن كان هناك اختلاف بينهما في المعرفة لكنهما يجتمعان في يقينهما أنهما يعرفان الحقيقة التي لا تقال.

كان ينظر إلى مثل الديمقراطيات بتحفز وعدائية مبطنة وحين سمع جملة الأخيرة رد بصوت حاول أن يكون متوازناً:

- لا أعرف كيف يمكن لكم أن تخلقوا ديمقراطية في دول فقيرة كالتي أقيم بها هذا المؤتمر؟

انطلق المترجم اليمني في إعادة شفرات جون سميث:

- لنترك الأسئلة الآن وحدثوني عن بلدانكم.

تقوَس أنور كقط هوجم على حين غرة:

- نحن لم نأت لنشتم رؤساءنا جئنا لمعرفة آليات إنجاح ديمقراطية في بلدان ناشئة!

لم يكن مستريحاً للهجة أنور وإن أبقي إبتسامته تقوم بمهمتها في فرد تلك الملامح الرقيقة المجعدة، وقاض عبوسه الداخلي بتقليب شفثيه الرقيقتين وتحريك أصابع يده اليمنى، كانت إبتسامته كتكشيرة أسد ميت، ساعاً لبركة بالحديث:

- ما هو تقييمكم لرؤساء العرب، وفي تصورك لماذا لا يسعون لإيجاد الديمقراطية في بلادهم، وإذا كانوا يخشون منها على كراسيهم ألم تنصحوهم بإيجاد طريقة ما للمحافظة على عروشهم ومنح شعوبهم طريقة حياة تمكنهم من التعبير عن غير استبداد؟

لمعت عيناه:

- سأبدأ من آخر ملاحظة لكن حديثي ودي وليس للنشر.. زعماءكم بهم خرق مبالغ فيه فهم كالجزار الذي هم بذبح الشاة وقبل أن يميز رقبتهما ستمهما (ربما يطيب لكم هذا التشبيه فأنا أعلم أن العرب يعيشون

التشبيهات). . . زعماؤكم يسممون الشاة قبل ذبحها، وأحزابكم هي جوقه لاستكمال المعزوفة، هي أحزاب بلا حرية، وحزب الرئيس يفعل ما يشاء. . . انظروا إلى صدام ماذا فعل بكم؟. . . إن الحرية في معناها السطحي عند بعض دول العالم العربي أن تقول ما تشاء في المقهى أو في العمل وليفعل الحكام ما يشاؤون وبين القول والفعل تضيق رقاب وأرزاق. . . نعلم أن دولاً عربية تطبق قانون الإعدام في الأشخاص الذين يجهرون بأرائهم السياسية. . . هذا فعلٌ بشع وحقير وضد حقوق الإنسان.

كانت هذه المقولات شائماً أن نستطع أن نناقش عنها بل وجدت في داخلنا استجابة لأن نبيل معه التراب على كل زعيم عربي من غير أن نخشى شيئاً فنحن في بلاط الحرية - كما قال عاطف -، ويمكن لهذا الممثل عن الحريات الناشئة أن يسفنا بلجوء سياسي ونعيش بقية العمر أحراراً كما يجب. وكانت هذه حجة عمر الذي تمادى في شتم كل الزعماء العرب مع مغازلة فاضحة لأمريكا استشعر حيالها (جون سميث) بامتعاظ:

- ألاحظ على المجتمعات العربية كثرة الشتم لزعمائهم من غير اتباع آليات لإيصال الرأي من خلال جماعات الضغط. . . أنتم تموتون بالمجان. . . ثوريون، ووطنيون وقوميون كل من قدم تضحياته مات بالمجان لأنكم لم تسعوا لخلق أداة ضغط. . . عمل ثواركم سري ودور مثقيكم التنويري غامض. . . أنتم لم تفعلوا شيئاً من أجل أنفسكم أو من أجل الغد! لم يرق حديثه لأنور الذي انفجر:

- وأنتم ماذا فعلتم لحرية الإنسان في العالم الثالث. . . لناخذ عالماً العربي على سبيل المثال، أنتم تصنعون الحرية في المنطقة التي تحبون أما إذا تعارضت هذه الحرية مع مصالحكم فإنكم تبقرنها بلداً دكتاتورياً وتعينون على بقاء هذه الدكتاتورية. . . نحن لا نريد حريتكم بهذه الصورة. . . طز فيكم وفي حريتكم!! ونهض منفعلاً حتى أن وجه جون سميث عادت إليه كدمات الزمن وفل يحدق في المترجم اليمني محاولاً التأكد أن هذه الكلمات انطلقت بالفعل من فم أنور.

## [٦٠]

انتهى المؤتمر وتخلصت من الإلزام الإجباري سأبدأ البحث المكثف الآن. . . أين أجدها في هذه المدينة؟

تهمي وصية المرشدي بصوت رتيب ثقيل:  
وان شفت شيء في طريقك وأعجبك شله

هل رأيته يا مرشدي، أم أن كاتب أغنية (يحيى عمر قال يا طرف لما تسهر) أودعك حرقة حين رآها ووصف سحر جمالها مستبيحاً، هتك أستار الملك، والإذعان لجبروت حسنها، إن كان فعل فقد قاسمك مقاسمة ضيزى، منحك الوصف ومنح نفسه متعة النظر وسرقة ما لا يسرق. . . عرفتها من أغنيتهك تلك، خرجت من أغنيتهك طرية لينة كما كانت، تحف بها الوصيفات وهي ترتبع على عرشها عذرة من مغية التهور للوصول إلى سلتها.

هل عادت لقصر الإمام وحين وجدت كرسي الشريفة حفصة خالياً، رأت في جمالها ملكاً يمكنها من البقاء على العرش وفي القلوب. . . أما زالت تنتظر الدور ليأتي عملاً بأحزان قبيلته ولهفته للخروج من قصور الملوك والبحث عن جسد ملقى خارج بوابة صنعاء، يهرب من عيني حفصة كي لا يذوب في الجمال والملك معاً؟

في شوارع صنعاء أسير وعياني تجوبان كل الوجوه:

إن كان عادك غريب ما تعرف البندر  
إذا دخلت المدينة فقل بسم الله

استندت بكل الأدعية التي أحفظها، وذكرت اسم الله في كل شارع من تلك الشوارع التي تسلم بعضها بعضاً، وهي تسير في مكان ما من صنعاء،



تحرك نبضات ألف قلب وقلب، تسير كملكة لا تحفل بالنظر للمستجدين ولا تمنح المبهورين نظرة من عينها..

اجتمع بعض الوفود في بهو الفندق وطلبوا الذهاب إلى عدن ربما للوقوف على مقولة بعض مرافقنا:

- إن عدن تحتفل بالليل تخرج صباحاً لاستقبال مياه البحر القاذفة بالغرباء والحكايات المزوجة باللوعة والسحر وتحملهم لتسامرهم وتمنحهم دفء الروح.

هذه الجملة تناولتها من فم مرافقنا المشبو بالقات على الدوام وصغنتها لتناسب مع لغة البحر والمدن الساحلية.

الصباغة هو السلاح الباتر الذي استخدمته السلطة في الذود عن حماها، كل الجمل التي تسفحها الصحف هي خبز أعد في المطبخ الصحافي بعد استبدال نكهته، رجل الصباغة مجرم يجب محاكمته، فهو مثلون، البيثة تخلق حشرات التي تستبدل جلدها بطبيعة المكان، تغدو الجراة خضراء في الحقول، ومغبرة في الصحاري، ورجل الصباغة نازع قتل المارك اليومية، يوماً يبجل ويمدح ويحذف ويضيف، هو يستعيد دور المخصي ولكي يطمئن السلطان على زوجاته ومحظياته يكلفه بجعل الرجال يسيرون بأفواه كلاب لانه ليس لها من رؤية كل المتع سوى لهات متواصل.. رجل الصباغة يخصي الكلمات.. أعرفهم جميعاً لكن التاريخ لا يعرف من يغير وجهه!

- عدن بحر وغناء وسهر.. هكذا قيل لي، أظن أن كل المدن البحرية تعشق الليل والغرباء، تنتظر منهم حكاية عشق وكثيراً من الشعر ونفساً تحمل مغامرات الأمواج.

جدة في هذا الوقت تستقبل عشاقها وتخبئهم في شوارعها السرية وتمضي بهم في ليل خدر تبادلهم فيه اللوعة وانتظار حبيبة تنهياً لاستقبال حبيبها لتخرج في ليها ذاك تعبر به لجة البحر وتمنحه لذة الحياة، فالمدن الساحلية هي المدن الوحيدة التي تهبنا عروساً من الماء، ذلك الكائن الأسطوري الذي عشق أن يعيش عيشتين، عيشة البحر وعيشة البر، كم منا من ينتظر عروس البحر لكي

تخطفه لأعماق البحار، تصطفيه من كل كانتات هذا الكون لتوشوش له بسرها كماشق جاءها بعد رحلة سندية طويلة.

- فهل تهبنا عدن كانتاً أسطورياً يلج بنا لجة البحر؟  
اتفق الجميع على الذهاب إلى عدن ومن هناك يتفرون لبلدانهم كالطيور العائدة من رحلة صيفية لم تزود خلالها بما يكفيها لمجابهة شتاء قارس.  
- لن أذهب إلى عدن سأمكث هنا حتى أجدها.

الساعة الواحدة ليلاً وإيمان - فائدة قناة الجزيرة - تدلق أخباراً مأسوية، أكان لهذا الوجه الفاتن أن يتلو كوارث العالم، ها هي تتجسد تقف من خلف الشاشة، وتحرق مراكب الشوق وتدس مع الأخبار المأسوية جملة مقتضبة: (أنا أمامك والشوق خلفك ولا مفر من اللوعة)، ها هي تجسد لمعة حداثتها، تجسد بعضاً منها، وتغريني للخروج، وقرع أبواب صنعاء بيتاً بيتاً غير محتسب من تلك الجنابي المسنونة والمثبتة على الخواصر والأقرب ليد متوترة لتنفيذ حالة غضب طارئة.

الدم هذا الرعب الذي يؤجل الانتقال إلى الفراغات، أول دم سفك نقل البشرية من فراغ الحياة إلى فراغ الموت، فراغ تكون فيه النفس منهتية من الانتقال، منهتية من إضافة كتلنها لباطن الأرض.

الدم هو الحالة الأولى لتشكيل الفراغ..

في زمن مضى خشيت من صاروخ فجر هامت وتركني بقايا دم على جدرانها، أما اليوم فلن أخشى من أن تتخاطفني تلك الجنابي المسنونة، أعلم أن تلك الأيدي لن تتسامح مع لوعة عاشق أضناه الفراغ.

لا بد من وسيلة لاختراق الفراغ الذي أعيشه، لا بد من نفق يوصلني إلى فراغ يقبل بتشكيل هذه اللوعة كمشهد تجريدي في لوحة لا يعتد بهندستها، أو كفقرة إذاعية عليها أن تنتشر في الفضاء في تمدد لانهائي... فالفراغ الذي يحقق الحياة هو ذلك الفراغ الذي لم يتخلق بعد!

فأين تشكل هي الآن؟

أين تسكن في هذه المدينة الباردة، هل تقطن في شارع حدة أو شارع

جمال أو أنها تقطن بالقرب مني هنا في شارع عبدالمعني أو في شارع صنعاء؟

- أين هي الآن؟

ها هي الساعة الواحدة تقف على دمي، هذا التوقيت كنت أنتظره بفارغ الصبر فمع حلوله أكون سائراً بجوار نافذتها وحين أجد الباب موارباً أدس جسدي داخله فأجدها كأغنية تنهياً لأن تروح بتفاصيل وجد قديم: شعرها الفاحم الغزير يتهدل على وجنتيها، وجسدها الفاتر يضج بالرغبة فأجس صدرها لترتعش عصفورة وتحلق تنهيدات وتحذيرات طرية، أمس ثغرها، فتنفجر شفتاها وتغمض عينيها نصف إغماضة أرشفها وقبل أن تغرق تماماً تدفعني بيديها وشيء محموم يعترك بيننا، ينطفئ قبل أن نزيد حطب تلك الحرائق.

- أوه لو أعلم أين هي الآن؟

التقيت بقايد جامي على غير ما كنت أتوقع فعقب مهاتفتي له بيوم واحد كان عامل الاستقبال يشعري أن ضيفاً يرغب في رؤيتي كنت أظنه وجدي الأهدل فقد تحدد بيننا لقاء لاستكمال جلسة أدبية سابقة.

نزلت للبهو حاملاً رواية «ابنة الحظ» لإيزابيلا اللندي فلم أجد في حقبتني ما أتواصل به مع هذا الشاب الموهوب سوى هدية أجزم أنه سيفضلها على أي شيء آخر، تقدمت لأجد رجل الاستقبال يشير لي صوب رجل ذي ملابس فاخرة يضع نظارة كارتيه، مرتدياً بدلة سموكن صفيغة، نهض لمصافحتي وقد افترشت ابتسامة واسعة على محياه فكشفت عورة فمه المهشم، بدا دميماً بهذه الأسنان المتأكلة عرقي بنفسه وقادني إلى جلسة منزوية في بيو الفندق:

- أهلاً بك في بلدك الثاني.

لم أسترح كثيراً لحديثه فقد كانت ثمة زوائد مريبة تتفاخر بين مفاصل حديثه إلا أنني واصلت الحديث معه:

- أهلاً بك.

- هل أخبرتك غلاماً بوجودي؟

- ما لا يفعله غلامٌ نفعله نحن.

- أريد غلاماً تحديداً.

- غلام لا يطيب له العمل هنا فقد طلب من السيد توفيق نقله إلى عدن؟

- من توفيق؟

- هذا عمنا الكبير الذي نعمل معه جميعاً.

- تقصد توفيق عبدالله؟

- نعم، هل تعرفه أيضاً؟ يبدو أنك على صلة قوية بهما.

- وما الذي جاء بتوفيق إلى هنا؟

- عاد إلى بلده وعشيرته.

- توفيق الذي أتحدث عنه من قبيلة سعودية معروفة، يبدو أنك تتحدث عن شخص آخر، صفه لي.

- رجل طويل له بشرة بيضاء تميل للحمرة، حلو الحديث، جميل المحيا، نيزه شفتان غليظتان شقرت سفلاهما، وله.....

- يكفي عرفته إنه هو، فشفتاه السفلى مشقورة كمغرر عبرها بعشوائية فأبقاها حبل مقبقة.

- نعم هو كذلك.

- وللتأكد حل أوصافه تحركت أنامله لجيب بدلته الداخلي واستل محفظة أنيقة أخرج صورة منها وأراني:

- هل هو هذا الذي تتحدث عنه؟

- تأملت الصورة فالرأس المحسور لا يبعد الملامح تلك:

- نعم هو.

- هذا الرجل يعني وليس سعودياً.

- كنت مشتتاً تماماً بينما صوته يغور في داخلي.

- هل تريدني أن أوصلك إليهما، أم تحب خدماتي؟

- وما هي خدماتك؟

- كل ما يحتاج إليه شخص مثلك.

- ونهض ضاحكاً:



- إذا رغبت في الانسراح عليك أن تغير مقر إقامتك، فهنا الأجواء محاصرة تماماً

- رجاء أريد الجحش تحديداً.

- سأوصلك إليه، فلا تقلق.

وقبل أن أفيق من دهشتي ناولني كرتاً به عنوانه وأرقام هواتفه المتعددة، وغادرتني على وعد أن أهاتفه بمجرد انتقالني من مقر إقامتي أو إشعاره برغبتي في الذهاب إلى عدن.

ومع نبوضه اقترب مني ذلك العامل نفسه الذي زجرني بحدة حينما سأته عن قرين وفاء، دنا مسلماً، كان وجهه مكفهراً كما لو أنه ما زال يرد على سؤالي:

- هذا الرجل لا يمثل اليمن، فاتتبه.

- تقصد من؟

- جليستك هذا، لا يمثل أبداً اليمن.

كان يهيم بالاستفاضة وعندما رأيته أقلب كرت قائد من غير أن أبادله النظر انسحب مردداً بصوت منخفض:

- كلكم تتشابهون.

[٦١]

إذاً توفيق والجحش مرة أخرى.

ما الذي جاء بهما معاً إلى هنا، وهذا المدعو قايد أي خدمات يشير إليها، هذه اللغة التي تتحرك فيها ملامح الوجه أكثر من الكلمات أفهمها جيداً فقد تدرت عليها في كثير من البلدان السياحية حيث يكفي التلميح من غير الحاجة إلى تصريح مباشر. إنها لغة السماسرة: أمنيات، وأحلام، ووعود، كل هذه الخدمات مقابل سرقات مالية متتالية.

إذاً توفيق والجحش يقفان معاً، إذاً لم أكن متخيلاً في رؤيتي له وهو يعبر الحدود، فتلك الهيئة التي اشتبهت بها عند الحدود السعودية اليمنية لم تكن سوى هيئته مرق بها هرباً من حياة الزنازين.

هل هرب من السجن فعلاً، أم وجد له منفذاً من خلال تلك الشخصية التي زعم أن علاقته بها تنتجيه من كل مهالك الدنيا لو أحاطت به؟

فبعد صفقة الألقنة الواقية أيقنت الحارة مجتمعة أن توفيقاً سيغيب في سجن بريمان زمناً يمكنهم من لعنه كما يشاؤون، ها هو الآن يظهر هنا، فما الذي يجعله ينتمي لليمن ويهجر وطنه وقبيلته، هل خشيته من السجن تبقيه منبوذاً عن وطنه وعشيرته؟

حينما داهم جيب المباحث منزله سار معهم بطواعية من غير أي مقاومة، ظل لسانه يتحرك في فمه بعجلة:

- ستندمون على فعلتكم هذه.

- والتفت إلى المشفقين منه:

- هي أيام وأغادر السجن ساعتها ستندمون على إظهار هذه الأسنان المصفرة!!

لم يكن الحي مصداقاً ادعاءاته تلك.

في وداعي لوفاء كنت متصلاً خلف مقود سيارتي وهيئات عدة تعبر دمع عيني رأيت هيئته تعبر مع العابرين.

ما زال دائنوه يبحثون عنه، فبين الوقت والآخر يأتي شخص سائلاً عنه فتكون إجابة أهل الحي:

- توفيق في سجن بريمان فمن له شيء فليذهب إليه هناك.

- لكنه خرج من السجن.

فيكذب كل أهل الحي هذا الرد.

أفشيت لأحد الأصدقاء بأن رأيت على الحدود اليمنية يعبر الحدود مع العابرين في ما بعد وجدت كلمتي تصديقاً جازماً فقد قيل إن شريكه خيرٌ بين السجن أو مغادرة البلاد، ففضل مغادرة البلاد على المكوث داخل السجن.

[٦٢]

القمر عين صحيحة تكشف سر السماء

مطرش الخالدي

بعة صوته لا يمكن أن تكون إلا لعراقي.

الأم العراقي نبت في حنجرة العراقيين منذ معركة كربلاء وربما منذ أن سن حامورابي شرائعه، ألم معتق، ترعرع في تلك الحناجر حتى غدا حديثهم أغنية حزينة.

قادي وجدي الأهدل إلى مؤسسة العفيف، هناك تعرفت على ثلة من المثقفين كان مهم البحث عن وسيلة توصل صوتهم الناضج الى خارج الحدود..

- السعودية نافذتنا التي نطل من خلالها لكن العلاقات السياسية المتوترة ترهقنا نحن.

قال محمد حملته تلك بقناعة خالصة تفتحت لها أسارير وجهه الأشهب، وتحفز لسماح وجهة نظره:

- السعودية لم تكن في يوم من الأيام بوابة لأي إبداع، هي تحقق مبدعيها فكيف لها أن تصدر صوتاً آخر.

ولم أكن راغباً في تعميق الجدل، كنت ألمح في طرف الجلسة يتمتم بقصيدة هوى لمظفر النواب، وحين أحس بقرب الاختلاف رفع صوته عالياً:

مرينه ييكم حمد، واحته ابقطار الليل



واسمعه، ذك اكهوه..

وشمينه ريحة هيل

يا ريل... .

صيح ابقر..

صيحة عشق، يا ريل

هودر هواهم،

ولك،

حدر السنابل كله

كان مفتوناً بمظفر ويمثله في الحانة، وشوشني محمد:

- جاء من العراق هو حافظ للقصائد الرومانسية ودائم التواجد في جلسات الأدباء.. لم يقدر على كتابة قصيدة بعد.

التقيت به مرة أخرى في اتحاد الكتاب اليمنيين لم أكن أحمل توجساً من العراقيين، في أيام الحرب - وقبلها - تنافر العراقيون إلى أطراف المعمورة هرباً من وحش جبال العراق، وخطف الأرواح ونسي أن يقطف الأغاني من قلوب العراقيين الجزعة على أرواحهم، كنا نظن أننا لو التقينا في مكان ما سيخرج كل منا ضغينته ونوغر صدور بعضهم، وفي كل مكان ألتقي بعراقي ارتد إليه، تكتشف أن العراقيين ماء عذب سكب في الغربة فتبحث عن وسيلة لكي ترتشفهم قطرة قطرة.

- إن الشعوب لا تحول صدورها إلى أصيص لحمل ضغائن الساسة.

صغنا الجملة السابقة معاً بعد عدة لقاءات، أول الأمر تصافحنا في تعارف سريع ووجدت نفسي متجذباً إليه حينما غثى:

يا ريل،

طلعوا دغش..

والعشق جذابي

ذك بيه كل العمر..

ما بطفه عطاي

تتوالف وبه الدرب،

وترباك ترابي

وهودر هواهم،

ولك..

حدر السنابل كله

وجدته مرافقاً لي في زيارتي للبردوني، وفي عودتنا قال: هذا الأعمى عرف غايخ فتنة صنعاء فعشقها كما يجب.

وقفنا على بابهِ خرج يدب كدودة يمنية هربت من عرش بلقيس، كل شيء في وجهه غائر، العينان وثقوب الجدري، كان عليلاً من رحلة مضنية جاب فيها تاريخ اليمن وحكاياته وأساطيره ووجعه، استنهض وجوده بخفة روحه التي تجعله حاضراً يملأ الفراغ ويؤسس وجوداً مغايراً لهذا الجرم الذي قبض عليه فراغاً زائفاً، من سقمه يتنزع الأغنية والنكتة معاً، أخبرني مطشر: البردوني قام بكل شيء، وآخر الأشياء تلك وقوفه أمام القضاة محامياً عن النساء المطلقات.. وأطلق البردوني ضحكته المهشمة معللاً أنه يعشق النساء فهن يمنحنه وقوداً لأن يكون شاعراً.

حين خرجنا من عنده كانت ضحكات كثيرة تعترك في داخلي فقد ألقى كثيراً من النكات عن الأوضاع العربية واستكملها بقصائد مقذعة على الزعماء. قال مطشر:

- أجل وصف لهذا الشاعر ما وصفه به المقالع هو عطر في آنية قديمة.

في تلك الليلة غادرتنا منزل البردوني إلى غرفة جلست تغازل السماء منفردة وكان بيننا مشروب حاذق تجرعه وغرق في لوعته، دندن بقصائد كثيرة وحين جرى الشراب في أوردته تذكر وجعه، تذكر أنه في حاجة لأن يبكي، فبادلته لوعة عشقه وتركتته يتدفق كيف شاء:

أنا ميت هنا.. ميت في كل بقعة من هذه الأرض، أنا أشبه بزهرة تحمل شارة الحب وهي ميتة.

لم أهرب من صدام ورجاله.. هربت من عينيها، لم تستطع أفعال صدام أن

تزلزل الأرض تحت قدمي كما فعلت هي، هربت من عشقها، كنت أبحث عن أي أرض تبعديني عن نارها وكلما وصلت إلى بلد وجدت رجال التفثيش وعينيها، أتسلل من بين أصابع رجال الموائع والتفتيش حين لا يجدون إلا جسداً ناعلاً وقلباً واجفاً، كلهم ظنوا أنني هارب من جحيم حزب البعث، ولم يكن أحد يعلم أنني هارب من عينيها، عيناها الوحيدتان اللتان تصلباني في كل حين.

مذ أن رايتها أيقنت أنها قاتلتي ..

في أرضية الحرب (العراقية - الإيرانية) نبتت عشبنة عشق برية، في ذلك الخط الممتد من البصرة لحدودنا الإيرانية، كانت تخرج القلوب مودعة أحياءها، وهي تعلم أن مدفعاً أو رصاصة غيلة في جيب القدر عليك أن تستلمها لتكمل تحبثها في صدرك .. على ذلك الخط الذي تقام فيه نوايا الموت، كنا نعبّر خطاً مبعداً يتعسر في أجزاء متباعدة، نعبّره يوماً لتزويد الجيش بالمواد الغذائية، في كل مرة كان يقف بسيارته في استراحة قذفت في تلك الصحراء الواسعة، استراحة تناثرت حولها بيوت متداعية، ألمحه يرمي ببصره لأدنى بيت منها، ويرفع يده في تلويحة سريعة ومقتضية، وفناة تخرج برأسها من تلك النافذة المتداعية فتتلاقى الأكف من على بعد، ونمضي صوب الموت ونمضي الفتاة صوب أحلامها .. يوماً نعبّر هذا الخط وأكفهما تتلاقيان في الهواء تكتبان قصيدة عشق عذرية.

شاركته في حبها، كنت أكتفي بمشاهدة المنظر كشاهد على حب تعلق بين هذين يربطهما ضوء حب يومض من على بعد تلك المسافة ..

في أحيان لا يستطيع التوقف فيرفع بوق السيارة بصوت متواصل ويترك يده تلوح من بعيد كبيرق خطفته الريح ولم يسكن خفقانه، تتعلق كفه ذات الأصابع الثلاث في الهواء راسمة شوقاً مبرحاً. كانت حريضة على موعدها معه يكفي أن يضرب بوق سيارته لتنهض من هناك ملوحة له في عشق طفولي يجلب اللب.

كنا ثلاثة رفقاء دائمين: أنا وهو والطريق .. حفظ كل منا قصة هذا العشق الثابت في هذه البوابة المفتوحة على الموت، وكنا يوماً نهرب من صحراء

هذا الموت عائدين للبصرة تنزود بالمواد الغذائية ويتلوحة تلك الفتاة الفاتنة، كلانا أحبها هو يمنحها تلويحته وأنا أمنحها نبض قلبي وأخطفها من بين أهدابه وأضعها في صدري أقول لها قصيدة حب استعرتها من أفواه كل العشاق، أنا وصديقي عشنا تلك الفتاة، هو صاحب التلويحة وأنا صاحب القصائد، نسرح بخيالنا في تلك الصحراء المتسعة مستمعين لأغاني الشوق المنبعثة من جهاز مسجل جلبه صديقي لهذا الخصوص، كنا ندخل إلى مناطق الموت ونحن نحمل زهرة الحياة: كان يمضي نفسه بالاعتناق من هذه الحرب الضروس ليعود إلى أسرته في أطراف الموصل، أقسم إن أول فعل سيقوم به بعد قذف بزنه العسكرية حمل أبيه وأمه خطبة هذه الفتاة، تخميت له الموت قبل أن يعود لحمل أسرته إلى هنا .. تخميت له الموت.

نعم تخميت له الموت، اعترف لك بهذا القبح الداخلي: ذات مساء ونحن نهم باختراق صحراء الموت عائدين إلى البصرة، نزلت بنا ذليقة، كانت مصممة على مقاسه تماماً أحرقتة ولم تبق منه إلا ساعداً فحمم وانتهى براحة كف ليس بها سوى ثلاث أصابع تستذكر ما فقدته تحت ساطور كان مهمته تقطيع اللحم وبيعها.

وقفت في تلك الصحراء وحيداً، نظرت فإذا الأرض تتسع ونار القصف تلتهم أماكن عدة من هذا المدى المتسع، أصابني الهلع فنشت عن جثته وجدتها أجزاء منها متناثرة هنا وهناك وحرائق صغيرة تشي بأن ملك الموت مر من هنا، وجدت ساعده خارج هيكل السيارة المتفحم، تجاسرت وحملت ساعده، ودفتته لم تكن حفرة عميقة فالتراب لم يغط تلك الأصابع الثلاث لم أكن أميناً في تهريب بقية صديقي إلى قبر يليق به .. نعم لم أكن أميناً، تركت أصابعه ظاهرة في تلك الصحراء المعتدة.

هذا القصف، وعدت سيراً على الأقدام، في البصرة رأى رؤسائي أنني المرشح لمواصلة مد الجيش بالمواد التموينية، وفي أول يوم عبرت ذلك الخط، رفعت بوق السيارة فنهضت من نافذتها ملوحة بشوق، بادلتها التلويح وتركت يدي معلقة في الهواء.

أخذت مكان زميلي في التلويح، كانت يدي الوحيدة التي تلوح لفتاة تقف



في نافذتها متخشبة كأنية كسرت ولم يبقَ منها سوى جزء مشطور... ألقني موقفها، فتعمدت السير إليها، حبيتها، فردت التحية:

- لست أنت الذي كان يبادلني التحية..

قالت جملتها وهي تنظر إلى أصابع يدي:

- كان بثلاث أصابع... أين ذهب؟

تسمرت أمام سؤالها:

- لم تحب، أين ذهب؟

كانت دموعي تسبقي، اعترى وجهها فزع وصاحت:

- مات!

تشبعت عيناها بالدموع وانسحبت لداخل منزلها، وكل يوم أعبر بينها رافعاً بوق السيارة فلا تظهر..

ليتني قطعت إصبعين من راحة يدي هذه!

[٦٣]

في بهو فندق حدة التقت معظم الوفود الإعلامية العربية لتناول وجبة الغذاء تلبية لدعوة وزير الإعلام اليمني، وعلى المائدة لام الوزير رئيس الحزب الناصري على الهجوم الكاسح الذي شته الحزب من خلال جريدته:

- أستطيع التقدم للمحكمة ضد كتابتك..

جاء الرد باتراً:

- أنتم تقولون ما تشاؤون ونحن نقول ما نشاء.

تشاغل الوزير عن رده بالترحيب بالوفود الإعلامية العربية، جلست سলوى في الكرسي المقابل، تفصلنا هذه الطاولة وأطباق الأكل، جلست صامتة تماماً متحاشية النظر المباشر باتجاهي.

أبدت حيوراً مفتعلاً لأحد الصحفيين اليمنيين:

- منحي وزير الخارجية خريطة اليمن الرسمية.

لم يفلن الصحفي لغمزها، فواصلت من غير أن يستحشها:

- ... الخريطة التي تثبت أن نجران وجازان ضمن الحدود اليمنية.

نهجت أسلوبها متقناً حركة مسرحية مبتذلة:

- وأنا حصلت على الخريطة الإسرائيلية الممتدة من النيل للنيل.

وكلبوة غير مدربة على الانقضااض صرخت:

- أنت متخلف!!

من هناك بزغت، تسير متقبعة بجوار شخص تنفي هيئته أن يكون عربياً،

ترتدي عباؤها وتغطي وجهها كاملاً وقد أبقت مسافة صغيرة بينها وبين مرافقها، لم تمنحني وقتاً إضافياً لكي أدق في عودها وحركة يديها أبقت فقط مؤخرة تشبه مؤخرتها تماماً.

- هل غدوت حبيس أحلام اليقظة؟

ما زالت سلوى تدس الأكل في فمها بنهم فتتعلق حبات الرز على نابيها البارزين، طلقتهما السريعة مكنت رذاذها من إسقاط الرز على الأطباق المجاورة لها:

- عيونهم كعقارب الساعة لا تعرف إلا الدوران!

هي تقصدي لا شك، فقد اتسعت عيني لرؤية تلك المثقبة وظللت أتبع مشيتها حتى غابت، بقيت متطلعة نحوي بعدائية واضحة، انشغلت عنها تماماً وأخذت أقرب الجهة التي اختفت فيها قرينة وفاء..

انتهى الغداء بأحاديث جانبية تواعد الجميع على إكمالها في مقيل الوزير.

لم أشأ مغادرة الفندق قبل رؤية ذلك القرين الذي زارني في كل الأماكن التي توجهت إليها، جذبي عمر من يدي:

- كل النساء هنا لا يصلحن أن توفد أنوثتهن بنظراتك.

- هل ترى امرأة هنا حتى تقول هذا القول؟

- تنهبت لك حين عبرت تلك المرأة كيف أخذت وتركت كل شيء وظللت تتابع مشيتها.

- أنسيت يا عمر قولك إنها امرأة واحدة هي التي يفز لها القلب؟

- نعم هي امرأة واحدة للقلب، وبقية النساء فراش لمتعة الجسد، أما أنت فأراك تمنح كل النساء نظرة واحدة.

هل تصدق ملاحظة عمر؟ راجعت موقعي الداخلي من المرأة وفقاً لهذه الملاحظة، أملك نظرتين للمرأة: امرأة أقبلها، وامرأة أرفضها... كنت محتاجاً إلى بعض الوقت لتقليب هذا التطرف، القبول والرفض من غير وجود فواصل بين النقطتين... أجلت هذا التدقيق إلى لحظة النقشة، لحظة الساعة السليمانية

حين يصفو كل شيء ولا يبقى نكع سوى أنا واحدة، الأنا العليا معها تستطيع استخلاص كل شوائبك وقذفها مع أغصان القات المتجمعة أمامك وأنت مبحر مع شفافية الذات.

وجدنا أنفسنا في مقيل وزير الإعلام في مكان كبير صفت فيه المدع أمام الضيوف وتناثرت حزم القات من كل الأنواع، تناثرت أمام المقوتين وبدأ الحديث في كل شؤون الحياة اليمنية.

في حين كان عمر يلمس القات بتقزز، ويضعه أمامه كتنيس لم يتعود أن يعلف نفسه بنفسه!



الليل يسير كدابة مشخنة الجروح وصنعاء من خلف نوافذ فندق تاج سبا  
تلتحف بالصمت وتتصنع نوماً ثقيلاً أقلقه مقيل حافل بالقات والأغاني  
الصناعية.

هل انتهى كل شيء وغدوت شبحاً قداماً من الماضي، عشر سنوات مضت  
- تنقص قليلاً - أيعقل أن تمضي كل هذه السنوات وتغفل عيون الرجال عن  
فتنتها؟

هل تزوجت، أنجبت، ألا يزال جسدها الضامر كعود قصب السكر  
يتلوى ويشنى ويشيع غرور الفراخ الساكن به؟

رن الهاتف، جاء صوت رجل الاستقبال بلكنة عربية متداعة:

- هل ستغادر اليوم؟

- ليس بعد.

- ولكن موعد حجزك انتهى وإذا مكثت سيكون على حسابك الخاص.

- حسناً ليكن ذلك.

اعتذر وأغلق سماعة الهاتف.

أمي تنتظر مهاتفتي، تريد معرفة سبب واحد يجعلني على التفریط في  
أبنائي، غدت تناصب صديقتها جعدة العدا، ترى فيها كلبة مسعورة جاءت  
وهي في حالة ضعف وخطت أولادها الرضع، حملتهم للشوارع الضيقة البعيدة  
عن حيهم ومن هناك تسلسل بهم لغارة توصل لأسفل الأرض، نقلت إلي  
أختي غضبها:

- لو أنك لا تريد لهم فلا ترم بهم في بيت جعدة أو بيت طليقتك..

أي أحاديث يمكن أن أقولها لها الآن، لا أريد أن أقع بين كمشة  
الواجب والالتزام، أريد أن أنقل عن كل شيء، أريد أن أعود لتلك الأيام  
انتظر عجيء الساعة الواحدة والسير بالقرب من نافذتها لأجد باباً موارباً أدم  
جسدي فيه وأنهل من رضائها وأجس هضبتين تنفر للماستهما شقشقات  
عصفورين رغبا في السقوط إلى قرار بئر سحقة ليسكننا رفيهما بارتواء.

أقمنا بيتنا الزوجي في خيالنا مراراً، كانت تستبطئ تأخري الدراسي  
الذي سيفارق الخطى بين تخرجي وعلمي، أظهرت رغبتني أن أتوقف عن  
الدراسة وأقترن بها:

- أنت الآن في الجامعة، ستان ويكون وضعك أفضل.

- تتزوج وأكمل دراستي.

ضحكت عميقاً:

- ومن أين ستصرف علي.. هل تكفي مكافأة الجامعة لكي تتحمل بيتاً؟

لنتنظر قليلاً.

- نكتب الكتاب فقط.

- وإذا لم تنتخرج، هل تريد أن تجعلني كالبيت الوقف، أو أحمل فستان

الفرح وأترقب مجيئك كزئنب؟

آه تذكرت زينب.

حين أعلن للمتعبثة العسكرية لتحرير الكويت، كان فؤاد قد غلص من  
كثيبته هرباً عندما لم تفلح كل أعذاره التي تقدم بها لقائد الكتيبة كي يمنحه  
ثلاثة أيام ليكون عريساً.. طلب ثلاثة أيام فقط ووعد أن يعود للمرابطة وأن  
يغرس جسده كعلم لا يغادر أرض المعركة حتى وإن سقطت ساريت.

كان موعد العرس قد تحدد منذ وقت مبكر ولم يكن أمامه مناص للتأجيل  
وزهدت كل أعذاره في التملص من المرابطة في حفر الباطن أدراج الرياح  
فهرب من كثيبته بعد أن ترك رسالة لقائده يجبره أنه لن يتأخر في العودة، فقط  
يحضر عرسه ويعود بعد ثلاثة أيام.

وبيما كان يشرق فرحة ذاوية حيث لم يكن مسموحاً بإقامة الأفراح خشية من صاروخ عراقي يقتحم المدينة على حين غرة . كان عرساً صامتاً تبادلت فيه النسوة الحديث الممل عن الحرب وخشيتن من انفجارها .

وعندما تهباً لأن يزف إلى عروسه داهمت شرطة عسكرية موقع الزواج وسحبت فؤاد من على المنصة تاركاً زينب تتطلع إلى فستانها الأبيض وتكنم سؤالاً حرجاً:

- إلى متى نظل محافظة على عذريتها؟

زينب لا تزال عذراء إلى الآن تعلق فستان عرسها وتنتظر المحارب لكي يعود من أرض المعركة . فلا أحد يعرف هل مات، أم أسر.

[٦٥]

في كل مرة أحزم حقائبي تقف أمامي متخشبة، شيء ما يحترق في داخلها، تبحث له عن منفذ يريح صدرها المحترق . وفي كل مرة أقمي الهرب من هذه اللحظة فأنا لا أحب لحظات الوداع بتاتاً، أهرب دائماً، أهرب من تلويحة قصيرة تحمل ممحاة مهمتها تحويل الكلمات المكتوبة إلى أثر مستخ، أثر يشي أن شيئاً كتب هنا ولم يشأ كاتبه إبقائه:

- أعرف سبب سفرائك المتكررة لليمن .

.....

- إذا كنت تحبها كل هذا الحب لماذا تزوجتني؟

نحن أربطة يقذف بنا القدر في الطرقات لتتحول إلى مشد مهمته الإمساك بالأيدي والأرجل وشدها في عمود بلغ أعماق الأرض . أي حق هذا الذي يجعلنا نقوم بهذا الدور بينما نحن لن نعاد إلى الطرقات نتقلب مع نسمات الهواء أو نتحلل في أمكتنا من غير أن نقوم بمهمة لم نخترها بتاتاً .

- لماذا لا ترد؟

.....

- ألا تحبني؟

هذه الأسئلة الصدمية تحتاج إلى وسائل نجاة تخفف أثر الصدمات العنيفة، فمثل هذه الأسئلة تكون فيها المواردية حجراً ثقيلاً يسقط في أعماق البحر تاركاً دوائر على سطح الماء . .

- لا أحتاج إلى كلماتك . . يمكنك أن تذهب وقبلها عليك إنجاز مهمة

بصيغة .



- .....

- طلقني.

رن الهاتف ناشراً صوتاً متموجاً في تلك الغرفة الساكنة رفعت السماء  
متباطئاً:

- ألو.

- أهلاً بك، ألم تغير مارك لكي نخدملك كما يليق بأصحاب توفيق.

- من؟

- هل نسيته بهذه السرعة؟

- عفواً، قايد.

- نعم قايد، أترغب في الذهاب إلى عدن فهناك الأجواء أكثر فرحاً من  
هنا؟

- ولكنني أبحث عن شخص هنا في صنعاء.

- إن كنت تقصد غلاماً أو توفيقاً فستجدهما هناك في عدن.

- أريد رؤيتك وبعدنا نتفق.

- إذا استعد، ساعة وأكون عندك.

جلست أرتب حقيبتي... قبل عام وكهذا الوضع تماماً، وقفت على رأسي  
لمحت فصل سكين احترمت به:

- لم أعد أطيق رحلاتك وبحثك عنها وأنا مرمية أسفل قدمك.

- .....

- طلقني..

لم يبق على السفر سوى ثلاث ساعات، وهي تلف رغبتها حول عنقي:

- حسناً عندما أعود نتفاهم..

- لم يعد بيننا ما نتفاهم عليه..

نهضت متجهاً للباب فأمسكت بملابسي:

- سأقتلك إن خرجت!!

رنين الباب يزحزح قبضتها ويهدئ من صراخها، أدت أكرة الباب لأجد  
أمها تقف كسمار صدى أنغرس عميقاً فلم تعد تشعر بألمه تفكر فقط في كيفية  
إخراجه من حكمك.. مدت خطوتها لداخل الصالة وحين رأت دمع ابتنتها  
صاحت:

- ماذا فعلت بها؟

أنشبت أظافرها في صدري، دفعته عني وقبل أن تقع كان لسانها يصرف  
كل الشوائب المخزونة في داخلها:

- طلقني.. طلقني.

- طلقها لو أنت رجل.

صراخنا جعل أبنائي يمدون أعناقهم من فتحة باب غرفتهم.. ارتفع  
ضجيجنا بعويلهم، اختلط كل شيء، كانت مساحة الفراغ المدفوعين إليه لا  
تستوعب أحجامنا مجتمعة، والحياة حينما تندفع للأمام ولا تجد فراغاً يستوعبها  
تمزق غشاه لتوجد لها مكاناً أرحب.. جعدة تنفخ في أوردتها الملحها تتشكل  
لنمرة شرسة، تهوي من على ستخمش صدري، وتقطف قلبي، هي تبحث  
عن وفاء في هذا الصدر، يمكنها بهذا النصل أن تقطف نبضاتي.. أنياها المدببة  
تنهيا لأقتناص الفريسة ونصل سكينها يبرق قريباً من الحاصرة.. كلمتان دوتا  
عنيفاً، فسكن الوقت، حارت الحياة إلى أي فراغ تتجه:

- أنت طالق..

تركت كل شيء جامداً في مكانه، وسحبت حقيبتي للحاق بأمل رؤية  
وفاء.

بعشاق الأفلام الرومانسية، جلبت موسى وشرطنا مرافقتنا وامتزج دمي بدمها  
كنا نتعاهد على ألا نفرق وألا ينجون أحدهما الآخر...

ها هي الجراح تبثت من جديد تنتقل من فراغها الماضي لتحل في فراغ  
مستقبلي، إن الحياة.....

رتين الهاتف يوقف تداعيات إحصاء تلك الجروح القادمة من زمن بعيد  
من الخط الآخر، ومن الخط الآخر جاء صوت عامل الاستقبال بلغته المتداعية:  
- السيد قايد يرغب في رؤيتك.

- لحظات وأكون في البهو.

جاء بأسرع مما كنت أتوقع، نزلت متمهلاً فمُنظر تلك الغوريلا البشرية  
جعلني أثريت في السير داخل منحنيات الفندق، في البهو لمحت سلوى تجاور  
حقيبتها منتظرة فاروق استعداداً للعودة للقاهرة، اقتربت منها مصافحاً فرفضت  
مد يدها وكذلك فعل فاروق، تمنيت لهما رحلة سعيدة، ورمقت سلوى بنظرة  
ودودة إلا أن نفورها واشمئزازها ظلاً يطلان من عينيها، وربما قالت كلمتها  
الأثيرة:

- متخلف.

- أستاذة سلوى أنا أحب مصر كثيراً لكنني أكره الزعماء، أعتذر لمصر،  
لمصر وحدها من غير زعمائها.

تدخل فاروق بملامحه المشتمة نفسها:

- يا ابني مصر ليست في حاجة إلى اعتذارك، يجب أن تعتذر لسلوى  
وليس لمصر!!

مددت يدي، فمدت يدها وضغطت عليها برفق كانت تبتسم، شعرت  
حيال ابتسامتها بانكسار، فسحبت يدها وانطلقت تجر حقيبتها لخارج الفندق..  
أي مشاعر هذه التي تقلب كموجات الهواء، كنت راغباً في اللحاق بها  
عطني أسمح كثيراً من حماقاتي معها، بدت كائناتاً ضعيفاً قابلاً للتسامح.. هذه  
التقلبات بين المشاعر تجعلنا كائنات غير مستقرة، كائنات تقترب من الرضى  
أكثر من الخط، أعماقنا هي التي تحمل معول التصدع والبناء، ثمة مسامير

[٦٦]

في لحظات الشوق كل الأشياء الميتة تفيق، تخرج من فجاج الأرض من  
كل الفراغات وتنحشر في أوردتك، تتراقص في أعماقك توجد لها مكاناً  
حاضراً، ليس هناك لحظة مكرورة، وكل لحظة تستأثر بك تجسد مشهداً يطغى  
على كل شيء وتبقى أسيراً له، لحظة ما تفتت كل الأزمنة وتبقى زمنها  
الخاص. أحس أن مشاعرنا الصغيرة والكبيرة تبثت من رقدتها كالجنائز حين  
تبثت من قبورها، هذا المشهد يحضر في مخيلتنا من غير أن نعيشه، يأتي من  
المستقبل ليصبح في ذاكرتنا ماضياً.. وتأتي ذكرياتنا من ماضيها لتصبح حاضراً  
ومستقبلاً حين تمتد معك بقية العمر.. يا لهذا الفراغ الذي تأتي منه كل  
الآلام، لحظات العمر تعود إليك، تقف لتحكم فيها تمنحها رضاك أو  
سخطك..

نستأنس كثيراً بهذا النشوز، تتحول تلك اللحظات إلى كائنات طاهرة  
تخلصت من أدرانها التي أتعبتك في يوم ما، تتحول إلى كائنات تسترضيك حتى  
الأم يغدو استرجاعه مقروناً بالحنين واستلها لحظته ومكانه.. أليست الجروح  
التي في أجسادنا تتحدث عنها بمتعة حين نسرد تفاصيلها لسائل ما..

تطلعت لجروحي: هذا الجرح ولد في لحظة عراك مع ياسين، وهذا الجرح  
نبت حين أغضبت أبي لأنني لم أنف خلف الإمام وانشغلت بمرافقة وفاء لأحد  
الأسواق، وهذا الشج الغائر في رأسي حجر تلقينته حين كنت أحاول التملص  
من حارس ملعب الصبان للدخول من غير قطع تذكرة، وهذا الجرح منحني  
إياه أمني في ليلة لا أذكر سبباً لانفعالها فقدفتني بملقاط معقوف استقام في  
فخذي، هذا الجرح هو الجرح الأثير إلى قلبي، ففي ليلة محمومة أردنا التشبه



نخرجها حين نفث بعدائية، أي صفاء روح تمكنا من إدارة الخد الأسر حين نصفع على الخد الأيمن، هل أراد المسيح رفعنا لمصاف الملائكة لكنه نسي أن أعماقنا لا تحتمل لحظة صفع مباغته. . شعور غريب جعلني مصمماً على اللحاق بها وقبل أن أستجيب له، هتف بي واستقبلني بذلك الوجه المبتسم الريب:

- هل قررت مغادرة هذا الفندق؟

- احتمال كبير أن أغادره، أرغب في مساعدتك.

- تفضل اطلب مني ما تشاء.

تخرجت في البدء وأمام تعري وجهه وتصحره فائقته من غير تردد:

- أبحث عن امرأة هنا.

تفتحت أسارير وجهه:

- ألم أقل لك بأنني على استعداد لخدمتك، لكنك لم تفهم عندما قلت لك

غادر هذا الفندق... سوف أوصلك لأجل النساء!

- لا، لا.. يبدو أنك فهمت بصورة خاطئة، أنا أريد امرأة بعينها.

- هل تعرف عنوانها... رقم تلفونها؟

- لا، وإن كنت أظن أنني لمحتها هنا في هذا الفندق، لمحتها ثلاث

مرات، مرة وهي بجوار الاستقبال ومرة في صالة الغناء، ومرة في فندق حدة.

- صفها لي.

زجرته بغلظة:

- وهل تعرف كل نساء اليمن؟

- لم أدع هذا وإنما قصدت أن تصف المرأة التي رأيتهما فربما أعرفها.

- ليست هي التي أبحث عنها ولكنها تشبهها.

- ما اسمها؟

- هذا ليس من شأنك.

- أنت لا ترغب في أن أساعدك.

- أعتقد أن الجحش هو الوحيد القادر على مساعدتي، فقد أخبرني صديق من السعودية أنه على صلة بها.

تبسم وخط على ركبتي:

- أي امرأة يعرفها الجحش أعرفها، لا عليك سأوصلك إليها مهما كان الأمر.

- هل أنت متأكد؟

- نعم لكن كل ما أخشاه أن تكون ضمن المجموعة التي ذهبت مع

توفيق.

- وما علاقتها بتوفيق؟

وقبل أن أتلقى رداً منه لمحت قريبتها مرة أخرى، لمحتها تعبر بوابة الخروج

بصحبة رجل متأنق تأنقاً مزعجاً، فلكرت قايد:

- هذه هي التي تشبهها.

نهض من مقعده للحاق بها بينما كان العامل اليمني نفسه يتريص بي

بوجهه المكفر، ربما فكر أن يدنو مني مرة أخرى، وقبل أن يفعل عاد قايد

وعلى وجهه علامات الخيبة:

- كأننا أسرع من أن ألحق بهما ركبا سيارة كانت تنتظرهما، أظن أنني

أعرفها.

- أتعرف هذه التي عبرتنا قبل قليل؟

- أظن ذلك.

- ما اسمها؟

- اسمها شمس.. آية من آيات ربي، سأعرفك عليها في ما بعد.

- أحسبها تعمل في الفندق أو للجنة الإعلامية.

- سنسأل عنها، لا عليك.

- لمحتها مراراً..

ضحك مفتوناً بنفسه:

- أنت تريد من؟ امرأة معينة أو هذه التي تلمحها؟

- لا ، لا ، أريد امرأة بعينها .

غمزني ضاحكاً :

- اللاتي يعملن هنا أعرفهن ، ولا أظن أن من تبحث عنها بينهن .

وأطلق ضحكة تودد مفتعلة :

- استعد للذهاب إلى عدن وأفضل أن تكون بمفردك .

- ولماذا عدن؟

- لأن بغيتك ستكون هناك .

- بغيتي !!

- ألا تريد الجحش؟

انسقت لتحريضه ، فصعدت وحزمت حقيتي وهبطت على عجل ، أنيبت التزاماتي مع الفندق وتركت مفتاح غرفتي بيد رجل الاستقبال بينما كان النادل اليمني يرمقني من بعيد ، رأيت عمر يدلف من بوابة الفندق حاملاً أكياساً برزت منها جنابي ومصانف يمنية وبقيت كاميراه مدلاة من عنقه ، تلك الكاميرا التي يفاخر بها دائماً وأنها التقطت مئات الوجوه غير العكرة ، لمحتة يقف في البهو متطلعاً للجلوس ، أشرت له فتحرك نحوي مبتسماً :

- اشتريت بعض الهدايا وعليّ تجهيز حقيتي استعداداً للسفر .

- ألا ترافقني إلى عدن؟

- تغيرت الترتيبات وسوف نسافر جميعاً من صنعاء .

أنزل أكياسه ، وحضنتي مودعاً :

- ستواصل حتماً .

- نعم ستواصل .

قبلني وانسحب متميلاً بقامته الفارعة وقد أبقى كامياته معلقة على صدره تبحث عن وجه جميل يضفيه إلى مجموعة الصور التي يحتفظ بها بحثاً عن تلك الغائبة .

[٦٧]

استجبت لدعوة قايد في الذهاب إلى عدن ، فأقل الأضرار الالتقاء بالجحش ومن هناك سأواصل بحثي عنها .

وجدته يقف بسيارته فاتحاً فمه كبيارة غدقة بماء طحليبي من أثر القات الذي أكل أسنانه وأبقى له على شواطئ حنكه جذوراً محطمة مطحلبة ، فقد تأكلت أسنانه حتى يظن الراثي له أنه شخص ادرد .

وجدت نفسي متورطاً معه في حكايات العهر ، كان بارعاً في خلق أجواء ترغيبية لمن عاش مكبوتاً ، كانت له مقدرة فذة في وصف حياة المومسات وكأنه يعيش بينهن .

- هل أستطيع سؤالك عن ماهية العلاقة بين توفيق والجحش؟

ضحك فماجت خضرة أسنانه على شفثيه الغامقتين :

- شخصان عادا إلى بلدهما وهما يحملان مالاً وقيراً واشتركا معاً في

تنميته .

- أخبرتك من البدء أنهما ليسا يمينين .

- أنا لا يعني هذا الأمر كثيراً .

- وأين توفيق الآن؟

- توجه للحبشة .

- الحبشة وماذا يعمل في الحبشة؟

ضحك مرة أخرى ، وسحب غصن قات كان مهياً للمضغ وحشره في

فمه :



- يبدو أنك لا تريد الفتاة التي تبحث عنها!  
أجوبته مغلقة ويشع في الحديث حين يكون الأمر متعلقاً بتوفيق أو  
الجبش، كنت محتاجاً إلى سؤال ضخم يحرك ركوده في هذا الجانب.  
- سمعت أن توفيق تزوج بفتاة مغتربة.

- توفيق تزوج...

وأطلق ضحكة عالية ممسكاً بمقود السيارة ومفتعلاً ضحكاً إضافياً:

- لا، لا، توفيق من أكبر عوانس العالم ولا أظنه سيفعلها أبداً فهو  
منشغل بأمور أكبر من الزواج؟

هلت طمأنينة مفاجئة لداخلي (إذا لم يتزوج، وبالتالي لم يقترب بها)، كان  
كثعبان يتحصن بجحره جيداً فكلمنا حاولت إخراجها توارى عميقاً، وكلمنا  
هممت بمعاودة الحديث عن توفيق أرخى إبتسامته وربت على ركبتي:

- عندما تصل إلى عدن أفرط كل ما تشاء في مسامع الجبش فهو أدرى  
مني بذلك، أما أنا فلا أتدخل بين الأصدقاء.

[٦٨]

دخلنا إلى عدن وأخذ يطوف بي بين أحيائها مشيراً لكل مكان: هذا حي  
دار سعد، وهذا حي الشيخ عثمان، البريقة، خور مكسر، وكريتر، والمعلا،  
والقلوعة، وتواهي، وهنا قولد مور.

أرض عدن أبقت شيئاً من التاج البريطاني على ثراها، أبقت قلوباً بريطانية  
تحن لهذه التربة، رأيت قبور الإنكليز بمحصة برخام تحمل سارية كتب فيها  
اسم الميت وتاريخ وفاته، كانت تربتهم ناشفة ومكشوفة، كم مضى على هذا  
الرفات؟.. وهل تأتي امرأة لزيارة حبيب دفن هنا؟

في كل تجوالنا كان قايد يهذي بمئات الحكايات، خطر في بالي النادل  
اليمني:

- هذا الرجل لا يمثل اليمن، فاليمني يموت قبل أن يفعل فعلته!  
كنت أسترق ملاحه محاولاً قراءة جمل زائدة تساقطت من بين أهدايه،  
فسألته مباشرة:

- هل أنت يمني؟

- هل تفيدك الإجابة؟

كان وجهه صحراء من الرمال المتحركة أبقي فيها شيئاً قليلاً من الإشارات  
التي يمكن قراءتها لتدرب على قراءة الوجوه، وجهه تسكنه المراوغة والمقدرة  
الفظة على إقناعك أن بمقدوره فعل أي شيء ترغبه، هذه الشخصيات تتواجد  
في كل المدن السياحية تبحث عن مغفل لثمص دماءه وتتركه يبحث عن ثمن  
تذكرة تعيده إلى بلده، لكن هذا الوغد حيرني كثيراً فمند أن التقينا لم يطلب  
قرشاً واحداً.. وجهه الموارب يستدرجني في الحديث..

- هل تقدم خدماتك مجاناً؟

التفت بكامل جسمه ضاحكاً:

- لا طبعاً، ستتحاسب في ما بعد وربما لا يحدث ذلك إذا كنت صديقاً حميماً للبحشش أو توفيق.

- أريد أن أصل للبحشش أولاً.

- ستجده أمامك.

- أين؟

- في الفندق نفسه الذي ستزول به.

أنزلني في فندق وضاح، فندق متواضع، ذو مدخل معتم وفي جهة نائية عن حركة المدينة وضوضائها في مقدمة الاستقبال تجلس فتاة بلامح عذبة ويبدو أن وظيفتها فرط ابتسامتها في كل حين، طلبت جواز سفري للاحتفاظ به، حاولت أن أبدو مهذباً في رفضي لطلبها فتدخل قايد بيننا:

- شروط الفندق أن تسلم جوازك.

- هذه وثيقة رسمية لا أستطيع التفريط بها يمكنني دفع أي مبلغ تشاء مقابل مكوثي في هذا الفندق.

- لا عليك أترك جوازك وأنت مطمئن.

مدت الفتاة يدها إلى درج سفلي وأخرجت مجموعة كبيرة من الجوازات السعودية ولوحت بها في وجهي:

- انظر كل هؤلاء تركوا جوازاتهم لدينا فلا تخشى شيئاً.

في أحيان كثيرة نقاد لرغبات الآخرين بغية فادح، مددت لها بجوازي وما زال شياطين ذلك الغضب الفاجئ يتمدد في صدري، جذبتني بحالتي تلك:

- قلت لك أريد أن أصل للبحشش أولاً.

- استرح الآن وانتظري في المساء داخل الملهى وسأتي به معي.

- أي ملهى؟

- ملهى الفندق.

كتمت غيظي وتوجهت لغرفتي لأجدها غرفة بانسة استوت بموازاة عدة غرف تطل على جبل شمسان، وكان ثمة شاب قد استقر في حجرة ضيقة

تصادفك مع انتهاء سلاالم الدرج، يجلس أمام كومة من أعواد القات المستهلك وقد نفرت عروق صدغه الأيمن مستمعاً للوغة اليمينية عبر صوت المرشدي ويتمایل متشياً كفصن استقبال نسائم ربيع هلت بموعدها.

بحث في تلك الغرفة عن جرس لاستدعائه فلم أجد، نهدت عليه فلم يلب النداء فلم أجد بدأ من التحرك صوبه متسائلاً:

- ما هو نظام الفندق هنا؟

لم ينهض من جلسته بل ظل في رقدته المسترخية يجتر عصاره قاته وينفث دخاناً كثيفاً وتشاغلته سبابته بلف خصلات من شعره:

- كل ما يطلبه سنوفره لك.

كان صوته قادماً من نفس سكنت في واد سحيق، نظرت إليه بعدائية:

- عمالك هنا التقويت فقط؟

- ماذا تريد؟

- الغرفة غير مهيأة لاستقبال أحد.

- سوف أنه لك على ليل لتنظيفها.

تركته على حاله، وأخذت أنتظر أن تأتي ليل تلك.

مضى الوقت وأنا اتجرح خيالائنا، رأيته في حالة ذهول وهي تجهدني أقف أمامها.. أن ترمني في حضني، لا شك أنها تزوجت وكل ما أخشاه أن يكون البحشش بعد أن طمانني قايد بأن توفيق لم يتزوج بعد، هل يعقل أن ترضى بذلك الدابة، وإذا كانت زوجته فهل سيمكنني من رؤيتها؟ وإذا لم تكن زوجته فكيف سيكون اللقاء، هل ستخفي فرحتها أم ستطلقها عبر ابتسامتها التي تحلق كعصافير الصباح الغادية إلى الحقول؟

خيالات عذبة تمرح في خاطري استأنست بمشهد عبري: رأيتها تحطفي لأحضانها وتضرب صدري بيديها الصغيرتين وتدلّق عتب الأيام اليابسة التي فرقنا وتسحبني لتجالسني في ركن معتم لكي أشم خديها لتنفّر موصية إياي بالتزام الأدب، أطبقت عيني وأنا واقف أسفل قامتها شاكياً حرقة كل الأيام التي مضت..



وضعت يدي على أذني فافتقرت بشفتيها، شعرت بحرارة أنفاسها وشممت رائحة عطرها الرخيص:

- هل أنت من نزلاء الفندق؟

- نعم.

- مرحباً بك، ماذا تشرب؟

- بيرة.

كانت حركتها تغري بمواصلة حديث أعمق من استجابة لطلب مشروب في مكان رث كهذا. . أرسلت ابتسامة مبالغ فيها وتعمدت إبانة مؤخرتها بنصف استقامة وهي تتحرك في الاتجاه الآخر، تلفت حولي: ثمة فرح يجري في عيون الساهرين، النساء متناثرات على كل الطاولات، والمخمورون يتمايلون طرباً مع تلك الأغنيات، وكلما انتهت وصلة نهض الكثيرون استجابة لأغنية تحرك العذاب الداخلي في تلك الأجساد، عيون الصيادين تجول في تلك الغابة الصغيرة تبحث عن فريسة تستجيب لفخاخه المنصوية، يتبادلون الإشارات مع فرائسهم. .

المكان يغري بالبقاء لمغازلة هذه العيون الباحثة عن زبون لمنحه رغبة زائفة وجسداً مراً، هناك أكثر من فتاة مرشحة لهذه الفعلة، المومسات محترفات في إرسال إشاراتهم وجذب فرائسهن إلى منطقة واسعة من الركض، هن مفتونات بملاحقة الصيادين، ففي غابة المومسات قاعدة أخرى للقنص، فالقريسة لا تبحث عن مكان تختبئ فيه من عيون المترصين بجسدها، هن يعرضن أجسادهن لكل السهام بنشوة ورغبة في الاستسلام المبكر، وحين يتم اقتناص إحداهن لا تكتفي بهذا الصياد، تبحث عن بقية الصيادين لينهشوا عظامها في الليالي القادمة! يطلقن إشاراتهم من خلف صيادين عتاة، تدربن على معرفة فوهات مدافع الأجساد المنتصبة والمهيأة للقذف على الدوام، إحداهن تمنح نحرها ليلثمه جلسيها، بينما عيناها وإشاراتها تستميل زبوناً آخر لكي ينتظر دوره ويتلمس ذلك الجسد الرخامي، الصيد هنا متبادل، ليس هناك قواعد أخلاقية لهذه اللعبة، هنا سوق يعيد زمن النخاسة من غير تحريج على تلك

[٦٩]

استيقظت مع اقتراب الساعة من العاشرة مساء، كان الوقت ضبابياً مزوجاً بشيء من الكآبة، صوت غناء يتعالى من الدور السفلي نشطت له، فارتديت ملابسي، وهبطت، سألت أحد العاملين:

- من أين ينبعث هذا الغناء؟

- من الملهى الليلي.

وأوصلني إلى بوابة الملهى بعد أن نقدته ثمناً يزيد على ثمن تذكرة الدخول، دلفت إلى صالة كبيرة كانت إضاءتها خافتة، ودخان كثيف لم يجد له مخرجاً، فوقف أمام العين مباشرة، وطاولات تناثر عليها الساهرون يتابعون مغنياً جاز بأغنية فائقة الروعة (إبعاد كنتم ولأقربين) فشّوه روعتها بصوته المستجلب من حظيرة أو من ورشة حدادة، كان صوته ثاقباً يترز مهتماً خارج الحروف ومقطعاً مقاطع الأغنية كآلة ضخمة مهمتها قص قطعة حديد صلب، ثمة فتيات كن يتراقصن على تلك الأغنية يشاركنهن مجموعة من الرجال معظمهم كان مرتدياً الزي السعودي، وكل واحد منهم يريد الاستئثار بمن تراقصه من دون سواء. . وعلى يمين الغني جلست بعض الفتيات ينثرن ابتساماتهن وينبذلن النظر مع الباحثين عن المتعة في آخر المساء.

لبعضهن جمال قاهر، وبعضهن كن يغالبن دمايتهن بميك أب متواضع عتق تلك الدمامة.

اقتعدت في مكان منزو، لتتهادى إحدى النادللات نحوي مطلقة ابتسامة أبانت أسنانها المنضودة، قالت كلاماً لم أسمع فقدته وسط الضجيج المرتفع،

الأجساد المعروضة كسلعة تستخدم وتعاد لموضعها انتظاراً لمستهلك آخر... وليس لصياد حق الاعتراض أو الغضب لو رأى فريسته معلقة في خفاف جزار آخر!

اقتربت النادلة ووضعت أمامي بيرة مع قليل من المازة المكونة من: الخيार والجزر والرايب والجبنه، تعمدت أن تلصق خديا بخدي، كانت قد سمحت لنهديا أن يفرا من بلوزتها بفتح زر لم يكن أميناً على هذين التهديين الباحثين عمن يعصرهما مقابل حفنة من الريالات، ألقيت عيني في نهر صدرها فتصنعت خلقاً ابتسامه حاولت أن تسكب بها أنوثه مستفيضة:

- هل ترغب في شيء آخر؟

- أبحث عن شخص وعندي أن أقابله هنا.

- من هو؟

- يدعى قايد.

- لم يأت بعد..

- هل تعرفينه؟

- نعم.

- وهل تعرفين شخصاً اسمه غلام ونيزته الجحش؟

- اتسعت بسمتها الحلوة، وأشارت للجهة اليمنى:

- لا تقل الجحش فيقذف بك إلى خارج الصالة.. انظر إنه يجلس هناك.

كان يجلس في مقدمة الصالة وحوله أشخاص عديدون وقد صفت على طاولتهم شتى أنواع المشروبات، تشاركهم الجلسة عدة فتيات هن خلاصة الجميلات في هذا المكان.

- هل هو زبون دائم هنا؟

- كانت النادلة لا تزال تضع أذنها بجوار فمي:

- ليس زبوناً بل مشرفاً على هذه الصالة..

- أخرجت ألف ريال يماني ودسته بين يديها:

- هذا عربون صداقة.

تفلتت ابتسامتها وألصقت خديا بفمي:

- أنا أعمل بالفندق ولا يمكنني تلبية رغبتك... تستطيع مرافقتي بعد انتهاء العمل لو أحببت.

- يسعدني تماماً.

- إذا سأنتظر بعد انتهاء العمل.

أغفلت كل شيء وأخذت أراقب الجحش، يبدو أن له نفوذاً طاعياً هنا، يكفي أن يحرك سبابته لتحرك نحوه كثير من القامات تلبية لأوامر يدها في أذن من يقترب منه، وزاد يقيني من سطوته هنا حين تدخل في السماح لشخصيات دلفت إلى المرقص وهي منمنمة ببنادقها فقد أشار لرجال الأمن بالسماح لهم ونهض لاستقبالهم وأجلسهم في الطاولة نفسها بعد أن أمر بتجهيز المكان بكراس إضافية، كان يخامرني خاطر: كيف لو خمر هؤلاء وأفرغوا بنادقهم في بطون هؤلاء الذين يتراقصون كالبعج المتوف الريش!!

لم يكن ينظر إلى الزبائن الذين يملأون المكان، كان معنياً بوضع يده بجوار كأسه وفي وجوه المحيطين به، كنت أرسل بصري باتجاهه عله يلمحني ويأتي، كانت هذه الرغبة جامحة حيال هذا الجحش الذي سمن وغدت حوافره من ذهب على ما يبدو.

- هل أتوجه إليه مباشرة أم أتريث لكي تحين الفرصة المناسبة؟

كنت متردداً بين الإقدام والإحجام، وتنازعتني أفكار مليئة بالاحتمالات وكابوسية حين أتصور أنه سيتقم من استخفا في به على الدوام، أتصوره وقد فاقته بداخله كل النعوت الوخيمة التي كنت أضفه بها، ربما تفور من أعماقه ويقتص نفسه في موطن هو القوي فيه.

كانت النادلة حين تخدم على الجهة التي أجلس فيها تعتمد حك إلتها بجزء مني، تاركة غمرة حلوة كمشهيات لأكلة دسمة، لمحت زجاجة البيرة النافذة فاقتربت وقامت بالحركة نفسها:

- هل ترغب في زجاجة أخرى؟

هزرت رأسي، لم تغب طويلاً، وحين كانت تفرغ تلك الزجاجة في



كأسي المنسوب أمامها، جذبت كنفها فأنحت برقبته لتريني نهدين نافرين:

- وتوفيق هل هو موجود هنا؟

اتسعت عيناها:

- وهل تعرفه أيضاً؟

- لا ولكن مرسل إليه، أين أجده؟

- توفيق خارج البلد... ربما يكون في الحبشة أو صنعاء.

- وماذا يعمل؟

- توفيق هو الكل في الكل هنا.

وعندما همت بالانسحاب أوصتني:

- لو خرجت معي لا تخبرهما، أفهمت؟

[٧٠]

مضت ثلاث ساعات وأنا أتجرح هذه البيرة وأقبل غزل النادلة المبتذل، مقلباً بصري بين الفتيات العارضات لأجسادهن بطريقة بدائية تنقصها خبرة المومسات المحترقات، فهؤلاء تنقصهن حنكة المتدربات وأساليب العهر المتقدمة في عرض خدماتهن بجودة فائقة، وتنقصهن حذاقة الصيادين، لم يعرفن بعد أن طالبي الهوى الليلي وحوش تنقص عل فرائسها بنهم من غير تمهيد، ينهشون ما تصل إليه اليد أو العين بصلف المتعجرفين وأرباب الأموال، لا وقت لديهم لإطالة أمد الحرب، هم مستعدون لإطلاق طعنات متوالية وإعادة الجثة إلى موضع العرض، هذه الخصال تغيب عن هؤلاء المومسات اللاتي يحسبن أنهن يقتعدن خدورهن ويبدلن في عرض أنفسهن، يتبرمن من أيدي الصيادين القاسية، ويتأففن من روائع أفواههم، عيونهن جافة المنايع لا تمنع ماء لتلك الألسنة السمورة.

معظمهن بحاجة إلى تمارين في مواخير أكثر صنعة ورقياً في تقديم هذه الخدمة، في تلك المواخير تأتي المومسات وهن يعرفن كيف يمنحن اللذة ويتقاضين مقابلها ثمناً باهظاً. جسد العاهرة - في كل مكان - فراش رطيب ونفس باردة حتى وإن كانت تقذف حمماً من أسفلك فستتذكر حين تدس نقودك في حقيبتها أنك دهستها في سرعتك القصوى من غير أي شعور بالرحمة... وبعضهن تحس بعمق احتقارك لها فتبحث فيك عن دنس مواز!

.. كنت أجلس حائراً معدداً احتمالات تغيب قايد كل هذا الوقت.

دخل قايد وعينه تشيران إلى أنه يبحث عن شخص محدد وحين رأي أشار

لي بيده مبيتسماً، وأقبل نحوي ضاحكاً، صافحني على عجل وجلس في مواجهتي:

- أليس هنا أجل من صنعاء؟

- نعم أجل فالحياة هنا أكثر حيوراً.

- ألم تلتق بالبحش.. أقصد غلاماً، نصيحتي: لا تردد لقبه هنا، فنحن نردده سراً، الوحيد الذي يناديه بهذا اللقب وبصوت عال هو توفيق.. تذكر توفيق فقط المسموح له بمباداته يا بحش.

عبرتنا النادلة ورمقني بابتسامتها فجذبها قايد:

- أريد بيرة.. أين شمس؟

كانت الضوضاء قد انخفضت لتوقف الغناء في استراحة قصيرة.

- لم تخضر منذ أسبوعين فقد ذهبت إلى صنعاء.

- ألم تنهي مشكلتها بعد؟

- لا ولكنني عرفت أنها ستكون هنا غداً.

التفت نحوي:

- حظك سيئ، شمس في صنعاء، كنت أتمنى أن تراها.

رشف من زجاجة البيرة مباشرة ومسح فمه فيانت جذور أسنانه المهشمة:

- كنت تسأل عن غلام يالحاح ألا ترغب في السلام عليه؟

- هو مشغول تماماً الآن.

- هذا عمله، هو يجالس الزبائن الدائمين أولئك الذين تظفر جيوبهم بكل

العملات... تعال معي.

جلبني من يدي، وسرنا، خطواتي ثقيلة وحقد دفن ينبعث من صدري كرمح مذب ينغرس بين لحمه وعظمه، هذا الكائن الهلامي المقرز المكدوف في جنبات حيتاً من غير أن يثير انتباه أحد، ها هو يغدو شيئاً مذكوراً، تشد إليه الرحال، هذا القميء يطاردني في كل مكان ويغدو بوابة عليّ أن ألج منها لرؤية وفاة.

ربت قايد على كتفه، فالتفت باتجاهه التفتات من يشعر أنه ملء الدنيا:

- هناك صديق يبحث عنك.

(عليّ أن أكسب وده، وأعو آثار الاحتقار والأزدراء اللذين أشبعته بهما خلال سنوات طويلة).

- غلام!!

كنت مبالغاً في احتفائي به حين خطفته من كرسية لحضني مقبلاً إياه بابتهاج، أطلق ضحكة صاخبة ممرعدة:

- مرحباً.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟

أبقاني قليلاً في حضنه، وضرب على كتفي:

- لقد تغيرت..

- وأنت أيضاً تغيرت كثيراً.

عزفني على جلسائه على عجل، وجذب كرسياً مجاوراً وأجلسني ووجه حديثه لرفاقه:

- هذا صديق قديم..

اصطف على الطاولة سبعة رجال سحناتهم متبانية، تحالسم ثلاث فتيات إحداهن طاغية الحسن وغارقة في سكرة لم تمكنها من السيطرة على جسدها فأرخته على كتف رفيقها ببقية سيجارة احترقت واقتربت من أناملها العاجية المرتوية فسارع صديقها - عرفت أنه من مدينة جازان - بالتقاطها وإخاد اشتعالها في منفضة جمعت عشرات الأعقاب.

مكنك غلام من أن يجتلس ملاحي كما يشتهي، وبقيت أنأمل جلساءه وأبادلهم التحيات السريعة المقتضبة، وقد جذبتني أنامل تلك الفتاة، أنامل مرتوية متناسقة زينها حناء قاني الاحرار فجري في صفرتها كأنهر تدفقت بمائها فروت سنابل راحتها، شيء ينبعث منها يجرضك للبحث عن جملة تختصر ما اعتلج بداخلك من تقديس لهذا الجمال المستوحش.

غلام أراد إبداء أهميته فترك يده معلقة في الهواء فاستجاب لها أقرب نادل:

- قدم لضيفنا ما يشاء..



اتحنى النادل أمامي:

- ماذا تود أن تشرب؟

- بييرة.

تدخل غلام على عجل:

- لا، لا، أحضر له أفضل مشروب لدينا.

ضغط على حروف لدينا بثقل راسماً استعلاء مفضوحاً، تناولت تلك الفتاة سيجارة أخرى بترنح وملقية بثقل نهديا بين يدي رفيقها، فأشعل سيجارتها وهو يلثم طرف عتقها المائل، مجتّ سيجارتها بعمق ونفتت دخانها بانجهاجي، وفتحت إغماضة جفنيها ليتسرب سحراً خيآته تلك الإغماضة لثقل هذه المواقف:

- من الآخر؟

تدخل للمرة الثانية غلام:

- هذا صديق قديم.. رفيق صبا وربما يطلبك فكرميه..

- تشرفنا، تعال إلى جواربي.

دفعتني غلام بانجهاها دفعا، استشعرت بترم رفيقها، فلم استجب لدفعات غلام وبقيت في مكاني..

عاد ذلك الصخب عنيفا، ليتفاقر من طاولتنا ثلاثة رجال مصطحبين الفتاتين ومبين تلك الطاغية تلهي بتحريك الثلج في كأسها الذي كلما فرغ عادت لتملأه.

هل الوقت مناسب للحديث معه أم أترك الأمر لوقت آخر؟ نعدد إهمالي حين فتح حديثاً مع رفيق تلك الفتاة، حديثاً لم يكن ليتواصل بسبب تلك الموسيقى والغناء المرتفعين..

قميصه المفتوح أبان قشطاً كبيراً بدا من أسفل أذنه وسال على صدره.. يكفي هذا القشط ليذكره باحتقاري الدائم له، ها هي الجراح تنبت، هذا الجرح كيف يستذكره الجحش... أتذكر جرحه هذا جيدا:

- تصور أن الجحش دفع الباب علي وأنا أنتظرك..

- هل فعل شيئاً؟

أرخت رأسها:

- حاول تقبيلي لكنني زجرته وصغته على وجهه.

- الكلب سأجعله يندم ما تبقى من حياته..

جدبتي نحوها، فتملصت من قبضتها واندفعت أبحت عنه في أزقة الحي ويدي قرن غزال اقتنيتة كسلاح يفيد في صد الخصوم حين ينشب شجار مفاجئ، وجدته يقف أمام متجر العم يوسف:

- يا خسيس، ماذا فعلت؟

لم أجعله يجيب فغرزت شفرتي بجوار أذنه وحين حاول إبعادها سحبتها على صدره، قاطعاً ثوبه وفنلته وقبل أن أعظم طعنتي تجمع شباب الحي وأبعدوني عنه.

- لو نطقت بكلمة فسوف أجهز عليك لاحقاً.

كنت أعلم أن تغاضيه عن إهانات الكثيرين - وأنا منهم - ينبع من خشيته الوقوف لدى الشرطة ساعتها سيكون عارياً من أي وثيقة رسمية عما يعني قذفه إلى أقرب باخرة متجهة للند.

هذه الخشية جعلته كالضبع ينتظر أن يتحول خصومه إلى جثث لينهش لحومهم بحقد وتلذذ.

عاد الراقصون إلى مواقعهم، أحدهم يبدو أنه ذو حظوة ومكانة فقد سمح له رجال الصالة بالدخول محترماً رشاشاً خلعه من على كتفه وأسنده بركن قريب منه، تناول قطعة جبن وهرشها بمقدمة أسنانه:

- جئت الليلة علني أرى شمسا.

تخرج غلام رشفة من كأسه وخطف ملاحي بنصف التفاتة (أحسست أنه حاول الهروب من السؤال، هل استشعر بالخزي أن يقف أمامي بتهمة قواد) لم يتركه السائل يتنعم بهذا الهروب فعاد إليه السؤال:

- جميعكم يسأل عن شمس، أليس في فتيات الفندق من هي أجمل منها؟

رد السائل:

- هي الأجل وتضيف لجمالها خصلة أخرى، هي تمنح جلسها الاهتمام الكامل وكأنه عاشقها الأوحده.

ضحك الذي يجاوره عن يمينه:

- قل هي أكثر راحة في الفراش.

تضحكا وتلاقت أكفهما في صفة واهنة، ويبدو أن الجملة أغاظت تلك الفتاة المرتبة في حضن رفيقها بإغماضتها المستوحشة:

- لو تنبهتم لحركات شمس ستكتشفون أنها تتصنع في كل شيء.

أعاد السائل سؤاله من غير أن يعقب على مقولتها:

- أين هي؟

رد غلام:

- غداً ستكون بيننا.

انحنيت نحو أذن غلام كان فمي مجاوراً لذلك القشط:

- أريدك للحظات بالخارج.

لم أكن متوقفاً صلافة رده:

- بعد أن تنتهي السهرة ستحدث!!... إيق في مكانك.

قايد تحوّل إلى كرسي مضاف للجالسين فلم تدر منه كلمة واحدة، وعندما

تلاقت عينانا، هز كتفيه إشارة إلى كونه عملة رديئة بجوار هذا القواد اللعين.

[٧٨]

فاض قلبي حقاً على هذا العاهر، كنت أجلس على يساره كبضاعة زهد في شرائها لكنه استمهل عارضها ليقبلها يمنة ويسرة عله يتراجع عن نيته.

يرتفع غناء ممجوج، ورقص لأحصنة ملت الركض فاكثفت بتحريك قدميها وهز رأسها، دخان وقهقهات سكارى، ورغبات تسيل من العيون، وأجساد مشرعة تبين أنصاف أئداء، والصيادون يصوبون عيونهم في محاولة لاختطاف الفتيات القابعات في أحضان الآخرين، بعضهم لا يكتفي بالتريص البطيء ينهض خلف الفتيات الزاهبات لدورة المياه ويعقد معهن صفقات جانبية ترتفع فيها الأسعار وذرف الوعود الكاذبة، كانت عيون كثيرة تبحث عن انفراج إغماضة تلك الحسنة ورشقها بالقبل والغمزات والإشارات المحرصة لتتحرك لجهة تبعداها عن حضن رفيقها الذي استشعر بتأمر الكثيرين على اقتناص فريسته فخبأها في حضنه متمنياً خزق كل تلك العيون المشتهية ثمرته التي لم يقضمها ويتلذذ بطعمها بعد.

بدأت أشعر بالملل، ويفض احتقاري لغلام وخشية من أن تسرب من لساني شتيمة تضاف إلى رصيدي السابق وتعطل ليوته الظاهرة فضلت الخروج خارج الصلاة:

- سأنتظرك بالخارج.

هز رأسه من غير مبالاة، شتمته في أعماقي، وتغنيت لو أستطيع وضع حذائي على رقبته وهرسه كحشرة حقيرة، تحركت قبل أن أفعل شيئاً كهذا، فلحقت بي تلك النادلة على السلم:

- أما زلت راغباً في أن نقضي الليلة معاً؟



- متى تغلق هذه الصلاة؟

- الساعة الخامسة تماماً.

- إذا موعدنا بعد الخامسة .

أي حق هذا الذي أمارسه، لم أكن راغباً بها، في أحيان تتحول اللحظات العابرة الحمقاء إلى قدر، ما الذي يدعوني لأن أستجيب لغزلها في حين أنني غير راغب في مثلها، في كل الرحلات التي جلتها في مدن العالم كنت أبحث عن وفاء، أبحث عن جزء منها في امرأة أخرى، وكل النساء اللاتي صحبتتهن كانت كل منهن تحمل شيئاً منها، كنت محتاجاً لأن أجمع نساء الأرض لأجدها فيهن!!

- لا تنس موعدنا بعد الخامسة.

هززت لها رأسي وخطة تقف في آخر البال للتخلص منها حين يحين هذا الموعد.

كانت الساعة تشير للرابعة صباحاً، اقتعدت مقعداً يجاور دورة المياه المخصصة لبنات الملهى لكي يصلحن زيتتهن وما اعتور وجوههن من خلل، كنت أراقبهن باهتمام، يقفن أمام المرأة يخرجن أدوات الزينة ويمررنها على وجوههن، يفركن خلودهن، بعضهن تتأمل وجهها في المرأة لبعض الوقت فإذا استحسنته عبثت بخصلات شعرها وخرجت تنثني.. بعضهن تحرص على إظهار مفاتها بسحب فتحة الصدر أو التخلي عن شالها ليظهر جمال جذعها الأعلى أو تلجأ بعضهن إلى تمرير فخذها من تلك الفتحة الهابطة من الورك إلى أخمص القدمين، جميع هؤلاء يشتركن في انتظار إشارة من أولئك الزبائن المتناثرين على بوابة المرقص لصنع فخاخ تقتنص حمامة من تلك الحمامات اللاتي لا يحتجن إلى كل هذا العنت في تجهيز شباك الصيد:

- هؤلاء الموسسات جئن من أفران الفقر فتخير إحداهن كلهن لهن أجساد لدنة ونفس مرة.

تعمدت أن أبادلهن النظر، لاحظت أن معظمهن يعرفن بأنفسهن ورقم غرفهن وكل منهن توعكك بقضاء ساعة ممتعة.

جاءت تلك الفتاة الطاغية الحسن تسير بتقاعس مريب، تتموج كموجة كسل، مبدية حسناً مضاعفاً بتلك المشية المتهادية، أحسست برغبة لأن أحدثها، وعندما رأتني اقتربت مباشرة:

- لماذا تركت مجلسك؟

كانت آثار السكرة الثقيلة بادية على لسانها وإغماضة جفنيها اللذين يجثان سحراً يجيي الجدوع اليابسة..

- شعرت بالاختناق.

- اسمي أمل ورقم تحويلتي ٢٣٢ ستجدني أكثر متعة من شمس التي يتحدثون عنها..

وانعطقت لدورة المياه مستندة إلى صديقتها.

هنا الموسسات رهينات للفندق، وليس من حق إحداهن أن تغادر لجهة أخرى خارج الفندق، وليس من حقها أن تذهب قبل انتهاء السهرة، وليس من حقها أن تمنح جسدها لأكثر من ساعة لأي زبون كان والقانون الأخير العودة إلى غرفتها وانتظاراً لمهاينة زبون آخر، تذهب إليه لساعة تدهك فيها جسدها تحت ثور جاء ليحرث الأرض بهمة نسيها في موطنه الأصلي.

هذه القوانين قفلتها من فم أمل قبل أن تعود إلى الصلاة متمائلة وعرضة أن أجربها قبل أن أحكم!

تنافر كل من هو داخل الصالة بعد انقضاء السهرة، وأخذ الرجال يمضون سائلين تلك الفتيات عن أسمائهن وأرقام غرفهن.

خرج الجحش مصطحباً نفراً من جلسائه ومودعاً إياهم بوعود أكد التزامه بها بكلمات تقترب من التزلف وتصعد إلى درجة المجاملة، ضم لصدره صاحب الرشاش - عَرفَه إليَّ على أنه إحدى الشخصيات ذات نفوذ طاع بالبلد - ضمه ضاحكاً:

- أعدك عندما تصل سوف أجعلها تمر عليك بشقتك.

- أخشى أن تقول احجز بالفندق.

ربت الجحش على كتفه:

- لا، لا، لن نعاملك كبقية الزبائن، سأجعلها تمر بك أولاً قبل أن تسلم جسدها لأحد.

(أوه ما هذا العري، كل شيء هنا عارٍ، الكلمات عارية، والرجوه عارية، والأجساد عارية، هل نحن بهذه الأفعال نعود للجذر البشري الأول حين ولدنا عراة ولم تكن لدينا قيم أخلاقية، حين كان كل شيء عارياً، هذه الفكرة ربما أحتاج لأن أنطق لها في مقالة أو أستفتي فيها رجال الاجتماع، ربما أفعل في ما بعد).

أقبل نحوي متضاحكاً، وجذبي من يدي لكافثيريا ملحقة بالملهي، خيرتي في تناول وجبة الإفطار، كان المكان بغض برواد الملهي، أولئك الذين ما زالوا يبحثون عن فريسة ينهشونها قبل أن تنمض عيونهم في نوم ثقيل، بعضهم يبادل الجحش التحيات فيرد عليها بتعال واستكبار.

(تنتاب القوادين لحظة كبر، دناسته تغدو ميزة في أوكار البغاء، فكل من حوله مدنس ولأنه يقدم الخطيئة المطلوبة من قبل الجميع تتحول صورته من فعل مشين إلى فعل نبيل، هو أشبه بمن يقدم الماء الزلال لمجموعة عطشى في صحراء هالكة ولا ضير أن يكون الماء الزلال مخلوطاً ببصاقه! هذا فعل نبيل من وجهة نظر أولئك العطشى!! هي هكذا الحياة، نحن نرى الصورة مقلوبة بعض الشيء، أنتقبل غطرسة القوادين بهذه الفكرة، فكل فعل مشين هو انعكاس لفعل حسن، والحكم على ذلك الفعل يأتي من موقعنا، من زاوية الرؤية لذلك الفعل.. انتقال من فراغ إلى فراغ ورغم يقيني بذلك إلا أنني أزدريه.. أزدريه تماماً).

الذي بدأ يؤرقني ما نوع العلاقة التي تربطه بوفاء؟

كانت فتاتان تجلسان داخل الكافثيريا فوجّه حديثه لهما:

- أليس من الواجب أن تكونا في غرفتيكما فريماً طلبكما أحد الزبائن؟

ردت إحداهما: ستناول وجبة الإفطار ونمضي إلى غرفتي.

زجرهما معنفاً: في غرفتيكما تناولا ما تشاءان.. هيا.

نهضت الفتاتان متذمرتين، ف جذب أجملهما ووجه حديثه لي:

- هل ترغب في هذه؟

اعتذرت، فأحسست بأني أهنت جمالها فانتصرت له:

- لو دفع مليون ريال ما ذهبت إليه.

أطلق الجحش ضحكة واسعة، والتفت إلي:

- ما هي أخبار جدة؟

- جيدة..

- ما الذي جاء بك إلى عدن؟

وقبل أن أرد عليه أكمل: سمعة عدن السياحية تناسبكم أنتم.. نعم

تناسبكم.

- وعملك الذي تقوم به هنا يناسبك تماماً.

أحسست بأني اتفرت خطأ فادحاً ظننت أنه سيشتمني أو يقودني إلى خارج



الفندق، صمت قليلاً محدقاً في وجهي ومتلعباً بالكأس التي تجاوره:

- بلدكم تصنع كل شيء؟!

- لم أقصد يا غلام...

- بل تقصد ولا يعنيني ما تقوله، فمن هذا المكان أرد كل السخريات التي تلقيتها في بلدكم، هنا أعرف كيف أحرق قلوبكم، وكيف أستغل بلهكم!

لم أشأ أن أضيف لحسابي معه عداوة جديدة أو فتح غزن حقد القديم، كنت في حاجة إلى إبعاده عن حالته العدائية التي بانت على ملاحه وجعلته يبدو أكثر فظاظاً وهو يرد على من حولنا، أحسست بأن شيئاً يغلي في داخله:

- سمعت أن توفيق هنا، هل فعلاً حل الجنسية اليمنية؟

نظر نحوي بازدياء:

- هذا لا يعنيك!

رده المتعصق قرب من داخلي رغبة أن أعلق رقبته في يدي وأبصق عليه، كظمت غيظي وتجرعت رشفة من الشاي الذي قدم لي منذ وقت مبكر، لمحته يتطلع في زبائن الكافتيريا ويرد على التحيات المتعددة التي تلقاها من أولئك المجالسين في انتظار فريسة ممثلة تشبع منهمهم وتكمن عيونهم المفتوحة من الإغماض بقية النهار.

(هذا القواد هو البوابة الوحيدة لمعرفة طريق وفاء، هل يمكن أن يكون قد تزوجها هذا العاهر، أه يا وفاء كيف تجعلني لهذا القواد طريقاً إليك، ألا تخافين على سمعتك، خاطر لعين اجتاحت خيالي فصعقتني لأهرب منه صوب الجحش باحثاً عن اطمئنان...).

- غلام.

الثفت نحوي متهمكاً:

- أنسيت أنك لم تقل هذا الاسم مطلقاً، دائماً كنت تناديني بالجحش فلماذا غلام الآن؟

- لننسى تلك الأيام.

سحب سيجارة من علبة ووضعها يتمهل بين شفتيه:

- لا أظن أننا سننسى شيئاً من تلك الأيام.

- أما زلت حاقداً علي؟

- ربما كنت حاقداً في زمن مضى أما الآن فلا.

وأطلق ضحكته جافة وهو يتلقى سؤالاً:

- هل تزوجت يا غلام؟

أشار بيده في الفراغ:

- كيف أتزوج وأنا قادر على مضاجعة كل هؤلاء النسوة.

(شعرت بطمأنينة، لم يفعلها إذاً، كان يعدد مزاييا العاهرات فيما يهبته من متعة حينما يشاء).

قاطعت استرساله بسؤال مباغت:

- هل تعرف طريق وفاء؟

حلق في وجهي ونهب من سيجارته دخاناً كثيفاً وأطلقه في وجهي:

- أما زلت تحبها؟

.....

- لماذا لا ترد؟

- برحيلها أصبحت حياتي مرة، عشرات السفرات لليمن لم أستطع الوصول إليها، أخيراً عرفت من عيسى شرف أنك تعرف طريق وفاء... أريد رؤيتها.

قهقه بصوت متواصل وضرب فخذه مراراً:

- هل تريدني أن أقوم بالدور السابق نفسه؟

- سأعطيك ما تشاء من تقود؟

بلل سيجارة أخرى بلسانه معمقاً بصره في وجهي:

- كل ما أريد.

- نعم كل ما تريد.

- حسناً، غدا أوصلك إليها.

- هل أنت متأكد؟

- نعم متأكد.

- بقي سؤال ..

- هل تزوجت؟

- وعدتك أن تراها، وعندما تلتقي بها ستخبرك بنفسها.

- ولكن.....

نهض مودعاً:

- عليّ أن أنام فقد أمضيت يوماً مرهقاً، سأوصي عمال الفندق بتلبية كل

طلباتك.. تصبح على خير.

وسار عمودياً نحو حديقة امتدت أمام الفندق خصصت للعاملين به،  
لمحت النادلة ترمقني من بعد ويدها تشير لي أن أتحرك أمامها.. سرت إلى  
الاستقبال وتناولت مفتاحي وعدت إلى داخل غرفتي.

[٧٣]

لم أكن متوقفاً استجابته السريعة هذه، هل حقاً سيوصلني لها أم أن وعده  
هذا مجرد ملاحظة لإذلالني، أعرف هذه الحشرات من البشر، هم يبحثون عن  
المال وأشعارهم بأنهم يقدمون خدمات جليلة لك بعيداً عن مفهوم الخطيئة  
الترسب في أعماقنا، هم يتحركون من اتفاق ضمني، اتفاق أن أميك المتعة  
من غير تذكير بالأخلاقيات، فالأخلاقيات تنوزعها حين نكون معاً مرتدين  
أقنعتنا، أما إذا خلعتنا تلك الأتعة فيكون هو متفضلاً عليك بتقديم هذه  
الخدمة النبيلة.

سوف أمنحه هذا الشعور ..

أثناء ما كان يحدث جلساءه ملت على قايد متسائلاً عن وضعه داخل ذلك  
الملهي، سرّب جوابه بحذر وخشية:

- هو المشرف على الصلاة.

تذكرت مقولة عيسى شرف بأنه يتصرف كقواد محترف، الله أعذاً خسيساً  
إلى هذا الحد؟ ما زالت المشاعر الحارقة تغمرني وغيظاً يحرق داخلي.

(كيف تسمح وفاء لهذا الحقير أن يعرف طريقها وهو الغارق في هذه المياه  
الأسنة، كنت أظن في البدء أنه تزوجها، نفية جعلني اطمئن بعض الوقت، آه  
لماذا لم يجيني حين سألت: هل تزوجت؟ هل تزوجها ولم يشأ أن يحرق مفاجأة  
لي بهذا الانتصار، رأيت لمعة غريبة تنبثق من عينيه حينما أخبرته بأنني ما زلت  
أحبها.. حينما قلت له هل أستعد للسفر إلى صنعاء ضحك مزديراً هيئتي  
ومتمثلاً حركاتي:

- هل استعداد للسفر لصنعاء؟



كدت أخطف رقبته كما كنت أفعل دائماً، لولا أن تدارك نفسه مهوئاً  
الأمر:

- وفاء تسكن في عدن.

كيف تسمح وفاء لهذا القواد بمعرفة مسكنها؟.. ما هي العلاقة التي  
تربطهما؟

جيوش من الهواجس تتزاحم في مرقدتي، أصعق منها، بقي هاجس  
يسومني سوء العذاب ويتثبت في مخيلتي.. هل تزوجها وأراد إذلالها، أراد أن  
يقول المنتصر من يضحك أخيراً.

لقد توعدني ذات ليلة بأن تكون له...

جافاني النوم، تناولت دفتراً أنيقاً كنت أحله معي في كل سفرائي لأسجل  
لها رسائل شوق لم تصلها، كنت عازماً أن أعطيها هذا الدفتر حالما أجدها،  
كنت مصراً على ذلك حتى ولو وجدتها في آخر العمر وأحفادها يحفون بها،  
كانت جملة طاغية أرددها في كل مكان من هذا الدفتر:  
- أحالت حياتي إلى ريحانة عليّ أن أندوقها يومياً.

هذه الصياغة اخترتها من عدة صياغات كي لا تشور كعادتها، كي لا  
تتهمني بشيء، رسائل عديدة أكتب فيها ما أحدثه رحيلها من دمار في داخلي،  
وحرصت أن أوقع على كل رسالة الوقت والمكان اللذين كتبت فيهما  
رسالتي.. شعرت برغبة لأن أكتب لها آخر رسالة، سأسلمها هذا الدفتر لنقرأ  
كل العذابات التي مرت بي في بعدها، كل المارة، الشوق، الحنين، الأغاني،  
الضحكات، أريدها أن تقرأ كل شيء، كل شيء.. لا بد وأن تكون رسالة  
فرح بدنو موعدتي معها.

أظن أنني كتبت أجمل رسالة فرح، رسالة مختصرة، مختصرة جداً لكنها أجمل  
ما كتبت.

رن الهاتف في غرفتي من الطرف الآخر جاء صوت امرأة حاولت أن  
يكون صوتها شهياً من خلال تكسير الكلمات بضحكات ملتوية:

- أنا أنتظرك خارج الفندق.

- من معي؟

- أنسيت موعدنا؟ لقد طلبت أن تقضي بقية الليلة معاً.

- أشعر بالإرهاق لنؤجل الأمر هذه الليلة.

- أنا محتاجة إلى ألفي ريال، هل أرسل لك أحداً لتعطيه..

- لنؤجل كل شيء للغد.

- ألفان يماني وليس سعودي.

- قلت لك غداً.

- أعدت السماعة لموقعها.

(أي عذاب وحاجة تقودان امرأة لأن تبيع جسدها مقابل عشرة ريات،  
عشرة ريات مقابل أن ترمي يومياً تحت أجساد تلوب فوقها وتهرب منها  
كبيارة طفع ماؤها..).

لم أكن أعلم أنني أسكن في فندق يثير حفيظة أهل عدن، لم أكن أعلم ذلك. توضح ذلك من خلال سيارات الأجرة التي أوقفتها فكلما فتحت الباب مردداً:

- فندق وضاح.

يرفض السائقون الذهاب إلى هناك معتذرين بحجج مختلفة، بعضهم كانت ملاحظتهم تكفرهم فجأة ويشعرون بيهة أو يبرطم بجمل يحملها الريح قبل أن تصل لسامعي، أحدهم تأمل وجهي وهو يدفعني من داخل السيارة:

- هذه الأماكن تشوه تاريخ عدن وتشوهنا معه، أريد أن أقول لك كلمة: نحن ليس هكذا أبداً.. أنتم لا تبحثون إلا عن الأماكن المشبوهة!! يبدو أن جملته لم تخرج احتقاره كاملاً فتخلص مما علق في صدره من روائد:

- النفس الخبيثة تبحث عن الرائحة الخبيثة!!

قفز في بالي عامل فندق سباً حين تبرأ من قايد، وعندما لم آبه به قال جملته التي انبعثت الآن كجرح قديم: كلكم تتشابهون.

ها هو السائق يعيد جملة ذلك العامل بصياغة أخرى لكنها أكثر قسوة. انتظرت ساعة لكي أجد سائقاً يحملني للفندق وبمبلغ مضاعف وكنت خلال الطريق أحاول إبداء أسفي لنزولي بهذا الفندق محملاً مسؤولية اختياره لسائق حملي من المطار مباشرة إلى هنا.

عندما وصلت إلى الفندق كان الجحش يجلس في مقوات كبير يحف به بعض نزلاء الفندق ومعظمهم يتزلف إليه بكلمات لم يكن يسمعها لولا أنه امتنن بتقديم خدمات قذرة..

استنهض فتاة كانت تجاوره، وأفسح لي مكاناً بجواره، وناولني قرف قات:

- هذا أجود أنواع القات خزن.

- غلام، أنت وعدتني.

قاطعني وهو يربت على فخذي:

- كما وعدتك سترها الليلة.

[٧٤]

أعدت قراءة رسالتي الأخيرة، انتشيت كثيراً بتلك الجمل القصيرة الدافئة، غداً ستكون هذه الكلمات نبأً لعيون وفاء.. هل يعقل أنني سأراها غداً؟ أغلقت الدفتر ووضعت على الطاولة المجاورة لسرير النوم، واستحضرت وجهها في محاولة للدخول في نوم استعصى كثيراً..

كان نوماً قلقاً، كنت أستعجل الوقت لكي يمضي، أخذت أنقلب في فراشي لزم من طويل وكلما حاولت الدخول في النوم انهالت كثير من صور الماضي، أراها تقف بكل أشكالها، باكية، ضاحكة ساخرة، لم أتمكن من تخيل وجهها بعد عشر سنوات، بقي وجهها كما هو طاغي الأنوثة، شهبي الكبرياء عذباً، بقيت كترنيمه لا تنسى، كنت أنسق الكلمات التي سأقولها لها، أعلم أن كل الكلمات ستسقط وتلاشى حين أقف حائراً أمام عينيها.. سأقف حائراً بأي جزء منها أشيع هذا الظلم.

استويت في فراشي في تمام الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق، اغتسلت وارتديت ملابسي، ونزلت أسأل عنه، كان الجواب:

- غلام لا يستيقظ الآن عادة يستيقظ عصراً ولا يستطيع أحد إيقاظه قبل هذا الموعد.

(ماذا أفعل الآن. من مخططاتي زيارة عيائش، فمنذ أن رحل من جدة ولم نقطع السؤال عن بعضنا) توجهت إليه، وأمضيت سحابة النهار معه، واستسلمت لقسمه في تناول الغداء معه.

كنت أحاول التملص من مرافقته لي، فاعتذرت بوجوب رجولي للملاقاة صديق آخر، وغادرته رافضاً أن يوصلني وتصافحنا على أمل الالتقاء في وقت لاحق.



- ومتى نذهب؟

- حالماً أنتهي من تخزيني.

- طمّني يا غلام.. هل تزوجت، أنجيت؟

- قلت لك سابقاً وفر أسئلتك إلى أن تراها.

- سؤال أخير، هل تزوجتها؟

ضحك كما لم يفعل في حياته، وضمني إلى صدره مقهقهاً:

- أما زلت تذكر.. أنت لم تنس شيئاً.

- قل.. تزوجتها.

- لن أجيئك، سأتركك في حيرتك.

- أرجوك يا غلام أخبرني..

- بعد ساعات سترأها وستخبرك هي بكل شيء.

اندلق كلام كثير وأنا أستطيع الوقت..

وكلما نظرت إليه صبرني بيده أو بغمزة من عينيه.

انتهى من تخزينه في العاشرة مساءً، ونهض مثاقلاً:

- اذهب وغير ملابسك وسأنتظرك داخل الملهى.

- أنا جاهز..

- هل يعقل أن تقابلها هكذا مغبر مصفر الوجه.. اصعد لغسل وجهك

ولتغيير ملابسك

- ومتى نذهب؟

- حالماً تنزل.

- الوقت تأخر كثيراً فهل يليق أن نذهب في مثل هذا الوقت؟

- لم أعرف أنك مؤدب إلى هذه الدرجة..

وقاضت من فمه تلك الضحكة البشعة:

- أنسيت أنك كنت تذهب إليها في الساعة الثانية صباحاً..

وتعددت بشاعة ضحكته، وهو يدفعني لتغيير ملابسي.

[٧٥]

نزلت درجات السلم المؤدي للمرقص، وجلت ببصري فوجدته يقتعد الطاولة نفسها يحف به رفاق الأمس، تحركت إليه وحنيت بجذعي خافتاً إياه:

- لنذهب.

- أين؟

- غلام دع هذه الماطلة فقد اتفقتنا أن أعطيك ما تشاء من نقود.

- أنا لا أملك ألا تريد رؤية وفاء؟

- بل.

- انظر إنها تجلس هناك.

تسمرت فجأة، كانت تجلس مع بقية المومسات توزع نظراتها وابتهاماتها

لنزلاء الملهى!!

- أي زلزال هذا!!

ظلام، وضوضاء، وصفارات إنذار، وهلع وشوارع مقفرة، وصوت

سليمان العيسى يهذر من التلفاز متلعثماً يحاول دفع هلمه:

- انطلق صاروخ..

صاروخ يخترق سقف السماء، يقترب من هدفه بسرعة مذهلة لا يحيد عنه

- لا أريد أن أموت هنا.

يندفع الصاروخ نحو هدفه، يستقر بهامتي ويتناثر لحمي على جدران كل

المدينة، زوجتي وأبنائي يهرون من دمي، أمي تجمع أشلاطي الممزقة،

وتنتحب، نحبيها يتداخل مع أغنيات زوجتي على ضربات دفوف جعدة،

الصاروخ يرتطم بهدفه يفتتار رأسي مستقراً له ويغرسني في قاع الأرض،

يغرسني عميقاً.

نعم إنها هي، لست خموراً، أو مستعيراً هيئتها لأنسقتها على قوام امرأة تشبها، هي نفسها، لا تعبر أحداً بؤبؤ عينيها، تجلس كإمبراطورة تحف بها الوصيفات من كل جانب، والمخمورون يقتربون منها، يميلون على وجهها، يلمسون خدها ونحرها، يفرسون شفاههم تحت ذقنها يضعون أيديهم على كتفها يستشقون عبيرها، وتلتهم عيونهم جسدها.

ها هي تمنحهم كل شيء إلا عينيها، توزع ابتسامتها (أظنها أبقت شفقتها منفتحتين فهي على هذا الحال منذ أن وقعت عيني عليها) وتمنح كل محدثيها كثيراً من فنتتها، ولا تعارض في تبادل القبل الخفيفة والتلويح باليد للبعيد من من احتسى اسمها مع شرابه الروحي فظل يردد كنيته: شمس.. شمس.

(شمس.. هل هي التي قصدتها قايد، ورأيتها في مواقع مختلفة في صنماء بصحية رجال مختلفين.. كم من الحقم نرتكب حينما نظن أن أزهار أرواحنا لا يمكن لها أن تلتوث وتسحق تحت الأقدام!).

ارتفع صوت المغني بغناء أغنية صناعية، فتهاافت النساء والرجال إلى حلبة الرقص، وامتدت إليها الأيدي للمشاركة، تهادت بينهم كوردة بزغت بين أسلاك شائكة، حوطها أربعة رجال كل واحد يلدنو منها يعصر خصرها أو يحكم بمؤخرتها - حافظت مؤخرتها على توترها وبروزها - كان الجحش يرمقها ويتطلع إليّ بتشوّ.

غرس فمه في أذني:

- اسمها هنا شمس!!

- .....

- ألا ترى أنها ازدادت جمالاً؟

تمنيت لو أن قرن الغزال لم يقشط صدره بل غاص وانتزع أمعاه.

- أريد أن أراها.

- الليلة جمع من هنا يريدنا.

وأشار إلى رفيقه الذي عرفني عليه انه صاحب نفوذ:

- هذا جاء من أجلها لكنني سأندبر الأمر واجعلها تقتنص ساعة من

أجلك.

تَشَفَّيه كان واضحاً وهو يتلاعب بكلماته:

- أتكنيك ساعة، أظن أن الساعة كافية.

- .....

- ... فقد غابت عن زبائنها أسبوعين والكل يريدنا.

- .....

- أفضل ألا تراك هنا، اصعد إلى غرفتك وسوف أرسلها لك..

- .....

- أخشى ألا أتمكن من نقض حجوزاتها.

- .....

- لا، لا، سأقدم دورك على الجميع ثق بهذا!!

- .....

- أريد رؤية عاشقين يلتقيان بعد زمن طويل، ولتقيان بهذه الصورة لقد

اشتقت لثل هذه الصور

- .....

- لا تظن أن صمتك سيجعلها تترك عملها لكي تواسيك، أنصحك ألا

تبدي هذه الروح المنكسرة، ستعاملك بمثل وقرف إن أظهرت هذه المشاعر.

- .....

- هيا انفض.



- وهل رأيتني هناك؟ هذه المهنة لا تجعل الواحدة منا تركز على الوجه هي مهنة نجعلنا نركز على الجيب أكثر من أي شيء آخر.  
رفعت يدها المثقلة بالذهب فبان ذلك الجرح الذي مزجنا دماءنا من خلاله، أمسكت بجرحي المقابل فلم تثرها حركتي بتاتاً (ها هي الجراح تبتعث، تنبتح بذكرة واحدة، ويغدو الجرح منسياً، جرح بقي أثره ومات زمنه.. لا فائدة).

[٧٧]

- متى جئت لليمن؟

- ما الذي دفعك لهذه الحياة؟

- أنت الآن مثلك مثل أي زبون فلا تسألني عن الماضي..

نهضت متحزراً، فأجلستني على السرير وعبثت بشعري، وأخذت تبتحث عن تلك الشامة التي استقرت أسفل ذقني كلما جئتها متربصاً بفنتتها تضم وجهي بيديها وتمسك بشامتي المستقرة أسفل ذقني، تمسكها وتجرها جرّاً خفيفاً متمنية لو أنها صعدت إلى صحن خدي:

- الشامة تزين المرأة وليس الرجل..

- أريدك أجمل الرجال.

عبثت بشامتي وحاولت أن تبدو طبيعية:

- خلال هذه السنوات ألم يتغير موقع شامتك؟

وضعت وجهي بين يديها وانحنت لتقبيل شفتي السفلى فدفعتها بعنف رقت أسفل السرير وغطى شعرها الكثيف وجهها، استندت على ركبتني ونهضت.

- هل يشفيك قلتي، افعل ذلك إن شئت أتمنى ذلك، كنت أتمنى لو أن شخصاً قتلني قبل أن أصبح هكذا.. أما الآن فلا يجدي أي شيء!!

كنت صامتاً أنظر إليها وهي تخلع ملابسها بالكألة قاتلة.

- لا تضع الوقت فالساعة المقررة لنا تقضي بسرعة والجحش يترقبني!

تعرت تماماً واستلقت على السرير، ضميرتها قليلاً وبانت شحوم خفيفة أسفل بطنها، رأيتهامدة كجثة مجمدة اقتربت منها وغطيتها بملايات السرير

كنت أنتظرها في غرفتي.

ولم أكن أنتظر ردها:

- أنا الآن أمامك والتي تعرفها انتهت منذ عشر سنوات..

كان يقف بيننا كعادته، مبسماً ويده لم تتراخ منذ ذلك العهد:

- في السابق كنت أقبل بأي شيء تضعه في هذه اليد أما الآن فانا الذي يضع التسعيرة.

.....

- بقاؤها لساعة يكلف أي زبون ثلاثمائة ريال سعودي أما أنت.

قطع حديثه ونظر إليها وهي ترفع خصلة شعرها عن عينيها وتطرق بلبانة مل منها قمها:

- أما أنت فسوف تدفع ألفي ريال سعودي حتى تتمكن من معاتبتي إن شئت.

وضعت في يده ألفين وخمسمائة ريال ودفعته إلى خارج الباب:

- يكفي ألفان فقد تحسنا ساعة أخرى.

وناولني خمسمائة ريال وانسحب ضاحكاً..

جلست على سريرتي واضعاً رأسي بين يدي وانهيارات عظيمة تنقوض في داخلي، جلست بجوارتي وغرست رأسي في صدرها، حم من البراكين ثارت أحسست بنيران تشتعل في جوفي:

- إذا أنت التي كنت تظهرين في فنادق صنعاء؟

البيضاء، ها هي في كنفها وها أنا أدفع بها للقبر أهيل عليها عواصف من الغضب المكبوت، وحزن عاصف يقتال جوانحي.

أزاحت الملايات عن جسدها ونهضت، ارتدت ملابسها، وانكبت على الطاولة لتكتب على ورقة نزعتها من دفثري المذدوف هناك ونهضت عجلة:

- انتهى الوقت المحدد لك!!

للمت جملتها السابقة باعتذارات متتالية، وتناولت الدفتر الذي كتبت لها فيه كل رسائل الشوق، تناوله ومزقت آخر رسالة وانحنيت لتكتب عليه بسرعة متناهية، واقرت مني، قبلت رأسي:

- أنا محتاجة إليك فلا تخذلني... أريد رؤيتك خارج الفندق سأنتظرك في هذا العنوان.

ودست في يدي ورقة كتب فيها عنوان ورقم تلفون ومضت بعجلة.

وقفت في الفراغ، معلقاً بين الدهشة والغضب، مسفياً كحفنة تراب عشت بها ريع عاصفة ومضى، الصدمة لم تجعلني أستشعر بحجم الكارثة التي واجهتها قبل قليل، انتشلتني طرق خفيض على الباب.

(هل عادت.. عادت لتبكي وترمي رأسها في حضني، تعتذر عن سقوطها في هذا الوحل، تنتصر لحبنا، تغسل بدموعها درن جسدها الذي رسب في كل هذه القاذورات..)

تتواصل النقرات الخفيفة على الباب، نهضت متثاقلاً وانفتح الباب على مصراعيه، رأيت إغماضتها نفسها التي تسيل بسحر الدنيا وأناملها التي توشح بنمنمات الحناء، فتحت إغماضة عينيها باشتهاء متوحش، ودفعت الباب ودخلت:

- أريدك أن تجربني وتحكم أنا أم شمس!!

وأخذت تستل ملابسها قطعة قطعة.

[٧٨]

بعد تردد قررت الذهاب إلى العنوان الذي أعطتني إياه، كانت تقطن في منزل متواضع فيه سرير واحد وثلاجة صغيرة وأدوات زينة استقرت على فترينة ألصقت بها مرآة دائرية، ارتدت فستاناً يصير رديفها ويظهر بروز إلبها واتسعت فتحة صدرها فأبانت جزءاً من انشطار نهديها، بقيت شفتاها أكثر ارتباكاً ولجلجلة.

- أنا في ورطة أريد مساعدتك.

مددت يدي إلى جيبي، فأسرعت برفعها:

- الحياة التي أعيشها توفر لي المال الكثير.

.....

تناولت صورة لمولود لم يتجاوز عمره ستة أشهر:

- هذه الخطيئة التي أريدك أن تساعدني فيها.

.....

- سيكون لقيطاً لو لم يجد أباً ينسبه إليه.

.....

- لا أريد منك شيئاً، أريدك أن تبني اسمك لهذا الوليد.

.....

- يكفي أن تنسب لك حتى لا أنساك ما حبيت.

.....

- ستكون في الماضي والحاضر دائماً.

.....



- بنقر لا يعرف إلا الكتابة وسماع الأغاني.

فليفت حولها بقية إخوته راجين منها أن تلزميني بتبتي ما تبقى من مائة مرقش ومرقش.

ها أنا مليباً دعوتهم أحل وثيقة ميلاد جرو جاء من ماء مائة كلب وكلب .  
وكلاي الصغيرة أين هي الآن، خطفتهم الغولة جعدة، وخباهم في مغارة  
لا تصل إليها العين، ربما يقتعدون غرفة صغيرة مغلقة الأبواب ينبحون كما  
يشاؤون، وأهم تركض مع زوجها في مكان ما من جدة تمسح بيدها عمراً  
قضته في انتظار رجل عشق الفراغ فانتقل إليه بمخيلته وبالسفر . . هي  
وأولادي رحلوا أيضاً لفراغ آخر، سيتنبه الريح أني عمود دخان، وسيمود  
ليمزني . . سيمزني، فإلى أي أرض سامضي؟!  
أبعدت صورة ذلك الجرو وتطلعت من النافذة . . . غابت عدن ولا أثر  
لتلويحة يدين صغيرتين، ارتفعت الطائرة عالياً . . عالياً جداً.

٢٧ يونيو ١٩٩٩ - ١٣ إبريل ٢٠٠٣

[٧٩]

ها هي الطائرة تحلق في سماء عدن، لم أقدر على البقاء أكثر من ذلك فقد  
انتهت جميع الإجراءات بسرعة متناهية، عياش والجحش كانا شاهدين لانتساب  
هذا المولود، انتهى الأمر بأن وقفت أمامي وقبلت رأسي، وزودتني بالوثيقة  
الرسمية للمولود وأبقت عندها صورة منها، كانت يدها ممدودة بصورة ذلك  
المولود:

- ابق هذه الصورة معك!!

كنت مستسلماً أنفذ رغباتها بخنوع رغم العواصف التي تمناحني وأكبح  
مجاحها أن تنسكب في لحظة عتاب كنت أنسحقها في مخيلتي، انتهى كل شيء  
ووجدت نفسي أبحث عن الفندق وعن يد تلوح من هناك.

ها أنا أنقل من فراغ إلى فراغ، فراغ . . فراغ . . فراغ

جنحت الطائرة غرباً، مددت يدي لجيبي اصطدمت بشهادة الميلاد وصورة  
المولود، أخرجتها ووضعتها أمام بصري لمحتهم يتصايحون وهم يشاهدون  
فيلمهم الأثير (مائة مرقش ومرقش) وكان أصغرهم يحصي عدد أفراد الأسرة  
متمنياً أن يصل عددهم إلى مائة وواحد ثم يرتد كثيراً:

- أسرتنا الصغيرة لا يمكن أن تصل إلى هذا العدد!!

ينزوي خلف ظهر أمه متمنياً إليها:

- قولي لبنقر يتنى كلاباً مرقشة . .

فتسحب أمه ليكملاً ضحكة مستهجنة من غضبي الفائت على الدوام . .

ويثقلت لسانه أكثر: